الباب الثانى

قضايـا المعـنى

إبداع المعنى فى اللغة العربية
من منظور تعدد الحقول المعرفية

لعل أهم الجوانب فى دراسة الاتصال اللغوى هو جانب المعنى. ذلك بأن الاتصال يتم بواسطة الإلقاء والتلقى، ويسعى المتلقى دائماً إلى إدراك مقاصد الملقى. وقد تقوم العقبات فى سبيل إدراك هذه المقاصد فيكون ذلك سبباً فى فشل مشروع الاتصال، بل إن الملقى نفسه قد يكون سببا فى إفشال هذا المشروع، إما عن عمد وإما عن غفلة. فأما العمد فإن اللغة قد تتخذ وسيلة لإخفاء المقاصد الحقيقية للملقى وتضليل المتلقى، على نحو ما يحدث أثناء المفاوضات السياسية، أو بواسطة صور أسلوبية خاصة كالإلغاز والتعمية مثلاً. وأما الغفلة فقد يأتى خفاء المعنى بسبب ما ينشأ عن بعض التراكيب من اللبس الذى يكون سبباً فى تعدد احتمالات المعنى بحيث تقوم الحاجة إلى قرينة تدل على إرادة واحد منها دون غيره، كما فى قولنا: "زيارة الأصدقاء تسعد النفس" إذ لا يدرى السامع من الذى زار ومن الذى سعد بالزيارة. ومثل ذلك قوله: "زرت جميع متاحف الآثار المصرية" إذ يصلح لفظ "المصرية" لوصف المتاحف كما يصلح لوصف الآثار، إلا أن تقوم قرينة على إرادة أحد المعنيين.

واللغة نظام يربط بوسائله المعينة بين ما يقال وبين طريقة فهمه، سواء كان القول سعيا إلى إيضاح القصد أم إلى إخفائه. وكأنى بإظهار المقصود يبدو ألصق بالتزام الطابع العرفى للأداء اللغوى كما يكون إخفاء القصد ألصق بالطابع الأسلوبى

الفردى. ويربط ذلك من جهة أخرى بدرجة الإعلامية فى النص؛ فإعلامية النص قد تكون فى الدرجة الدنيا كحين يتفق اللفظ فى ركنى الجملة نحو: الحق حق والباطل باطل، إذ لا يضيف الخبر شيئاً إلى ما عبر عنه المبتدأ، ومثله ما نجده فى قول أبى الحسن الأشعرى: من عرفنى فقد عرفنى ومن لم يعرفنى فأنا أبو الحسن الأشعرى.. الخ، وذلك عندما أعلن هجره للاعتزال وانفصاله عن المعتزلة. فهذه الدرجة الدنيا من الإعلامية تفتقر إلى إعلاءٍ يرقى بها إلى الدرجة الوسطى (وهى الدرجة المثلى فى الإعلامية) ليؤولها المتلقى إلى معنى مقبول. أما الدرجة العليا من الإعلامية فهى درجة الإلغاز والتعمية، وهى تحتاج إلى خفض يهبط بها إلى مستوى الدرجة الوسطى التى يسهل بها فهمها عند ما يُجرى فك شفرتها من قبل المتلقى.

وإذا كانت اللغة نظاماً فإن من شأن كل نظام أن يكون مؤلفا من وحدات متكافلة متضافرة فى أداء وظائفها. فشأن كل وحدة فى علاقتها بالأخرى هو كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كاليدين تغسل إحداهما الأخرى". ولهذا التكافل والثبات فى بنية النظام كان الاطراد من ثوابت النظام. بل فى الدرجة العليا بين الثوابت يدعمها ثابتان آخران هما أمن اللبس فى المعنى وطلب الخفة فى المبنى.

وهكذا تبدو العلاقة بين الثوابت الثلاثة كما يلى:

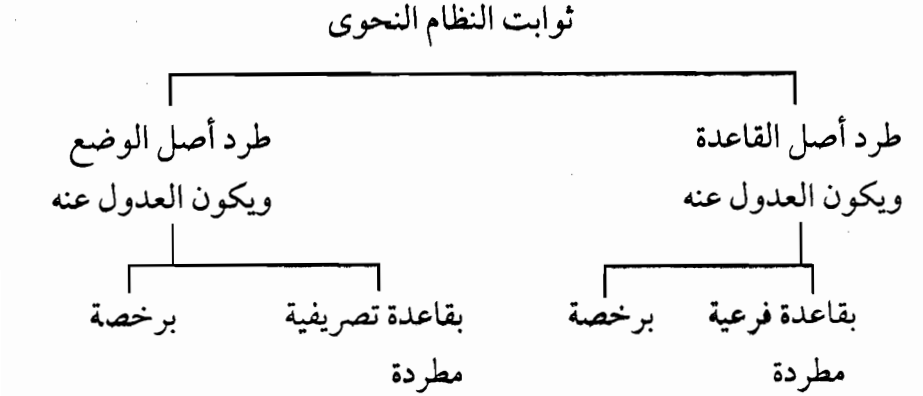

وإذا كان همنا فى هذه العجالة مرتبطا بالمعنى فإننا سنوجه كل جهدنا إلى إدراك

كل هذا المعنى اللغوى، وذلك بواسطة ذكر أقسامه وطبيعة كل قسم منها، وطرق الإبداع فى حدود كل قسم من هذه الأقسام. وفيما يلى بيان لهذه الأقسام:

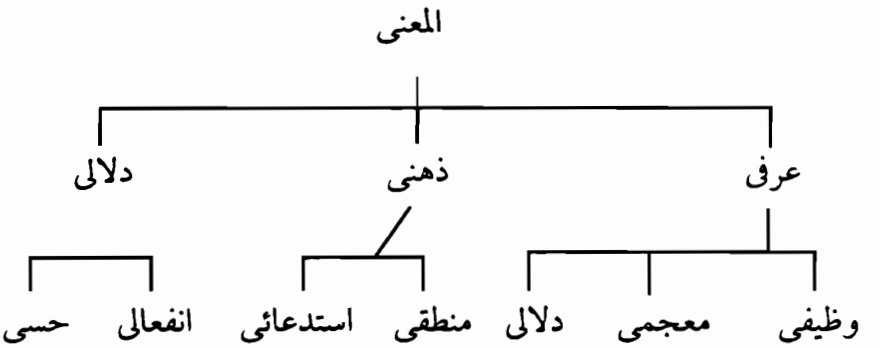

المعنى العرفى:

ينقسم المعنى العرفى كما يبدو فى الشكل البيانى إلى وظيفى ومعجمى ودلالى. دعنا أولاً نلق نظرة على المعنى الوظيفى لنعلم أنه ينقسم إلى قسمين: تحليل وتركيبى. ولقد ذكرنا منذ قليل أن اللغة نظام أكبر مكون من نظم فرعية بينها علاقة تكافل تجعل وظيفة كل منها تتوقف على وظائف النظام الفرعى الآخر. تلك النظم الفرعية هى: نظام الأصوات ونظام الصرف ونظام النحو. فأما النظام الصوتى فيقوم على اتفاق الأصوات أو اختلافها فى المخارج والصفات، وليس للصوت اللغوى فى ذاته معنى ولكنه يتخذ وسيلة للوصول إلى معنى الكلمة. فالحركة الإعرابية صوت، ونون الرفع صوت، والأمر كذلك فى تاء الفاعل وألف الاثنين وواو الجماعة وتعدية الثلاثى اللازم بالهمزة أو بالتضعيف وظواهر أخرى تكون فيها الأصوات المفردة وسيلة للوصول إلى معنى من معانى النحو. عندئذ يكون الصوت قرينة من قرائن المعنى. وأوضح ما نسبت إليه صفة القرينة من الحركات ضمة الفاعل وفتحة المفعول. ومعنى هذا أن النظام الصوتى لا يقوم لذاته ولا بذاته، وإنما ليقوم بإمداد النظامين الصرفى والنحوى بقرائن للمعنى الوظيفى فى نطاق هذين النظامين، كما يعين على أداء المعنى الانطباعى الذى لم يحن وقت الكلام فى شأنه.

أما النظام الصرفى فإن نصيبه من الدلالة على المعنى يتعلق ببنية المفردات وليس بالمفردات ذاتها؛ لأن المفردات ومعانيها المفردة تقع فى نطاق المعجم أما البنية وما تدل عليه من معنى عام (حقه أن يؤدى بالحرف) فهى ومعناها يقعان فى نطاق النظام الصرفى. فإذا قلنا إن البنية التى تتمثل فى صيغة "استفعل" تدل على الطلب نحو "استغفر" أى طلب المغفرة فينبغى أن نعلم أن الطلب من المعانى العامة التى لا تقتصر على مطلوب بعينه وأن مثله كمثل دلالة اللام على التعليل ودلالة الواو على القسم. ومن هنا تكون "استفعل" قالبا يمكن أن يصاغ على مثاله عدد لا حد له من الكلمات. كذلك إذا قلنا إن المصدر يدل على الحدث فإن عدد الكلمات الدالة على الحدث (وهو معنى عام) قد يستعصى على الحصر. ومن قبيل ذلك أيضا أن كل اسم فاعل يدل على الحدوث والتجدد، وكل صفة مشبهة تدل على الدوام والثبوت، وأن الحال ينبغى أن تكون مشتقة ويكون التمييز جامداً ولا يصاغ التفضيل والتعجب كلاهما إلا من قول فعله ثلاثى متصرف دال على التفضيل وهو تام مثبت ليس الوصف منه على وزن أفعل ولا يستوى فيه المذكر والمؤنث.

ولقد جذب انتباه النحاة العرب ما يطرأ من تغير فى بنية المفردات فى بيئتى الجدول والسياق وما يرتبط بهذا التغير من اختلاف الوظيفة التى تؤديها الكلمة المفردة، فلاحظوا ما يلى:

١ ـ ارتباط وظيفة الكلمة فى السياق بما يكون من حركات الإعراب على آخرها.

٢ ـ وارتباطها بما تفيده من دلالة على مسمى أو حدث أو زمن مجرد علاقة بين عنصرين فى السياق كدلالة حرف العطف على العلاقة بين المتعاطفين.

٣ ـ أو كون الكلمة مصوغة على قالب يمنحها معنى عاما كأن تدل على فاعل أو مفعول أو مبالغة أو تفضيل...الخ.

٤ ـ ولاحظ النحاة أن بعض الألفاظ لا يستعمل إلا مقترناً بلفظ آخر، وأن ألفاظا تختص بالدخول على قسم بعينه من أقسام الكلم، وأن اللفظ فى السياق من شأنه نحويا أن يصاحب من هو له معجمياً.

٥ ـ ولاحظوا أن لأقسام الكلمة فى السياق رتبا بعضها ولا يختلف ويجوز فى البعض الآخر أن تخضع رتبته لمطالب الأسلوب.

٦ ـ ووجدوا أن أواصر العلاقة بين كلمة وأخرى فى السياق قد تتحقق بإعادة اللفظ أو المعنى أو بعود الضمير على مذكور سابق ونحو ذلك أو بمطابقة أحد اللفظين للآخر فى التكلم أو أحد فرعيه والإفراد أو أحد فرعيه وفى التذكير والتأنيث وفى التعريف والتنكير وفى الإعراب.

٧ ـ ووجدوا أن الألفاظ قد تذكر أو تحذف، أو تضمر أو يضمر لها أو يتصيد معناها من السياق. وهكذا فهم النحاة مما لاحظوه أن المعنى النحوى بحاجة إلى قرائن تدل عليه فاستخلصوا من فهمهم هذا عددا من القرائن المختلفة الطابع التى تدل على المعنى، وينتمى كل منها إلى فرع من فروع النظام اللغوى كما يلى:

أ ـ فالإعراب ينتمى فى جملته إلى النظام الصوتى، ولكنه قد تكون له علاقة هى عنصر من عناصر الأصوات وقد لا تكون. فيبدو الأمر فى صورته العامة على النحو التالى:

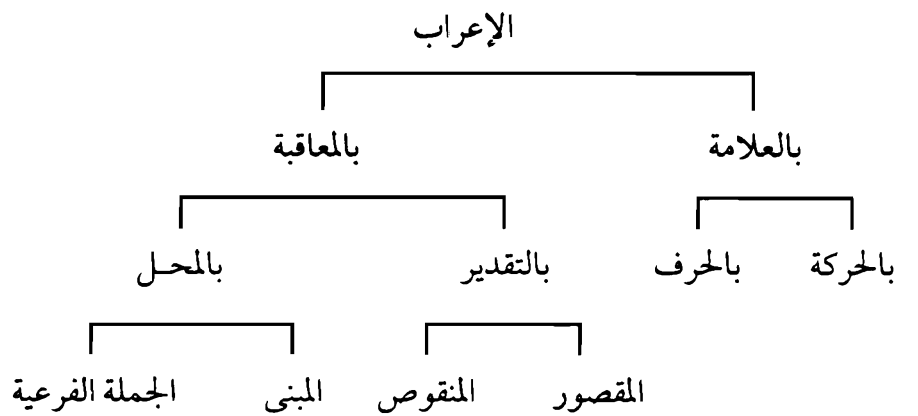

والإعراب بالعلامة إنما يكون بالحركة للمفرد الصحيح الآخر، وبالحرف للمثنى والجمع والأسماء الخمسة. وأما المعاقبة فهى للمقصور والمنقوص إذ يفترض المعرب أن لفظا صحيح الآخر وقع فى الموقع الذى حل فيه المقصور أو المنقوص فما الحركة

التى يستحقها هذا الصحيح؟ حتى إذا عرف الحركة قدرها على آخر المقصور أو المنقوص. وللعنصر اللغوى المبنى كما للجملة الفرعية علاج آخر. ذلك أنهما لا يخضعان للإعراب لا بالحركة ولا بالمعاقبة، لأن المبنى لا يتغير آخره مهما تغيرت وظيفته النحوية، ولأن الجملة لا تخضع لما تخضع له المفردات من صور التغير الإعرابى. ومن هنا ينسب الإعراب إلى المحل.

ب ـ والبنية قرينة تنتمى إلى النظام الصرفى لتكون فى خدمة النظام النحوى بواسطة ما يكون لها من معنى صرفى عام كدلالتها على الفاعل كضارب أو على المفعول كمضروب أو المبالغة كضرّاب أو شرط جمودها كالتمييز أو شرط اشتقاقها كالحال أو دلالتها على المرة أو الهيئة... الخ.

ج ـ الضام، ويقع فى ثلاثة أقسام:

الأول الافتقار: ومعناه ألا يكون اللفظ صالحا للورود بمفرده، وإنما يحتاج إلى ضميمة يكتمل بها معناه، كافتقار حرف الجر إلى مجرور وحرف العطف إلى متعاطفين والموصول إلى صلة... الخ. وقد يكون الافتقار للباب لا للفظ كافتقار المضاف إلى مضاف إليه والمبهم إلى مفسر.. الخ.

الثانى الاختصاص: ومعناه أن يكون العنصر اللغوى مرتبطا من حيث وروده بعنصر ما دون غيره، كاختصاص حروف الجر بالأسماء وحروف الجزم بالأفعال وكاختصاص "لم" بالدخول على المضارع.

الثالث المناسبة المعجمية: وذلك أن يرتبط استعمال اللفظ بمصاحبة ما يناسبه من الألفاظ فى المعنى. وذلك ما يشير إليه البلاغيون بقولهم: "إسناد الفعل إلى من هو له". فمن شأن الفعل "فهم" مثلا أن يسند إلى العاقل الذى يصح منه الفهم. ولا يجاوز ذلك بالنقل من معناه الأصلى إلى معنى آخر إلا لعلاقة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلى.

د ـ الرتبة: وهى نوعان:

الأول الرتبة المحفوظة: كرتبة الحرف ومدخوله، والموصول وصلته، وعنصرى الإضافة، والمبهم والمفسر، والفعل والفاعل... الخ.

الثانى الرتبة غير المحفوظة: كرتبة المبتدأ والخبر، والفعل والمفعول به أو فيه أو له، ونحو ذلك. وهذا النوع الثانى هو الذى أعان البلاغيين على التنظير لمبدأ التقديم والتأخير.

٥ ـ الربط وهو نوعان:

الأول الربط بالإحالة: وذلك أن يشير عنصر لاحق إلى عنصر آخر سابق فى سياق النص. ومن ذلك أن يعاد ذكر العنصر السابق بلفظه أو بمعناه أو بضميره أو الإشارة إليه... الخ. كما يؤدى حرف الجر وظيفة ربط المجرور بالفعل ونحوه، ويؤدى حرف العطف إلى ربط أحد المتعاطفين بالأخر، وتؤدى الأدوات الداخلة على الجمل بما لها من رتبة الصدارة إلى الربط بين ما يقع فى حيزها من مفردات الجملة، وهلم جرا.

الثانى الربط بالمطابقة: فى حقول المطابقة المختلفة، وهى: العدد (الإفراد والتثنية والجمع) والشخص (التكلم والخطاب والغيبة) والنوع (التذكير والتأنيث) والتعيين (التعريف والتنكير) والإعراب.

و ـ نغمة الكلام: ولك أن تتصور تنوع المعنى المقصود بعبارة "ما هذا" بحسب تنوع النغمة أثناء الكلام بين الاستفهام الصريح وبين الإنكار. كما أن لك أن تتصور اختلاف النغمة فى عبارة "سلام عليكم" فى قوله تعالى ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ (القصص ٥٥) وهى تفيد المغاضبة وبين عبارة: "السلام عليكم" التى تقال للتحية.

ز ـ السياق: وهو أيضا نوعان: سياق النص، وسياق الموقف.

الأول سياق النص: وهو أن يشتمل النص على قرينة تعين على فهم المعنى لولاها ما فهم المعنى على وجهه الصحيح. مثال ذلك قوله تعالى: ﴿ لِيَأْكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا

عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ (يس ٣٥) فلقد نسب بعض المفسرين معنى "ما" إلى الموصولية ليكون معنى الآية: ليأكلوا من ثمره ومن الذى عملته أيديهم. ولكن قرينة السياق تدل على معنى النفى من جهتين: الأولى قوله تعالى: أفلا يشكرون، والثانية أن الله تعالى يقول فى سورة النمل: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ (النمل ٦٠). فالإنسان إذا أعد طعاماً لنفسه ثم أكل هذا الطعام فهو غير مطالب بالشكر، ولا يطالب به إلا إذا أكل ما أعده غيره. هذا ما يدل عليه سياق النص. أما آية سورة النمل فتدل على المعنى نفسه بطريق "التناص". والقرينة فى الحالتين تدل على أن معنى "ما" هو النفى.

الثانى سياق الموقف: عرف التراث العربى الاعتداد بهذه القرينة فى نواح متعددة. فلقد عرفها النحاة بظروف النطق، وأخيرا عرفها رواة الشعر من خلال إيراد الملابسات التى قيل فيها الشعر. ومثال الانتفاع بهذه القرينة ما ندركه عند تأمل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ (يوسف ٣٥) إذ يدور فى الذهن سؤال عن سبب هذا البداء حتى نعثر على الإجابة فى قوله تعالى فى آية سابقة: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ (يوسف ٣٠). فعندئذ يظن العزيز أن يوسف هو المسئول عن معرفة النسوة بهذا الخبر وقد كان العزيز أوصاه بالكتمان بقوله له: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ (يوسف ٢٩). وهكذا يكون فهم النص متوقفا على وجود قرينة سياق الموقف. وحين نقرأ قوله تعالى: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ (يوسف ٧٦) نجد أنه لولا معرفة تفاصيل الموقف لرأينا أن تصرف يوسف عليه السلام لا يتناسب مع النبوة. غير أن الأمر كما يتبين من سياق الموقف يحمل دلالة على ما يلى:

١ ـ شوق يوسف إلى أخيه الذى دفعه إلى مطالبة إخوته لأبيه بإحضاره.

٢ ـ رغبته فى الاحتفاظ بأخيه عنده بعد إحضاره.

٣ ـ تدبير مكيدة السرقة لتكون عونا على الاحتفاظ بالأخ.

٤ ـ إلصاق تهمة السرقة بهذا الأخ لأسباب عملية.

٥ ـ بعد إثبات التهمة على أخيه لم يرد أن يطبق عليه العقوبة المعروفة فى مصر لأنه (ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك) فسأل الإخوة عن العقوبة فى عرفهم فقالوا: "من وجد فى رحلة فهو جزاؤه". أى جزاؤه أن يؤخذ فى الرق سنة كاملة.

٦ ـ عندئذ قرر يوسف أن يلصق تهمة السرقة بأخيه لينشئ بذلك وسيلة اتصال بأسرته واستقدامها إلى مصر.

ذلك هو سياق الموقف كما يبدو من القصة فى سياق نص السورة.

دعنا ننظر الآن نظرة تطبيقية إلى القرائن النحوية التى يتضح بها معنى الجملة تمهيدا للنظر فى طرق الإبداع فى إجراء النص. فلنفرض أن عندنا جملة مثل: ذهب الرجل إلى حال سبيله، وكان علينا أن نوضح القرائن النحوية فى هذه الجملة. (أقول: قرائن النحو وهى تختلف عن قرائن النص، ولكنها تُستدعى عندما يحتاج فهم النص إليها.

١ ـ أول ما نلاحظه قرينة البنية التى تبدو فى المظاهر التالية:

أ ـ ذهب فعل فى صورة الماضى.

ب ـ الرجل اسم معروف بالألف واللام.

ج ـ إلى حرف.

د ـ حال اسم.

هـ ـ سبيل اسم.

و ـ الهاء ضمير غيبة.

٢ ـ التضام، ويبدو فى المظاهر التالية:

أ ـ الفعل يحتاج إلى فاعل، وقد تحقق له ذلك بلفظ "الرجل".

ب ـ الحرف يفتقر إلى اسم يلحقه، وقد لحقه "حال".

ج ـ كلمة "حال" لفظ مبهم يحتاج إلى ما يخصصه من وصف أو إضافة.

د ـ أضيف لفظ "حال" إلى لفظ "سبيل".

٣ ـ الرتبة، وتبدو فيما يلى:

أ ـ تقدم الفعل على الفاعل.

ب ـ تقدم حرف الجر على المجرور.

ج ـ تقدم المرجع على الضمير.

د ـ تقدم المضاف على المضاف إليه.

٤ ـ الربط، ويبدو الربط فيما يلى:

أ ـ تعلق الجار والمجرور (حال) بالفعل (ذهب).

ب ـ عود الضمير على الرجل.

٥ ـ الإسناد، وهو قرينة معنوية تفيد العلاقة بين الفعل والفاعل، أى أن الفعل صدر عن الفاعل أو قام به (أى أن الفعل وقع منسوباً إلى الفاعل).

٦ ـ الإعراب، وهو يتمثل فى أن الرجل مرفوع، وكون حال وسبيل مجرورين، كما يتمثل فى محل الضمير العائد إلى الرجل.

وبهذه العلامات (أو القرائن) مجتمعة وصلنا إلى فهم المعنى النحوى للجملة، ولكننا لم نفهم المعنى النصى من حيث لا نعلم من هو الرجل ولا الظروف التى دعته إلى الذهاب إلى حال سبيله كما لا نعلم من المتكلم ولا من السامع. ومن هنا صارت الجملة مثالا نحويا ولم ترق إلى مستوى شاهد نصى. وعندما ذكرنا ثوابت النظام النحوى قلنا إنها ثلاثة هى: الطرد أو الاطراد وأمن اللبس فى المعنى وطلب الخفة فى المبنى. ونود أن نضيف فى هذا الموضع أن النحاة كانوا يغارون على اطراد قواعدهم كالذى يتضح مما كان بين عبد الله بن أبى إسحق الحضرمى النحوى وبين الفرزدق الشاعر، ومن رد الفرزدق على الحضرمى بقوله: (علينا أن نقول وعليكم أن تتأولوا). وربما فهمنا من هذا الوضع أن أمن اللبس وطلب الخفة كانا قيدين فى تحقق الاطراد، بمعنى أنه إذا أمن اللبس وتحققت الخفة أمكن العدول عن الأصل

وجاز ارتكاب الرخصة. يمكن الكشف عن هذا الموقف بالاستشهاد بعبارات من ألفية ابن مالك تجعل الإفادة شرطاً للعدول فيما يلى:

ولا يكون اسم زمان خبرا عن جثة وإن يفد فأخبرا

ولا يجوز الابتدا بالنكرة ما لم تفد كعند زيد نمرة

فأمن اللبس فى مثل هذه المواضع كان سببا فى العدول عن القاعدة الأصلية إلى قاعدة أخرى فرعية مما يدل على أن القاعدة معيار مقيد بأمن اللبس.

ليس ذلك فحسب؛ بل إن هناك أمراً آخر يبيحه أمن اللبس، وهو الترخيص فى المحافظة على البنية النحوية إذا أغنى عنها غيرها فأمن اللبس بدونها فلم تعد ضرورية للكشف عن المعنى. عندئذ يترخص المتكلم فى القرينة ولا يجد السامع صعوبة فى الفهم. وقد يكون من المستحسن هنا أن نضرب بعض الأمثلة لظاهرة الترخص عند أمن اللبس، وإن كان موضع ذلك سيأتى عند الكلام فى طرق الإبداع. قال امرؤ القيس:

كأن ثبيرا فى عرانين وبله كبير أناس فى بجاد مزمل

بجر لفظ "مزمل" مع استحقاقه للرفع لكونه نعتا للفظ "كبير" المرفوع. والله سبحانه وتعالى قال لإبراهيم: ﴿ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ﴾ (البقرة ١٢٤). ويقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ ﴾ (فاطر ٤٥) ولم يذكر مرجع الضمير الذى فى ظهرها، والمرجع هو الأرض لأن الدابة لا تدب إلا عليها فالمعنى أوضح واللبس مأمون فلم يتحتم ذكرها.

أما الثابت الثالث وهو ما عرفه النحاة باسم طلب الخفة فإنه يكشف عن الذوق اللغوى العربى فيما يتصل بشروط توالى الأصوات فى عملية النطق. فلقد وجد النحاة من خلال الاستقراء أن الذوق العربى يكره توالى المثلين وتوالى المتقاربين مخرجا أو صفة، كما يكره توالى الأضداد. ولكنه يرحب بتوالى الصوتين المختلفين فى المخرج المزهر للسيوطى (ص ١١٩) من وصفه لرتب الفصاحة؛ إذ جعل المخارج أنواعا ثلاثة هى: الأقصى والأوسط والأدنى. ثم رصد احتمالات تواليها فى النطق

حتى جعل أفصح الألفاظ ما توالى فيه الأقصى فالأوسط فالأدنى نحو لفظ "عدم". أما عند النحاة فالأمر أكثر تفصيلاً، لأنهم بتجريدهم أصل وضع الكلمة استطاعوا أن يرصدوا الطرق المؤدية إلى الخروج من دائرة الثقل، وان يكشفوا عن وسائل اللغة العربية للعدول عن هذا الأصل الثقيل والوصول بطلب الخفة إلى غايته المنشودة بواسطة ما جردوه من قواعد تصريفية على أساس من الإدغام والإعلال والإبدال والنقل والقلب والحذف...الخ. فأدغموا المثلين والمتقاربين لكراهية توالهما ومنعوا توالى الضدين (كالصاد والجيم) مثلا وأعلوا الواو والياء فى مواقع معنية وأبدلوا حرفا من حرف (كإبدال الطاء من تاء الافتعال بعد الحرف المفخم) ورصدوا انتقال أحد أصول اللفظ من موقعه إلى موقع آخر كما فى لفظ "جاه". وقلب حرف فى النطق إلى صورة حرف آخر كما فى "كساء وبناء" وحذف حرف ما لثقل النطق به كما فى حذف الواو فى "لتبلون". وأخضعوا كل ذلك لقواعد تصريفية سمتها السعى إلى طلب الخفة. بهذا نكون قد أنهينا القول فى المعنى التحليلى (أحد قسمى المعنى الوظيفى) لنتناول بعد إن فرغنا منه القسم الثانى وهو المعنى التركيبى، أى معنى الجملة. ويبدو هذا المعنى على الصورة الإيضاحية التالية:

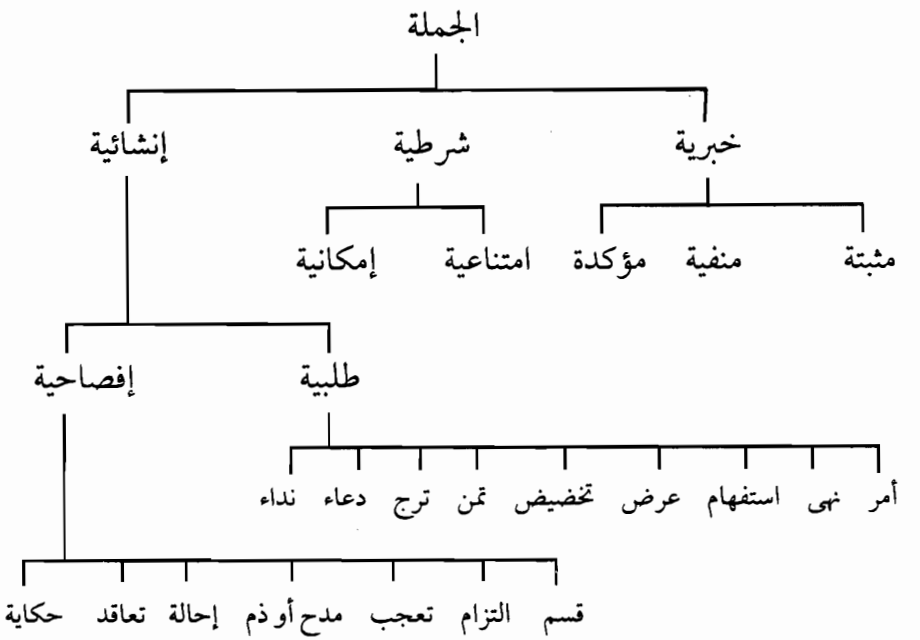

أما لفظيا فهى إما أسمية وإما فعلية وإما مسكوكة من عناصر أخرى.

بقى أن نتناول فى حدود المعنى الوظيفى ظاهرتين يتوقف عليهما مفهوم الاقتصاد اللغوى هما: تعدد المعنى الوظيفى، ونقل اللفظ من قسم إلى آخر من أقسام الكلم، وعندئذ يتعرض معناه للتغير. وهكذا يصبح تغير المعنى سمة مشتركة للنوعين كليهما. ومن شواهد النقل مثلا ما نلاحظه من انتقال "إذ" من معنى الظرفية إلى معنى المصدرية فى قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾ (آل عمران ٨) أى بعد أن هديتنا. ومن الظرفية إلى التعليل كما فى قوله جل شأنه: ﴿ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴾ (النساء ٧٢) أى لأنى لم أكن معهم، وتصلح هنا للواسطة أيضاً أى بأنى لم أكن معهم. ومن ذلك ما يكون من شأ، "ما" الموصولة بحسب أصل وضعها إذ تنقل إلى استعمال الحروف والأدوات، فتكون استفهامية أو شرطية أو تعجبية أو مصدرية أو زائدة، فيتعدد معناها فى نطاق الحرفية. وبذا تتحقق بها الظاهرتان معاً وهما: النقل من الموصولية إلى الحرفية ثم تعدد المعنى فى نطاق الحرفية.

هذا هو الشأن فى المفردات. أما نقل نمط الجملة من معناه الأصلى إلى معنى آخر فهو أيضاً من وسائل الاقتصاد فى اللغة. فلو نظرنا إلى تركيب جملة مكونة من فعل وفاعل أو من مبتدأ وخبر لنسبنا التركيب إلى الجملة الخبرية لأول وهلة، ولكننا إذا دققنا فى تفهم دلالة السياق فربما وجدنا للجملة معنى آخر كدلالة التركيب الخبرى على الأمر فى قوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾ (البقرة ٢٢٨)، أو الدعاء نحو: ﴿ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (هود ١٨) وقولنا "رعاك الله" أو "بارك الله فيك". كما يستعمل هذا النمط للدلالة على الشرط كما فى قوله سبحانه: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ (البقرة ٢٧٤) وقوله ﴿ وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا ﴾ (النساء ١٦). وكذلك يستعمل هذا التركيب فى معنى العرض نحو: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ (هود ٧٨)، وفى معنى الالتزام والتعاقد كقول موسى

لشعيب: ﴿ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ﴾ (القصص ٢٨)، ولإفادة التعجب نحو ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ (ص ٥). وأما النمط الخبرى المنفى فينقل إلى الدعاء، نحو: ﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴾ (البلد ١١)، أو إلى النهى نحو ﴿ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ ﴾ (البقرة ١٩٧). وقد يخرج النمط الشرطى إلى التعجب نحو ﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ ﴾ (الرعد ٥)، وإلى التمنى نحو ﴿ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ ﴾ (البقرة ١٦٧) وإلى التسوية نحو ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ (الإنسان ٣) أى إن كان شاكراً...الخ. وينقل النداء إلى معنى التعجب نحو ﴿ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ﴾ (يوسف ١٩)، وإلى الندبة كما فى قول يعقوب: ﴿ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ (يوسف ٨٤)، وإلى الاختصاص نحو ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ۝ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴾ (الواقعة ٥١-٥٢) وإلى التمنى نحو ﴿ يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ ﴾ (القصص ٧٩). وينقل الأمر إلى معنى الشرط نحو ﴿ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ (غافر ٦٠)، وإلى النهى نحو ﴿ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ ﴾ (المائدة ٩٠) أى لا تقربوه. وإلى العرض نحو ﴿ فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ﴾ (يوسف ٧٨)، وإلى التحدى نحو ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ (الشعراء ١٨٧). وينتقل النهى إلى الدعاء نحو ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا ﴾ (آل عمران ٨)، وإلى الأمر نحو ﴿ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران ١٠٣) أى تمسكوا بالإسلام حتى الموت، كما ينقل أيضا إلى الشرط نحو ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ﴾ (هود ١١٣). أما الاستفهام فينقل إلى الإنكار نحو ﴿ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ﴾ (يوسف ٦٤)، وإلى التقرير نحو ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴾ (الضحى ٦)، وإلى النهى نحو ﴿ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الشعراء ١٦٥)، وإلى الأمر نحو﴿ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الحجر ٧٠). بهذا يتبين أن النقل من وسائل التعبير إلى الكثير من المعانى.

والمعروف أن ظاهرة النقل من وسائل الإبداع فى المعنى، وبخاصة إذا انتقلنا من الكلام فى المعنى الوظيفى إلى تناول المعجمى. فالمعروف أن المعنى المعجمى أيضا يتسم بالتعدد ويخضع لظاهرة النقل. ولبيان ذلك دعنا أولا نضرب مثلا شهيرا لنقل المعنى المعجمى بوصفه وسيلة من وسائل الإبداع فى اللغة العربية. فحين عرّف البلاغيون المجاز قالوا إنه: "نقل من معناه الأصلى إلى معنى آخر لعلاقة بينهما مع وجود قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلى". فإذا نظرنا إلى نص هذا التعريف وجدناه يبدأ بكلمة "نقل"، فدلنا ذلك على أن النقل وسيلة من وسائل الإبداع للمعنى اللغوى. هذا من جهة النقل. أما من جهة التعدد فإننا إذا نظرنا إلى أية كلمة فى المعجم لم نجد لها معنى فريدا لا يتعدد، وإنما تتعدد معانى الكلمة الواحدة بحسب ما يحيط بها من سياق النص (بل من سياق الموقف أحياناً)؛ ومن هنا جاءت ضرورة الاستشهاد على المعنى المراد بالكلمة، كما تلزم الصورة وغيرها من القرائن الدالة على المراد. انظر مثلا إلى تعدد معانى لفظ "ضرب" فيما يلى:

١ ـ ضرب الأب ابنه	> لطمه.
٢ ـ ضرب الله مثلا	> قاله.
٣ ـ ضرب له موعداً	> حدده.
٤ ـ ضرب له قبة	> أقامها.
٥ ـ ضرب النقود	> صاغها.
٦ ـ ضرب ضريبة	> فرضها.
٧ ـ ضرب الجرس	> دقة.
٨ ـ ضرب ٥ × ٦	> حسبها.
٩ ـ ضرب أخماساً فى أسداس	> ارتبك.
١٠ ـ ضربت عليهم الذلة	> أصابتهم.

فهذا التعدد فى المعنى يذكرنا بما سبق من تعدد المعنى الوظيفى للظرف "إذا"

وللموصول "ما" بعد نقلها إلى قسم الحروف؛ أى أن ظاهرتى النقل وتعدد المعنى من ظواهر النظام اللغوى بمفرداته وتراكيبه على حد سواء.

وللإبداع فى مجال المعنى العرفى وسائل أخرى تعارف عليه البلاغيون والمعنيون بالأساليب من ظواهر الوصل والفصل والتقديم والتأخير والحذف والزيادة والإضمار والقصر والإيجاز والإطناب والوقف وما أشار إليه علم النص من مفاهيم السبك والمساوقة والإعلامية ورعاية الموقف...الخ. دعنا نورد بعض الشواهد من النص القرآنى أيضا لندلل بها على صدق ما نقوله عن هذه الظواهر

* إن فصل الجملة عما يليها فى الكلام يدل على الرغبة فى إنهاء موقف غير مرغوب فيه من لدن أحد طرفى الاتصال (الملقى والمتلقى): فقد يرغب الملقى فى إنهاء الاتصال كما فى قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ (القصص ٥٥).

* وقد تكون الرغبة فى إنهاء الموقف من لدن المتلقى كما فى قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾ (القصص ٦٢ ـ ٦٣). وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ ﴾ (المائدة ١١٦)

فالفصل فى هاتين الآيتين الأخيرتين يدل على فزع المتلقين (الذين حق عليهم القول وعيسى عليه السلام) أثناء الإجابة على السؤال الذى وجهه سبحانه إليهم، وعلى رغبة كل من الفريقين فى إنهاء الموقف بالسرعة الممكنة.

ومما يتصل بظاهرة التقديم والتأخير ظاهرة الوقف، فالوقف أيضا متصل بتمام المعنى ولا يكون بدونه. وقد يحدث أحيانا أن يتوقف إدراك تمام المعنى على إحدى القرائن ويتوقف إدراك هذه القرينة ذاتها على السياق ومن هنا يكون السياق هو معيار وجوب الوقف. وذلك كما يلى:

* قال تعالى:﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ (يونس ٦٥) فالوقف واجب على "قولهم" مع الاستئناف بما بعده؛ لأنهم لو قالوا: "إن العزة لله جميعا" ما كان ثمة داع للحزن.

* قال جل شأنه: ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (القصص ٨٨) فالوقف واجب على لفظ "آخر" لأن المعية التى قبله ونفيها الذى بعده لا يلتقيان، والآخر لا ينعت بالتوحد لمجرد كونه آخر. ومن هنا يكون الاستئناف سببا فى صرف معنى نفى الغير إلى الله سبحانه وتعالى، لا إلى لفظ "آخر".

وأما ظاهرة الإبداع من خلال التقديم والتأخير فمثالها قوله تعالى: ﴿ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴾ (الصافات ٨٦) ذلك أن الترتيب النحوى لهذه الآية بحسب الأصل يقتضى أن تكون الرتبة: أتريدون آلهة دون الله إفكا؟ ولكن ترتيب العناصر المكونة لهذه الآية جاء حسب ترتيب أهمية الإنكار والاعتراض على كل منها. فالإفك أولها والشرك ثانيها، وتأتى الإرادة لكل منهما أخيراً، لأن الإرادة فى ذاتها ليست موضع اعتراض، وإنما ترفض عندما تتجه إلى الباطل.

والحذف عندما يكون المذكور متضمناً للمحذوف كما فى قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ ﴾ (القصص ٢٣ ـ ٢٤). فالسقى والذود والإصدار إنما يكون للماشية ومن ثم لم يرد لها ذكر، ولو ورد لكان فائضا عن مطلب النص.

وقد يحذف الفضلة كما فى الآية السابقة وقد يحذف العمدة من الكلام إذا دل عليه دليل. انظر إلى حذف فعل التعجب فى قوله تعالى: "ما الحاقة" لدلالة على ما بعده عليه من قوله سبحانه: "وما أدراك ما الحاقة" ومثله "ما القارعة وما أدراك ما القارعة". وفى الحديث الشريف: "زوجى أبو زرع، وما أبو زرع".

وحسن السبك من وسائل الإبداع للمعنى. والمقصود بحسن السبك الوفاء بمطالب الافتقار والاختصاص والمناسبة المعجمية بين المفردات ومطالب الرتبة ووسائل الربط وغير ذلك من الشروط النحوية للكلام. ولو نظرنا إلى ما نظمه المتنبى من تحدى السبك لأدركنا قيمة حسن السبك فى إبراز المعنى وبيان حسنه. قال المتنبى:

فأصبحت بعد خط بهجتها كأن قفـرا رسـومهـا قلما

أراد أن يقول: فأصبحت بعد بهجتها قفرا كان قلما خط رسومها، ولكن سوء السبك حال دون فهم ما قاله.

ولا يتحقق الإبداع إلا مع رعاية الموقف. فلو أن قائلاً قال لك: إن لى ابنا سميته محمدا فقلت له: لماذا؟ لكان كلامك مخالفا للموقف لأن الأسماء لا تعلل. ولو تكلم النائم فوعد بشئ ما لم يلزمه الوفاء بهذا الوعد لعدم القصد. ولو سمعت إنسانا يقول "السماء قام ليتنى" لم تقبل منه ذلك بوصفه نصا. ولو سمعت رجلا يقول لأهل الميت: (عقبى لكم) لرفضت منه ذلك لعدم رعاية الموقف. ومعنى ما تقدم أن الإبداع فى المعنى لا يتحقق إلا مع رعاية المعايير النصية وحسن الانتفاع بها. ولنا الآن بعد طول سفر أن نلقى نظرة على المعنى الذهنى.

المعنى الذهنى:

إذا كان الوصول إلى المعنى العرفى يتم بواسطة الاستقراء فإن الوصول إلى المعنى الذهنى يتم بواسطة الاستنباط. ذلك أن المعنى العرفى موجود بالقوة فى المعهود الفردى وفى الذاكرة الجماعية، ومن هنا كان صالحا للاستقراء. أما المعنى الذهنى

فغير موجود لا بالقوة ولا بالفعل، ومن ثم افتقر إلى نوع آخر من الاستدلال وهو الاستنباط الذى قد يصيب فيكشف عن معنى ذهنى صائب وقد لا يصيب فيظل المعنى فى دائرة العدم مفتقراً إلى استدلال أفضل. وقد يكون الاستدلال بواسطة الاستنتاج كما يكون بواسطة الاستدعاء، وفى كلتا الحالتين يكون الوصول إلى المعنى بحاجة إلى نشاط ذهنى. فإذا قلت وأنت طالب بكلية الآداب مثلا: أنا ذاهب إلى الكلية، علم السامعون من أفراد أسرتك أنك تقصد كلية الآداب دون غيرها، وذلك بحكم العهد الذهنى الذى يربط بين الملقى والمتلقى فى هذا الموقف. وإذا قلت: رأيت اليوم فلانا يصلى الجمعة، وكان معروفا عن فلان أنه مسافر، فهم السامعون بلازم المعنى أنه قدم من السفر. وإذا قال لك رجل معروف بالجبن: أنت بخيل، فقلت له: ولكنى غير جبان، فسوف يعلم بمفهوم المخالفة أنك تعيره بالجبن. فالعهد الذهنى ولازم المعنى ومفهوم المخالفة ونحو ذلك مفاهيم ذهنية غير عرفية تومئ إلى المعنى وتلقى على الذهن عبء الوصول إليه بجهد منطقى لا يلزم فيه أن يكون صوريا. والمنطق إما أن يكون صوريا يفرض على مقدماته أن توضع فى ترتيب خاص تصلح معه أن تؤدى إلى نتائج قياسية وإما أن يكون غير صورى كالأمثلة التى سبق ذكرها منذ قليل. وإذا أردنا أن نشرح مفهوم الصورية فأقرب شئ إليها صورية المسائل الحسابية التى تفرض على الآحاد أن توضع تحت الآحاد، والعشرات تحت العشرات، وهلم جرا، كما تسمح عند تساوى كمية فى البسط مع أخرى فى المقام أن تشطبا معا دون أثر على النتيجة. فكذلك الأمر فى المنطق الصورى الذى يحتم أن توضع المقدمات وضعا خاصا، وأن يستبعد الجزء المشترك بين المقدمات الصغرى والكبرى، وعندئذ يكون الباقى هو النتيجة على النحو التالى:

الإنسان	حيوان ناطق
محمد	إنسان
محمد	حيوان ناطق

فانظر كيف حكمت صورة القياس بشطب لفظ الإنسان ولفظ إنسان فى كل من

المقدمتين فبقى بعد الشطب ما صلح أن يكون نتيجة للقياس تنص على أن محمدا حيوان ناطق. هذا الترتيب الصورى لا يصلح لاستخراج المعنى اللغوى فى معمعة الاتصال، وإنما يصلح فيما يرى المناطقة لنقد صحة ما يقال. وليس فى لغة التخاطب العادية ما يحمل أدنى شبه بمقدمات القياس الصورى إلا تركيب الشرط الامتناعى باستعمال "لو" كما فى قوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ (الأنبياء ٢٢). فهذه الجملة يمكن أ، يبنى منها قياس شرطى على النحو التالى:

لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا،

ولكنهما لم تفسدا،

إذن: ليس فيهما آلهة غير الله.

جملة القول أن المعنى الذهنى فى الاتصال اللغوى ليس نتيجة قياس منطقى صورى، وإنما هو نتيجة علاقات ذهنية متنوعة تربط المدركات والمفاهيم معا بواسطة التداعى الذهنى.

تصور أن الشرطة علمت بواقعة قتل فى مكان ما فخف رجال المباحث الجنائية إلى مكان الحادث لمحاولة الكشف عن ظروف وقوع الجريمة ومعرفة من ارتكبها. إن أول ما يحرص عليه رجال المباحث فى عملهم أن يحافظوا على بقاء كل شئ فى مكانه للمحافظة على الأدلة؛ فلعلهم يجدون فى أوضاع الأشياء ما يصلح أن يكون قرينة على شئ ما كأحد أزرار الملابس أو كخصلة شعر أو شئ لا قيمة له فى ذاته ملقى على الأرض أو نافذة مفتوحة... الخ. فإذا وجدوا من ذلك ما يصلح أن يكون قرينة فإن الذى تدل عليه هذه القرينة هو معنى ذهنى جاء عن طريق الاستنباط. وما يزالون يجمعون الأدلة حتى يصلوا باستعمالها إلى تصور متكامل لما وقع أثناء حدوث الجريمة. وعندها يسهل مع التحرى أن يعرفوا هوية القاتل. وهذه صورة من صور المعنى الذهنى طابعها الاستنباط.

ومن المعانى الذهنية مفهوم المخالفة الذى أشرنا إليه من قبل. تأمل مثلا قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ (لقمان ٣٤) فلا شك فى أن الله يعلم هذه الأمور الخمسة، ولكن علمه بثلاثة منها يأتى من خلال العبارة الصريحة والمعلومان الآخيران يأتيان بواسطة مفهوم المخالفة على النحو التالى:

المعلوم	بالعبارة	بالمخالفة
علم الساعة	+	-
نزول الغيث	+	-
علم ما فى الأرحام	+	-
الكسب فى المستقبل	-	+
الموت	-	+

فالتقدير فى المعلومين الأخيرين هو (ولكن الله يدرى) وهو المعنى المقصود.

ومن المعانى الذهنية المعنى الاستدعائى (وهو المدلول الذى يستدعيه ول أو عمل). ومنه ما حدده البلاغيون من علاقات الكناية والمجاز المرسل. فأما الكناية فقد جعلوا علاقتها اللزوم؛ فإذا قلت: فلان طويل النجاد، فإن طول النجاد يلزم عنه (أى يستدعى إلى الذهن) طول القامة. فلو أن فلانا الذى يحمل سيفا ذا نجاد طويل لم يكن ذا قامة طويلة لكان مضطرا أن يجر سيفه وراءه، فلا تكون العبارة مدحا له وإنما تنقلب إلى سخرية منه. وأما علاقات المجاز المرسل فإنها تعود إلى أربع من المقولات العشر هى: الإضافة (وتحتها السببية والمسببية) والكم (وتحتها الكلية والبعضية) والزمان (وتحتها ما كان وما يكون) والمكان (وتحتها الحالية المحلية).

ومن المعانى الاستدعائية ما يأتى فى صورة ظل من ظلال المعنى الأصلى للفظ

نتيجة لتحول فى العرف، فيقال عندئذ إن العبارة أشربت معنى آخر. أى أن اللفظ المفرد وهو يدل على المعنى العرفى الذى نسب إليه فى المعجم قد تجاوز هذا المعنى العرفى حين أصبح فى سياق النص ليتحول إلى دلالة أخرى استدعاها جو النص. فمن المعروف أن كلمة "الوطن" مثلا معناها الرقعة التى ولد فيها المرء ونشأ. فلو أن مصرياً قال: "وطنى مصر" ما أحس السامع لقوله أكثر من انتساب هذا المتكلم إلى مصر، فهذا فى قوة قوله: أنا مصرى. ولكن أين هذا من قول شوقى:

وطنى لو شغلت بالخلد عنه نازعتنى إليه فى الخلد نفسي

الذى منح الوطن ظلا لم يكن له وهو لفظ مفرد من ألفاظ المعجم.

ومن المعانى الاستدعائية المعنى الانعكاسى الذى يصيب لفظا ما ليصير هذا اللفظ غير مستحب فى السمع. فمن المعروف مثلا أن لفظ "البيت" يوحى حال إفراده بالاحترام إذ يدل على مستقر الأسرة أو حتى على البيت الحرام الذى هو قبلة الإسلام. ومن المعروف أيضاً أن لفظ "الأدب" من الألفاظ الداعية إلى الاحترام، فلو نسب شخص ما إلى قلة الأدب فلابد أن يغضب لنفسه غضبا شديدا. ولو وصفنا إنسانا بأنه (من بيت علم) لسره ذلك، ولكننا لو وصفناه بأنه من (بيت أدب) لرأى فى ذلك إهانة له، ولصرف الوصف إلى معنى غير مستحب.

ومن المعانى الاستدعائية المعنى البؤرى الذى يضع اللفظ فى بؤرة الاهتمام. وهذا المعنى هو الذى يراه النقاد من وظائف التقديم فى الأسلوب الأدبى. وقد سبق أن جئنا بشاهد على قيمة التقديم هو قوله تعالى: ﴿ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴾ (الصافات ٨٦). وقد يأتى هذا الظل البؤرى من خلال التكرار عند الربط بإعادة اللفظ كما فى قوله تعالى﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (آل عمران ٧٨). وكما فى الحديث الشريف حين سِأل رجل النبى صلى الله عليه وسلم: "من أحق الناس بحسن صحابتى"؟

قال: "أمك" قال: "ثم من"؟ قال: "أمك" قال: "ثم من"؟ قال: "أمك". قال: "ثم من" ؟ قال: "أبوك". فأعطى للأم بؤرة الانتباه.

أما الوصول إلى الإبداع فى المعنى الذهنى فمرتهن بالنشاط الذهنى أيضا. ففى قوله تعالى: "لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا" لم يذكر من القياس إلا هذه المقدمة، ويبقى على الذهن بعد ذلك أن يبنى القضية الثانية وهى: "ولكنهما لم تفسدا" وذلك بناء على الإدراك القائم لعدم الفساد، ومن ثم يمكن الوصول إلى النتيجة القائلة: إذن "ليس فيهما آلهة إلا الله". وفى عمل رجال المباحث الجنائية يكون الوصول إلى شخص القاتل عملا استنباطيا بكل المقاييس وفى المجاز المرسل يكون على الذهن أن يستعين بالمقولات الأربع لاستنباط العلاقات. وفى الكناية يدرك الذهن لزوم بشئ عن شئ آخر. وفى إدراك ظلال المعانى كما فى معنى تمجيد الوطن نجد الذهن ينصرف عن المعنى العرفى إلى الاعتزاز وإعلاء القيمة. وفى حالة المعنى الانعكاسى أيضا انصراف عن المعنى العرفى إلى معنى آخر ألصقه الذهن باللفظ بناء على ارتباط بين هذا اللفظ وبين أمر آخر غير مستحب. ويبقى مما ذكرنا من المعانى الاستدعائية ما أطلقنا عليه لفظ "المعنى البؤرى" وهذا يعتمد على أمر ذهنى ليس من قبيل العرف وهو التكرار أو التقديم أو غير ذلك من الوسائل المستعملة فى تسخير اللفظ لتوليد المعنى بواسطة التصرف فى خصائص هذا اللفظ لإخراجه من نطاق المعنى الذى تعارف عليه المجتمع اللغوى إلى معنى أخر يدركه الذهن ولا يفرضه العرف.

المعنى الانطباعى:

إذا سمعت قطعة موسيقية فإنها تترك فى نفسك أثرا طيبا أو سيئا، وربما أثارت فى نفسك نشاطا يتناسب مع إيقاعها أو تركت لديك خمولا مناسبا لها. وإذا صادفت شخصا تعرفه فنظر إليك بوجه متجهم فهمت من عبوسه أنه غير راض عنك، وإذا صادفت لوحة للرسم فرأيت بها منظرا معينا حكمت لهذا المنظر بالجمال أو عليه بالقبح. كل أولئك يعد من قبيل الانطباع الشخصى الذى لا يخضع لعرف ولا

لفكر. فقطعة الموسيقى التى أعجبتك قد لا تعجب غيرك، وقد يفهم غيرك من عبوس العابس أنه لابد أن يكون قد مر بتجربة غير سعيدة فيخف إلى سؤاله عن حاله، أما المنظر الذى رأيته فى اللوحة فقد يثير عند غيرك إحساسا غير الذى كان لك فيحكم على هذا المنظر بالقبح. فالواضح مما تقدم أن هذا المعنى الانطباعى لا يعد من قبيل الفعل بالنسبة لمن يدركه وإنما هو من قبيل رد الفعل.

هذا المعنى الانطباعى من نوعين: أحدهما يأتى عن الانفعال والأخر عن التجربة الحية. فأما من حيث الانفعال فكلنا يرى فى الضخامة معنى الهيبة والاحترام. ومن الأدلة على ذلك أن أماكن العبادة من المساجد أو الكنائس لا تكتفى من الارتفاع والعلو بما يسود فى المساكن العادية؛ لأن المساكن العادية هى بيوت العباد. أما أماكن العبادة فهى بيوت الله، فمن دخلها فإنه يشعر عند دخولها أنه فى مكان يستحق الخشوع والاحترام. ومن المعروف أيضا أن التفخيم للأصوات أضخم من الترقيق، فإذا أردنا أن ندخل عليها عنصر التأكيد عدلنا عن الترقيق إلى التفخيم، كما فى قوله تعالى فى معرض الإخبار عن تكوين الأرض: "والأرض بعد ذلك دحاها" أما عند ارادة التأكيد فإن الأمر يحتاج إلى تفخيم الصوت فجاء صوت الطاء المفخم فى موضع صوت الدال.

والتكرار أيضاً من وسائل المعنى الانطباعى لكونه يؤكد فيولد الانفعال. ويأتى هذا الانفعال عند تكرار الصوت فى الكلمة المفردة ذاتها كما فى قوله تعالى: "فكبكبوا فيها هم والغاوون" فقد جاء تكرار الكاف والباء موحيا بأن إسقاطهم فى النار لم يكن دفعة واحدة، وإنما سقطوا فيها طوائف يتلو بعضها بعضا. ومثله قوله تعالى" ﴿ فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴾ (الشمس ١٤). وقد يأتى الانفعال من تكرار الكلمة المفردة، كما فى قوله تعالى: "حتى إذا دكت الأرض دكا دكا وجاء ربك والملك صفا صفا" فقد عبرت الآية عن مبدأ التوالى بتكرار كلمتى "دكا" و "صفا" فكان المعنى توكيدا لفظيا.

وللإيقاع أثر حسى سمعى هو معناه الانطباعى الذى يحسه من يسمعه سواء كان

هذا الإيقاع موسيقيا أم كان لغويا نثريا أم شعريا. ولقد سبق منذ قليل أن أشرنا إلى التكرار الذى قرأناه فى عبارتى: دكا دكا وصفا صفا. ونود أن نشير الآن إلى ما سبق فى النص ذاته من عبارتين أخريين هما: أكلا لما وحبا جما وإلى ما يحسه القارئ عند قراءة العبارات الأربع من إيقاع لا يخفى على ذى سمع. وفيما يلى عرض للآيات المشتملة على هذا الإيقاع: "وتأكلون التراث أكلا لما وتحبون المال حبا جما كلا إذا دكت الأرض دكا دكا وجاء ربك والملك صفا صفا". اما فى الشعر فالأمر أشهر من أن يبالغ المرء فى شرحه، حتى إن بعض ذوى النظر فى أغراض الشعر يربطون بين بحور الشعر فى تباينها وبين أغراضه. فيرون أن طوال البحور أولى بالاستعمال للأغراض الجادة، وقصارها ألصق بالأغراض الخفيفة. فالطويل والبسيط مثلا يناسبان الفخر والهجاء والمدح والرثاء ونحوها، ولكن المتقارب والمتدارك مثلا أولى بالأغراض المستخفة. وبين الطائفتين أبحر تتوزعها الأغراض، ومنها الرجز الذى يسمونه: حمار الشعر.

ومن المؤثرات الانطباعية حكاية الصوت للمعنى، وهى غير ما ذكرناه منذ قليل فى شأن الضخامة والتفخيم وما يثيرانه من الهيبة والتأكيد. ذلك أن الصوت هنا لا يوحى فقط بل يحكى المعنى ويقربه إلى الفهم أكثر مما يفعل الإيحاء. انظر مثلا إلى قوله تعالى: "مالكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثا قلتم إلى الأرض" وستجد أن "اثا قلتم" أصله تثاقلتم، وكان يمكن أن يستعمل بصورته الأصلية ليدل على المعنى الأصلى (العرفى) وهو التثاقل. ولكن الآية آثرت أن تحول المعنى العرفى إلى معنى آخر انطباعى، فعمدت إلى استعمال حكاية الصوت للمعنى. فكان ذلك بإدغام المتقاربين (التاء والثاء) فى أول لفظ الفعل ثم اجتلاب همزة وصل فى أول الكلمة للتوصل إلى نطق الجزء الأول من الثاء المشددة. أين إذن كانت حكاية الصوت للمعنى؟ إن الثاء المشددة صوت رخو يعتمد فى نطقه على تسرب الهواء من منطقة المخرج فيبدو للسمع كأنه إفراغ طاقة محبوسة يبدو صوتها كصوت إفراغ إطار عجلة السيارة من الهواء. أرأيت إلى السيارة بعد إفراغ ما فى اطرها من هواء أيكون

من شأنها أن تتحرك؟ إن الآية الكريمة تدل بحكاية هذا الصوت على امتناع هؤلاء المخاطبين عن الحركة واللحاق بالمجاهدين فى أرض المعركة.

وأشباه هذه الحكاية فى القرآن الكريم كثير كالذى نجده فى قوله تعالى: "تأخذهم وهم يخصمون" (بكسر الخاء وتشديد الصاد المكسورة) وقوله جل شأنه: "آمن لا يهدى إلا أن يهدى"، "وحتى إذا اداركوا فيها جميعا" وهلم جرا.

وثمة نوع آخر من الحكاية يتم بواسطة ارتجال ألفاظ لا وجود لها فى اللغة. ومن ذلك أن المعروف أن عالمنا هذا الذى نعيش فيه لا يعرف شجرة تسمى: "شجرة الزقوم"؛ فهى ﴿ شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ۝ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾ (الصافات ٦٤ ـ ٦٥). وقد ارتجلت الآية هذا الاسم للشجرة المذكورة، وجعلت الاسم يحكى أهم خواصها وهى أنها "طعام الأثيم"، وأن الضالين المكذبين يأكلون من ثمرها فيملأون منه البطون. فلماذا كانت حكاية اسم الشجرة المذكورة على هذا النحو؟ أول ما يربط هذا الاسم بالطعام اشتمال الاسم على الزاى والقاف ومنهما يتكون الفعل "زق" الذى يصف إطعام الطائر لفرخه إذ يقال: "زق الطائر فرخه". ثم نلاحظ أن القاف (ومخرجها قريب جداً من البلعوم) جاءت مشددة فكانت أطول زمنا فى نطقها من القاف المفردة، مما يحكى بقاء اللقمة فى هذا الموضع مدة أطول مما يكون مع إفراد القاف مما يحكى عسر البالع. وليت الحكاية وقفت عند هذا الحد، ولكنها تجاوزت ذلك إلى اختيار تحريك القاف بواسطة واو المد دون الضمة القصيرة فأضافت زمنا إلى بقاء اللقمة فى موضعها دون ابتلاع لزيادة معاناة الآكل. ثم يأتى الحرف الأخير فى الكلمة معبراً عن نهاية المعاناة. فنحن نستطيع أن نشرب الماء بصبه فى فم مفتوح الشفتين والفك الأسفل دون الإحساس بمشكلة أثناء البلع، ولكن ابتلاع الطعام لا يكون إلا مع إقفال الشفتين الذى هو جزء من نطق صوت الميم. وهكذا تعددت طرق الحكاية فى لفظ مفرد للدلالة على مرور الضالين المكذبين بإحدى صور العذاب فى الأخرة.

سبق أن قلنا إن المعنى الانطباعى قد يأتى عن طريق التأثر وقد يكون عن طريق التجربة الحسية Pragmatic والمعروف أن التنافس بين الأقران للوصول إلى النجاح أمر مطلوب، غير أن أحد المتنافسين قد يبالغ فى اتخاذ الوسائل المؤدية إلى النجاح حتى يعمل دون قصد على إفشال جهود الآخر. عندئذ يكون من المعقول أن يفهم الآخر أن التنافس قد تحول إلى تنافر أو تناجز، ثم يتصرف إزاء صاحبه فى ضوء هذا الفهم. وقد يكون بينك وبين أحد صداقة متينة طال عليه العهد حتى أصبحت أقرب إلى مرتبة الإخاء ثم يعرض له المرض ولا تعلم أنت بمرضه ويظل هو يطمع فى أن تعوده فلا تعوده، فيفهم من ذلك أنك قد تنكرت للصداقة، ويقف منك موقفا مناسبا لهذا الفهم. وقد تبحث عن مسكن تسكنه فتصادف حيا نظيفا من أحياء المدينة تكثر فيه المساجد فتبادر إلى سكناه راضيا عنه، ثم يتكشف لك بعد قليل أن كثرة المساجد التى أغرتك بسكنى الحى لها جانب آخر يزهدك فى سكناه. ففى المساجد مكبرات صوت تعمل بأقصى طاقتها، وأئمة هذه المساجد يتنافسون فى إلقاء دروس قبل الصلوات أو بعدها ويطيلون فى الخطبة يوم الجمعة. وقد تقام مراسم العزاء فى ساحات هذه المساجد فما تزال تضيق ذرعا بالأصوات العالية حتى تصل إلى قرار مغادرة هذا الحى إلى حى آخر يتمتع بالهدوء. وهكذا ينقلب المعنى من الإقبال والترحيب إلى الإدبار والنفور.

وقد تتعدد المعانى الإنطباعية فى فهم التجربة الواحدة بحسب اختلاف المواقف، فتكون: ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴾ (النور ٤٩ ـ ٥٠). وواضح من سياق الآيات أن هؤلاء المنافقين يعلنون الإيمان والطاعة إذا رأوا فى ذلك نفعاً، ثم يرى فريق منهم أن النفع لم يعد كما كان فيعرضون عما أعلنوه من قبل من الإيمان. ثم إذا اضطروا إلى التقاضى فعلموا أن القاضى هو رسول الله أعرضوا مخافة أن

يكون الحق من جانب الخصم، أما إذا كان الحق فى جانبهم فإنهم يخضعون لحكم النبى صلى الله عليه وسلم. من هنا يكون المعنى الذى اختلف فهمه من لدن المسلمين على النحو التالى:

ـ إعلان الإيمان ثم النكوص عنه = فى قلوبهم مرض. (أفى قلوبهم مرض).

ـ عدم قبولهم قضاء النبى = ريب. (أم ارتابوا).

ـ خوفهم أن يحيف الله رسوله عليهم = ظلم. (بل أولئك هم الظالمون).

هذا ما فهمه المسلمون بالانطباع الذى سيطر على أفهامهم فلم يفضلوا أحد الفروض على غيره.

تلخيص:

رأينا مما سبق أن المعانى أنواع بعضها يستند إلى العرف ويحدده اتفاق الجماعة اللغوية؛ فاستعماله يتطلب القياس على ما ارتضاه المجتمع. فمن أراد الإبداع فسبيله إلى ذلك هو الخروج على أصل الاستعمال العرفى باللجوء إلى إحدى الوسائل التالية:

١ ـ عرفنا مما سبق أن المعنى قد يتعدد للعنصر اللغوى الواحد مع تفاوت شهرة كل معنى. فمن وسائل الإبداع المعنى الذى يناسب جو النص.

٢ ـ ومن الوسائل المذكورة نقل اللفظ من القسم الذى ينتمى إليه من أقسام الكلم كما فى المجاز ونحوه.

٣ ـ ومنه نقل نمط الجملة من معناه الأصلى إلى معنى آخر، كتحول النمط الخبرى إلى معنى الأمر فى "والمطلقات يتربصن".

٤ ـ الترخص فى قرائن المعنى، وهى الإعراب والبنية والأداة والتضام والرتبة والربط. فكل واحدة من هذه القرائن قد تفيض عن حاجة أمن اللبس، فيصبح المعنى واضحا بدونها، وعندئذ يمكن الترخص فيها بعدم استعمالها فى الكلام. ومن ذلك ما يلى:

أ ـ من الترخص فى الإعراب ما يسميه النحاة إعراب الجوار، وتعلق المعنى بالبديهات دون الحركات نحو "جحر ضب خرب" و "خرق الثوب المسار" ...الخ.

ب ـ التصرف فى البنية، نحو "أمن لا يهدى" وكذلك "وطور سينين" و "سلام على إلياسين" و "وكذبوا بآياتنا كذابا".

ج ـ الأداة، كدلالة "هل" على التعجب فى قوله تعالى: "هل فى ذلك قسم لذى حجر"، وقوله: "الحاقة ما الحاقة". وكحذف الأداة "وإن أطعتموهم إنكم لمشركون "وزيادتها فى قوله: "لئلا يعلم أهل الكتاب"، وكذلك فى: "فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم".

د ـ التضام، نحو حذف الجواب فى "ائن ذكرتم" (أى تطيّرتم)، ومثل إضافة المصدر فى "لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا" فلولا القرينة الدالة على أن المعنى على إضافة المصدر إلى فاعله فيما يلى لوقع اللبس فى المعنى.

هـ ـ الرتبة، نحو "ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه" (أى سخروا منه وهو يصنع الفلك)، ونحو "وهى تجرى بهم فى موج كالجبال ونادى نوح ابنه" (أى نادى نوح ابنه وهى تجرى بهم فى موج كالجبال).

و ـ الربط، نحو "اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم" (أى أنعمتها) وكذلك "قضى الأمر واستوت على الجودى" (الضمير المستتر لسفينة لم يرد لها ذكر) ونحو "وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجئ بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق" (الضمير فى بينهم يعود على الخلق كلهم ولم يرد لهم ذكر) وكذلك "قالتا أتينا طائعين". (أى طائعين).

هذه أمثلة وشواهد قليلة تشهد على ظاهرة واسعة الانتشار هى ظاهرة الترخص

فى القرينة عند أمن اللبس وهى صورة من صور الإبداع فى استعمال اللغة العربية. أضف إلى ذلك ما يعرض للسياق من فصل أو حذف أو إضمار أو قصر أو إيجاز أو غير ذلك من طرق الإبداع فى حدود المعنى العرفى.

أما بالنسبة للمعنيين الذهنى والانطباعى فليس هناك ما يربطهما بالعرف اللغوى، بل بالعكس، هما يمثلان نشاطا فرديا يختلف من فرد إلى آخر، ومن ثم يعد كل منهما مجالاً للإبداع الشخصى.

الفرق بين اللبس واحتمال وجوه المعنى

إذا قلت لصاحبك: "زرت فلانا ساعة ثم غادرته غاضبًا" لم يدر صاحبك من منكما كان هذا الغاضب. فهذا من قبيل اللبس، لأنه لا توجد قرينة فى هذه العبارة تعين على معرفة المعنى. وتقول: "ذهبت إلى ابن أخى وصديقه" فلا يدرى السامع لمن هذا الصديق، لابن أخيك أم لأخيك. والقرينة غائبة دائمًا فى الألغاز ليكون غيابها سببًا فى التباس المعنى كما يلى:

ما اسم شىء تركيبه من ثلاث وهو ذو أربع تعالى الإله

فإذا ما قلبته وأخذت الـ ثلث منه يكون لى ثلثاه

الجواب الفيل ولا دليل عليه فى النص لأن لفظ "قلبته" يفهم على وجهين: قلب الشىء وقلب اللفظ الدّالّ على هذا الشىء. ومنه أيضًا:

يأيها العطار أعرب لنا عن اسم شىء قل فى سومك

تراه بالعينين فى يقظة كما يرى بالقلب فى نومك

والجواب هو "كمون". والسر أيضًا فى لفظ "القلب" فى الحالتين. أما إذا قامت قرينة على المعنى فإن الأمر لا يعدو إحدى حالتين: أن يؤدى النص معنى واحدًا فقط، أو أن يخضع النص لأكثر من احتمال للمعنى لتعدد القرائن والاحتمالات. وهذا هو المقصود بقول المفسرين عن القرآن الكريم: إنه

حـمال أوجه. دعنا نضرب بعض الأمثلة لدلالة القرينة على الـمعنى الواحد، مثال ذلك:

* لا إله إلا الله وحده لا شريك له.
* يأتى البرد فى الشتاء ويأتى الحر مع الصيف.
* لمصر تاريخ حافل بالأحداث العظام.
* طلب العلم وسيلة للتقدم.

أما إذا قامت قرينة على المعنى الآخر (إما فى سياق النص وإما فى سياق الموقف) فإن هذا المعنى يتضح ولو بواسطة التأويل. انظر مثلاً إلى ما يلى من الآيات القرآنية وإلى ما بها من دلالة على المعنى:

* ﴿ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ (يس: ٣٥). تصلح "ما" هنا للنفى والموصولية ولكن النص يشتمل على قرينة تدل على أنها للنفى، وذلك قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ فالشكر هنا موجه إلى من صنع الطعام.

* ﴿ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ (الأنبياء:). دليل الـمعنى ما يلى:

﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ معناه الـمهيمن، (انظر الـجزء الأول من كتاب البيان فى روائع القرآن ص ٢٩٤ وما بعدها). والـموقف مع هذه الآية موقف استعانة بالرحـمن على من سمعوا الدعوة فلم يستجيبوا (الأنبياء: ١٠٨ ـ ١١٢) فالمعنى فى ظل هذا الفهم يـجعل الرحـمن صفة للمبتدأ، وهو "ربنا"، ويـجعل لفظ (الـمستعان) خبرا عنه. أما المعنى الآخر فهو أن يكون الرحمن هو الخبر ويكون المستعان صفة للخبر.

* ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْـَٔاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴾ (النجم: ٢٥). رأى بعض الـمفسرين (انظر تفسير القرطبى ج ٩ ص ١٠٤ مثلاً) أن هذه العبارة تعنى أسلوبًا خبريًا، ولكن إعادة النظر فى الجملة تكشف عن أسلوب تعجبى يشبه قولنا: "لله أنت".

* ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾ (الملك: ٣)، رأى بعض المفسرين (انظر تفسير القرطبى ج ١٧ ـ ١٨ ص ٢٠٨) أن المعنى (خلقها طبقات بعضها فوق بعض). غير أن قرينة المعنى هى ما يلى ذلك فى النص القرآنى من قوله تعالى: "ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت" أى خلقها متطابقة دون اختلاف. فالمقصود بالسموات هو المجرّات وهى متطابقة لأنها جميعها يشتمل على نجوم وكواكب وعلى جاذبية تشكل قوة طاردة تحول دون تصادمها.

* قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ (الإخلاص: ٢ ـ ٤). قال بعض المفسرين (انظر تفسير الطبرى، الجزء الأخير ٢٤٥) إن معنى لفظ الصمد الذى يصمد إليه فى الحاجات. ولكن سياق النص يجعل ما بعد لفظ "الصمد" تفسيرًا لمعناه. فلا والد له ولا ولد ولا نظير.

فى هذه الآيات السابقة معان توضحها قرائن مستخرجة من النص أو من الموقف. وليس بهذه الآيات لبس، وليس فى معناها احتمال أوجه. أما ما نسب لبعض المفسرين من معان فالمعانى المقترحة هنا أولى منه بالقبول، أو على الأصح تعين على رفضه، وهكذا ينتفى أن يكون به تعدد أوجه.

غير أن السياق اللغوى أحيانًا يشير إلى أكثر من معنى مع تساوى المعانى فى صدق الدلالة، وفى هذه الحالة يقال إن النص حمال أوجه. وذلك كما يلى:

قد يعود تعدد احتمالات المعنى إلى الاشتراك فى اللفظ، وقد يعود إلى لازم المعنى، وقد يأتى من تعدد صور الإعراب أو اختلاف القصد، أو من غير ذلك من المقاصد كما سنرى بعد قليل:

المشترك اللفظى:

* قال تعالى: ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ (الأعراف: ٢٦).

نسب بعض المفسرين إلى التقوى لباسا تلبسه أو أنها هى لباس يلبسه التقى، واورد القرطبى شعرا بهذا المعنى يقول:

إذا المرء لم يلبس ثيابا من التقى تقلب عريانا وإن كان كاسيا

وخير لباس المرء طاعة ربه ولا خير فيمن كان لله عاصيا

ولاشك فى أن إضافة اللباس إلى التقوى بقصد هذا المعنى على سبيل المشاكلة يحظى بالقبول إلى حد ما، ولكن الأقرب إلى القبول أن كلمة "اللباس" المستعملة هنا هى مصدر لابس يلابس لباسا وملابسة. أى أن مباشرة التقوى خير من ستر العورة.

* قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (البقرة: ١٤٣).

* قال بعض المفسرين (انظر تفسير القرطبى ج ١ ـ ٢ ص ١٥٣): أى جعلناكم دون الأنبياء وفوق الأمم. وفى قوله تعالى: ﴿ حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ ﴾ (البقرة: ٢٣٨) فهم بعض المفسرين الوسطية بالمعنى الزمنى فقالوا إن المقصود صلاة العصر لأن قبلها صلاتين وبعدها صلاتين أخريين (ولكن هذا يصدق على كل من الصلوات الخمس). غير أن المعنى المقبول فى هذا المقام هو أقرب (ولكن ليس طبقًا) للمعنى الأول، بدليل قوله تعالى فى معرض الكلام عن أصحاب الجنة (القلم: ٢٨): ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ ﴾ أى أفضلهم. وبذلك يكون معنى الصلاة الوسطى أى المتقنة.

لازم المعنى:

قال سبحانه: ﴿ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴾ (الفرقان: ٧). يرى بعض أهل التفسير (انظر الجزء ١٣ من تفسير الطبرى ص ٤) أن أعيان قريش عيّروا النبى عليه الصلاة

والسلام بأنه قانع بأكل الطعام والمشى فى الأسواق وكان خيرًا له أن يكون فى صحبة الملائكة.

وقد أبطل الله سبحانه زعمهم هذا بقوله: "وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق". ولكن من الواضح أن هذه الآية تقصد بها الكناية وإن لها معنى آخر يلزم عن هذا المعنى الأول. ذلك أن آكل الطعام من شأنه أن يهضمه وأن يفرز فضلاته، وهذا الإفراز من شأن فاعله أن يتخفى عن الناس لا أن يسعى متلبسا به إلى مواجهتهم بالدعوة إلى اتباع دعوته إلى دين جديد يؤثر فى زعامتهم للعرب.

أما ما يلزم عن المشى فى الأسواق فهو ممارسة البيع والشراء وما يترتب على ذلك من زعم جودة سلعة رديئة لبيعها، أو رداءة سلعة جيدة لإنقاص ثمنها.

وكلا هذين الأمرين اللازمين ليسا من مهمات الرسل.

قال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ (المائدة: ٦٤). الغلول والبسط كنايتان عن البخل والكرم وكذلك عن الفقر والغنى. يقول الله تعالى: ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ﴾ (آل عمران: ١٨١). فهذان الوجهان (البخل والفقر) من لوازم الغلول.

تعدد احتمال الإعراب:

* قال تعالى: "فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج".

يقول ابن مالك فى الأفية (الجزء الثانى ص ٧):

وركب المفرد فاتحا كلا ... حول ولا قوة والثانى اجعلا

مرفوعا أو منصوبًا أو مركبا ... وإن رفعت أولا لا تنصبا

ويقول ابن عقيل فى معرض شرح ذلك (الجزء الثانى ص ١١):

وأشار بقوله: "والثانى اجعلا" إلى أنه إذا أتى بعد "لا" والاسم الواقع بعدها بعاطف ونكرة مفردة وتكررت "لا" نحو "لا حول ولا قوة إلا بالله" يجوز فيها خمسة أوجه، وذلك لأن المعطوف إما أن يبنى مع "لا" على الفتح، أو ينصب أو يرفع. ثم يقول باختصار:

فإن بنى معها على الفتح جاز فى الثانى ثلاثة أوجه: البناء على الفتح لتركبه مع لا الثانية، نحو "لا حول ولا قوة إلا بالله" أو النصب عطفا على اسم "لا"، أو الرفع وفيه ثلاثة أوجه: الأول أن يكون معطوفًا على محل "لا" واسمها، والثانى أن تكون "لا" الثانية عملت عمل "ليس"، والثالث أن يكون مرفوعًا بالابتداء.

نخرج من كل ذلك بما يلى:

أولاً: اللبس: تعدد احتمالات المعنى وليس لأحدها قرينة ترجحه.

حمل الأوجه: تعدد احتمالات المعنى ولكل منها قرينة تدل على صحته.

ثانيًا: حمل عدد من أوجه المعنى يصدق على عموم اللغة لا على خصوص القرآن الكريم

كيف يتم التغلب على اللبس فى السياق العربى

المقصود باللبس تعدد احتمالات المعنى دون مرجح. إذ لا يستطيع من يتلقى الكلام أن يقطع بأن المقصود واحد بعينه من هذه المعانى المحتملة. ويرجع تعدد احتمالات المعنى إلى عدم التوازى بين المعانى التى تسعى اللغة إلى التعبير عنها والمبانى التى تشتمل عليها اللغة لأداء هذا التعبير. فالمعانى لا حدود لها ولا يمكن إحصاؤها، ولكن المبانى محدودة العدد. ومن هنا كان من الضرورى أن يتعدد المعنى للمبنى الواحد حين يكون هذا المبنى خارج النص، فإذا اشتمل عليه نص ما أصبح بحاجة إلى قرينة تشير إلى أن المقصود به فى بيئة النص هو أحد تلك المعانى التى كانت له حال إفراده. وتتفاوت النصوص فى القدرة على استعمال القرائن الدالة على المعنى المقصود عندما يعرض القصور فى دلالة المبنى على هذا المعنى. ولعل النص القرآنى الكريم أعظم النصوص وفاء بتقديم القرائن عندما يعرض اللبس فى اللفظ أو فى التركيب كما سنرى أثناء عرض الموضوع فيما يلى من بيان مسالك اللبس. وهذه المسالك هى:

* تعدد المعنى الوظيفى.
* تعدد احتمالات العلاقة السياقية.
* تعدد احتمالات المعنى المعجمى.
* تعدد احتمالات المعنى عند الحذف.

* تعدد احتمالات الوصل والفصل.

* تعدد احتمالات دلالة التركيب.

وسنرى نماذج من كل حالة من هذه فى النصوص التالية:

أولاً ـ تعدد المعنى الوظيفى:

المقصود بالمعنى الوظيفى ما يقابل المعنى المفرد (المعجمى) والمعنى المفيد، وذلك فى عرف النحاة. وكان النحاة يصفون هذا المعنى الوظيفى بقولهم: "معنى عام حقه أن يؤدى بالحرف". غير أن الذى أقصده بهذا المعنى يشمل معانى الأدوات والصيغ الصرفية ولا يشمل معانى التعليق والربط. دعنا أولاً نأخذ لفظ "ما" بوصفها أداة متعددة الوظائف لنرى كيف تتعدد معانيها ويظل مبناها على حاله لا يتغير. وسوف تكون الشواهد من القرآن الكريم فى معظمها مع بيان القرائن الدالة على المعنى فى كل حالة:

* ﴿ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ (يس: ٣٥).

يسمح التركيب النحوى هنا بفهم "ما" فى "وما عملته أيديهم" بأحد معنيين:

أ ـ ليأكلوا من ثمره ومن الذى عملته أيديهم.

ب ـ ليأكروا من ثمره ولم تعمله أيديهم.

غير أن فى هذه الآية قرينة على إرادة المعنى الثانى هى عبارة "أفلا يشكرون". لأن من يأكل طعامًا لم يصنعه بيده أولى بأن يعبر عن شكره لمن أطعمه ممن يأكل طعامًا صنعه بنفسه. ومما يرشح هذا المعنى أيضًا قوله تعالى فى سورة النمل:

* ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ

حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ ﴾ (النمل: ٦٠). فقوله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ ﴾ يتفق فى معنى النفى مع قوله: "ولم تصنعه أيديهم". فالقرينة هنا مزدوجة بالنص أولاً حيث تكون القرينة هى المناسبة المعجمية بين "ما" النافية وقوله تعالى بعد ذلك: ﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ وبالتناص ثانيًا. بالنظر إلى آية النمل ٦٠)

* ﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ﴾ (يس: ٦٩).

يسمح تركيب الجملة فى قوله: "وما ينبغى له" بفهم أحد معنيين:

أ ـ وما ينبغى للشعر ذاته من معرفة قواعد نظمه. (أى وما علمناه الشعر وعلم العروض)

ب ـ ولا ينبغى للنبى أن ينظم الشعر.

وهذا المعنى الثانى هو المقصود بقرينة التناص بين هذه الآية وقوله تعالى فى سورة الشعراء: ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴾ (الشعراء: ٢٢٤). وكذلك كل آية تنص على أن النبى صلى الله عليه وسلم إنما بعث لهداية البشر. أضف إلى ذلك أننا حتى لو لم ندفع معنى الموصولية عن "ما ينبغى" فإن الآية فى جملتها تقع فى سياق نفى "ما" الأولى فى "وما علمناه".

* ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴾ (آل عمران: ١٩٨).

يسمح مجرد التركيب النحوى بأحد معنيين:

أ ـ أن تكون "ما" نافية (تعالى الله عن ذلك) فهذا المعنى مرفوض بسبب المفارقة المعجمية بين النفى للخير ونسبة ذلك إلى الأبرار.

ب ـ أن تكون موصولة، أى: والذى عند الله خير من ذلك للأبرار.

وقرينة المعنى الثانى ما سبقه فى الآية ذاتها من قوله تعالى: "لكن الذين اتقوا

ربهم لهم جنات... إلخ" من حسن الجزاء، وما سبق فى الآية رقم ١٩٣ من دعاء: ﴿ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴾ (آل عمران: ١٩٣). مما يدل على رضوان الله على الأبرار من عباده واستحقاقهم للخير.

* ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ (سبأ: ٣٩).

يأذن التركيب النحوى المجرد بأحد معنيين:

أ ـ لم تنفقوا شيئًا يستحق الإخلاف لتطالبوا بإخلافه.

ب ـ وإن من شىء أنفقتموه إلا يخلفه الله.

وقرينة المعنى الثانى قوله تعالى بعد ذلك مباشرة: "وهو خير الرازقين".

* ﴿ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ (الأعراف: ٤٨).

يمكن بدون القرينة أن يفهم النص بأحد معنيين:

أ ـ ماذا أغنى عنكم جمعكم واستكباركم؟

ب ـ لم يغن عنكم جمعكم واستكباركم شيئًا.

وقرينة المعنى الأول ما بعده من استفهام بقوله تعالى: ﴿ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ﴾ (الأعراف: ٤٩).

* ﴿ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ (يونس: ١٠١).

يمكن فهم التركيب النحوى للنص على أحد احتمالين:

أ ـ ما الذى ينفع من آيات أو نذر إذا أصر قوم على رفض الإيمان؟

ب ـ لن تغنى الآيات والنذر عن قوم يصرون على الكفر.

وقرينة إرادة المعنى الثانى قوله تعالى قبل ذلك مباشرة: ﴿ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (يونس: ١٠٠). وقبل ذلك أيضًا: ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ (يونس: ٩٩).

* ﴿ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ (طه: ٨٣).

يصلح التركيب النحوى لأحد معنيين:

أ ـ ما أشد عجلتك عن قومك!

ب ـ ما الذى جعلك تعجل فتأتى قبل قومك؟

وقرينة إرادة الاستفهام (دون التعجب) هى ما يأتى بعد ذلك من جواب يقول موسى: ﴿ هُمْ أُولَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾ (طه: ٨٤).

* ﴿ ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴾ (الحاقة: ١ ـ ٣).

يمكن فهم التركيب النحوى هنا على أحد وجهين:

أ ـ الاستفهام، بمعنى ما هى الحاقة وما الذى تعرفه عنها؟

ب ـ التعجب، بحذف أفعل بعد ما الأولى بمعنى ما أعظمها أو ما أقربها. وهذا شبيه بما فى حديث أم زرع من قولها: "زوجى أبو زرع وما أبو زرع"! ثم تأتى الآية التالية فى صورة جملة تعجبية كاملة هى: "وما أدراك ما الحاقة"! أى ما أعظم درايتك بها. وهذا المعنى هو المقصود ولهذه الجملة التعجبية أشباه فى سور أخرى من ذلك .وما أوراك ما ليلة القدر" و"وما أدراك ما الحطمة" و"وما أدراك ما سقر" و"ما أدراك ما يوم الفصل" "وما أدراك ما القارعة" الخ.

* ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ (إبراهيم: ٥٢).

يمكن أن يفهم هذا التركيب على أحد وجهين:

أ ـ هذا بلاغ للناس ويجب أن يكون إنذارًا لهم، فاللام للأمر.

ب ـ هذا بلاغ من أجل الإنذار، فاللام للتعليل.

والقرينة الدالة على إرادة المعنى الثانى ما يأتى بعد ذلك من نصب الفعل الواقع

فى سياق العطف على ذلك، وهو قوله: "وليذكر أو لو الألباب". فلو كان المعنى على الأمر لجاء الفعل مجزومًا.

* ﴿ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾ (الطلاق: ١٢).

هنا أيضًا يمكن فهم اللام فى لتعلموا على أحد معنيين: الأمر أو التعليل. وذلك بالتقدير التالى:

أ ـ اعلموا أن الله على كل شىء قدير.

ب ـ لأجل أن تعلموا أن الله على كل شىء قدير.

والقرينة الدالة على التعليل قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (الطلاق: ١٢).

* * *

نصل عند هذا الحد إلى تعدد المعنى الوظيفى للصيغة الصرفية بحيث تدل على أكثر من قسم واحد من أقسام الكلم فى وقت معا، أو على عدد من المعانى فى نطاق قسم واحد، فلا يتعين لها أحد هذه المعانى إلا بقرينة. فمن ذلك مثلاً:

١ ـ ﴿ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ﴾ (النمل: ٣٩)، و ﴿ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ (النمل: ٤٠). يصلح لفظ "آتيك" حال إفراده لنوعين من التأويل:

أ ـ أن يكون فعلاً مضارعًا، والمعنى: سوف آتيك.

ب ـ أن يكون اسم فاعل مضافًا إلى كاف المخاطب المفرد.

والـمعنى: أنا الذى أتيتك به؛ فاسم الفاعل إذا أضيف دل على المضى وإذا نوّن دل على الاستقبال كما فى قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ﴾ (الكهف: ٢٣ ـ ٢٤). فالقرينة التى تدل على المعنى إذًا أن سليمان يقول قبل ذلك: ﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا ﴾ (النمل: ٣٨).

٢ ـ ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴾ (النساء: ١٠٣).

يفهم من لفظى "قيامًا وقعودًا" حال قطعهما عن السياق أحد معنيين:

أ ـ جمع قائم وقاعد.

ب ـ مصدر قام وقعد.

وتشتمل الآية على قرينة تدل على إرادة المعنى الأول، هى قوله تعالى: "وعلى جنوبكم".

٣ ـ ﴿ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَـٰذَا رَشَدًا ﴾ (الكهف: ٢٤).

يمكن أن ندرك نوعين من المعنى النحوى للفظ "أقرب" فى هذا السياق:

أ ـ أن تكون الكلمة فعلاً مضارعًا فيكون لفظ "رشدًا" مفعولاً لأجله، أى لاقترب من هذا فأكون راشدًا.

ب ـ أن يكون المعنى على التفضيل فيكون لفظ "رشدًا" للتمييز.

والقرينة تدل على التفضيل لأن النص يشتمل على ما يدل على أنه نسى أن يقول: إن شاء الله ولذا يطلب من ربه أن يهديه إلى أفضل من ذلك.

٤ ـ ﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا ﴾ (الإسراء: ٤٦).

تحتمل صيغة فعول أحد معنيين:

أ ـ المصدرية، فيكون المقصود أنهم نفروا تفورا.

ب ـ جمع اسم الفاعل "نافر" فالمعنى: ولو نافرين.

والفرق بين المعنيين أن معنى الجمع (جمع نافر) يجعل نفورهم صفة متأصلة فيهم، ولكن معنى المصدرية يربط النفور بمناسبة خاصة هى سماعهم لذكر الله وحده. ويشهد لإرادة معنى الجمع ما فى الآية التالية "نحن أعلم بما يستمعون به" مما يكشف عن موقفهم من النبى عليه الصلاة والسلام واتهامهم إياه بأنه "رجل مسحور" كلما سمعوا منه ذكر الله سبحانه وتعالى.

* * *

بقى أن نتناول صيغ بعض الأفعال التى يتعدد معناها فتحتاج إلى قرينة تكشف عن المقصود بالصيغة. ومن الملاحظ أن صيغ الفعل ـ صحيحًا كان أم معتلاً ـ تكشف عن بعض التشابه فى الجدول الإسنادى فى صيغ المضارع. انظر مثلاً إلى جدول إسناد الفعل "ضرب" إلى الضمائر:

١ ـ ضربتُ	١٥ ـ أضرب	
٢ ـ ضربنا	١٦ ـ نضرب	
٣ ـ ضربتَ	١٧ ـ تضرب	٢٩ ـ اضرب
٤ ـ ضربتِ	١٨ ـ تضربين	٣٠ ـ اضربى
٥ ـ ضربتما	١٩ ـ تضربان	٣١ ـ اضربا
٦ ـ ضربتما	٢٠ ـ تضربان	٣٢ ـ اضربا
٧ ـ ضربتم	٢١ ـ تضربون	٣٣ ـ اضربوا
٨ ـ ضربتن	٢٢ ـ تضربن	٣٤ ـ اضربن
٩ ـ ضَرَبَ	٢٣ ـ يَضْرِبُ	
١٠ ـ ضربَتْ	٢٤ ـ تَضْرِبُ	
١١ ـ ضربنا	٢٥ ـ تضرب	
١٢ ـ ضربتا	٢٦ ـ تضربان	
١٣ ـ ضربوا	٢٧ ـ يضربون	
١٤ ـ ضربن	٢٨ ـ يضربن	

فلو نظرنا إلى صور الإسناد إلى الضمائر فى هذا الجدول الاول لوجدنا الشبه تامًا بين الصيغة رقم ١٧ والأخرى رقم ٢٤، ولوجدناه تامًا أيضًا بين ١٩ و٢٠ و٢٦. ومعنى هذا أننا بحاجة إلى قرينة تعيننا على فهم ما إذا كان رقم ١٧ مسندًا إلى المخاطب المفرد المذكر أو إلى الغائبة المفردة المؤنثة. والأمر كذلك فى الإسناد رقم ٢٤. ولو نظرنا لو جدنا تشابها ملبسًا أيضًا بين ٣١ و٣٢.

فإذا كانت فاء الكلمة فى صيغة الفعل تاء إزداد الأمر تعقيدًا، وبخاصة فى إسنادات الفعل المضارع التى تسمح فى بعض الصور بتوالى تاء المضارعة وتاء فاء الكلمة؛ فيقتضى الأمر حذف إحدى التاءين لكراهية توالى الأمثال.

وهنا نجد أن عبارة: "ولا تتنازعوا" تئول إلى: "ولا تنازعوا"، كما يخضع بعض أخواتها للإجراء نفسه؛ ومن ثم يزيد عدد الإسنادات المتشابهة على النحو التالى:

١ ـ توليت	١٥ ـ أتولّى	
٢ ـ تولّينا	١٦ ـ نتولّى	
٣ ـ تولّيتَ	١٧ ـ تتولّى	٢٩ ـ تولّ
٤ ـ تولّيتِ	١٨ ـ تتولّين	٣٠ ـ تولّى
٥ ـ تولّيتما	١٩ ـ تتولّيان	٣١ ـ تولّيا
٦ ـ تولّيتما	٢٠ ـ تتولّيان	٣٢ ـ تولّيا
٧ ـ تولّيتم	٢١ ـ تتولّون	٣٣ ـ تولّوا
٨ ـ تولّيتن	٢٢ ـ تتولّين	٣٤ ـ تولّين
٩ ـ تولّى	٢٣ ـ يتولّى	
١٠ ـ تولّت	٢٤ ـ تتولّى	
١١ ـ تولّيا	٢٥ ـ يتوليان	
١٢ ـ تولّتا	٢٦ ـ تتولّيان	
١٣ ـ تولّوا	٢٧ ـ يتولّون	
١٤ ـ تولّين	٢٨ ـ يتولّين	

فإذا خضعت الإسنادات من رقم ١٧ إلى ٢٢ بالإضافة إلى ٢٤ و٢٦ لحذف إحدى التاءين لكراهية توالى الأمثال (أى للتخفيف) وصلنا إلى التشابه الملبس داخل المجموعات التالية:

المجموعة الأولى: ٩ و١٧ و٢٤. إذ يصبح جميعها على صورة: تولى.

المجموعة الثانية: ١٣ و٢١ (منصوبًا أو مجزومًا) و٣٣، ليصبح جميعها: تولوا.

المجموعة الثالثة: ١٤ و١٨ (منصوبًا أو مجزومًا) و٣٤ ليصبح جميعها: تولين.

المجموعة الرابعة: ١١ و١٩ و٢٠ (منصوبين أو مجزومين) و٢٦ و٣١ و٣٢ إذ يصبح جميعها: توليا.

يمكننا بعد هذا الإيضاح أن نأتى ببعض الشواهد على إمكان وقوع تعدد الاحتمال النحوى الخالص المؤدى لما يعرض لهذه الصيغ من اللبس، ثم ما يعين على إزالة هذا اللبس من القرائن الدالة على المعنى المراد؛ وهى الفضيلة التى نجدها دائمًا فى نص القرآن الكريم ولا تتوافر فى غيره من النصوص إلا بقدر دون ذلك.

١ ـ ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾ (العصر: ١ ـ ٣).

تصلح صيغة "تواصوا" أن تكون فعلاً ماضيًا معناه: أوصى بعضهم بعضا، وأن تكون فعل أمر معناه: فليوص بعضكم بعضا. غير أن قرينة معنى الماضى أن الفعل "تواصوا" معطوف على فعلين ماضيين هما "آمنوا" و"عملوا".

٢ ـ ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ﴾ (التوبة: ١٢٩).

يمكن لصيغة الفعل "تولوا" أن تكون ماضيًا مسندًا إلى ضمير الغائبين، وأن تكون مضارعًا محذوف إحدى التاءين مسندًا إلى جماعة المخاطبين. والقرينة

على إرادة المعنى الأول أن إرادة المخاطبين كانت ستشمل النبى صلى الله عليه وسلم وهو ليس ممن يتولون وإنما هو مأمور أن يقول: "حسبى الله".

وهكذا رأينا أن المعنى الوظيفى هو الوظيفة التى يؤديها العنصر اللغوى من الأدوات والصيغ الصرفية. وسنحاول بعد ذلك أن نلقى الضوء على نوع آخر من المعنى هو المعنى العلائقى.

ثانيًا. تعدد احتمالات المعنى العلائقى:

المقصود بالمعنى العلائقى معانى حروف الجر وحروف العطف ووسائل الربط كعود الضمائر على مراجعها ونحو ذلك مما تنشأ به علاقة بين عنصرين أو أكثر من عناصر النص، كما يتضح عند النظر إلى الشواهد التالية:

١ ـ ﴿ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾ (هود: ٢٤).

إن من ينظر إلى مجرد تكرار الواو قد يحكم بأن الآية تشتمل على أربعة عناصر عطف بعضها على بعض. تلك هى الأعمى والأصم والبصير والسميع.

غير أن الآية تشتمل على قرينة تدل على أن العطف هنا يربط بين شخصين أحدهما (أعمى ـ أصم) والآخر (بصير ـ سميع). وتتمثل هذه القرينة فى تثنية لفظ "الفريقين" وإسناد الفعل "يستويان" إلى ضمير الاثنين.

٢ ـ ﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ﴾ (النساء: ٣٣).

يسمح التركيب هنا باحتمالين:

أ ـ أن تكون الواو فى "والذين" عاطفة والفاء فى "فآتوهم" للاستئناف.

ب ـ أن تكون الواو للاستئناف و"الذين" أشربت معنى الشرط والفاء اقترنت بخبر "الذين" لأنها مع إشرابها معنى الشرط جاء خبرها فى صورة جملة طلبية. فعومل معاملة جواب الشرط.

والقرينة تدل على إرادة المعنى الثانى، لأن الولاء يمنح حق الميراث فى أحكام الشرع. ولكن لما كان الولاء غير القرابة وضع حكمه فى الآية فى أسلوب الشرط ليتميز فى الحكم عن ورثة الوالدين والأقربين.

٣ ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (البقرة: ٢١).

يحتمل التركيب النحوى عطف "الذين" إما على لفظ "ربكم" وإما على "الذى" فيكون المعنى على النحو التالى:

أ ـ اتقوا ربكم واتقوا الذين من قبلكم.

ب ـ اتقوا ربكم الذى خلقكم وخلق الذين من قبلكم.

وتأتى القرينة على المعنى الثانى بعد ذلك مباشرة فى قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ﴾ دون أن ينسب أى نوع من الفضل للذين من قبلهم. أضف إلى ذلك أن عقيدة التوحيد تمنع أن يكون مع الله من يستحق أن يقرنه المؤمن به.

٤ ـ ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾ (الأنفال: ٣٩).

يحتمل التركيب النحوى أن يكون النفى بواسطة "لا" مسلطًا على "تكون" دون "يكون" كما يحتمل أن تكون مسلطة عليهما معا؛ فيكون المعنى:

أ ـ حتى لا تكون فتنة ويصبح الدين كله لله.

ب ـ حتى لا تكون فتنة ولا يكون الدين كله لله.

والقرينة الدالة على إرادة المعنى الأول هى التناقض بين الفتنة والدين. فإذا وجد أحدهما انتفى الآخر كما فى الاحتمال الأول، ولا يجوز أن ينتفيا معا كما فى الاحتمال الثانى.

٥ ـ ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾ (التوبة: ٧٩).

لا يمنع التركيب النحوى لهذه الآية أن تكون السخرية التى فى "سخر الله منهم" من الذين يلمزون والذين لا يجدون على معنى العطف، أو أن تكون من الذين لا يجدون موجهة إلى المطّوعين من المؤمنين. كما يسمح التركيب للفاء فى "فيسخرون" أن تكون عطفًا على الذين لا يجدون بعد عطف الذين لا يجدون على الذين يلمزون؛ فتكون الفاء وما دخلت عليه فى حيّز "الذين لا يجدون" فقط بعد عطفها على الذين يلمزون.

غير أن القرينة تحول دون ذلك لأن الذين لا يجدون إلا جهدهم أولى بالإحساس بالعجز لا بإرادة بالسخرية من الغير. ومن ثم خضعوا للّمز والسخرية من لدن الذين يلمزون. وهكذا يشير النص إلى أن الله تعالى يسخر من الذين يلمزون ويسخرون من المطّوعين ويسخرون أيضًا من الذين لا يجدون إلا جهدهم وهكذا تنحصر إرادة السخرية فى الذين يلمزون دون غيرهم.

٦ ـ ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ (الأعراف: ٦٤).

لا يحول التركيب بين أن تكون الواو فى "والذين معه" للحال فيكون المعنى: أنجيناه عندما كان الذين معه فى الفلك؛ دون إشارة إلى أنهم نجوا معه. كما يسمح بأن تكون الواو للعطف فتكون النجاة لنوح ومن معه وهم جميعًا فى الفلك. والقرينة تدل على هذا المعنى الثانى وهى الآيات الثلاث (٤١ ـ ٤٣) من سورة هود

إذ تدل هذه الآيات على أن الذين لم يركبوا فى الفلك كانوا من الهالكين المغرقين، وأن من كانوا فيها نجوا من الغرق.

٧ ـ ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰ ﴾ (النجم: ١٨).

يمكن للوهلة الأولى أن يفهم الإنسان من هذا التركيب أحد معنيين:

أ ـ لقد رأى الكبرى من آيات ربه.

ب ـ لقد رأى آية من آيات ربه الكبرى.

هناك نوعان من الآيات الدالة على عظمة الله سبحانه وتعالى: النوع الأول آيات يكرم الله بها الأنبياء للدلالة على صدق رسالاتهم، وهذه الآيات تتدرج فى الأهمية كما نرى فى قوله تعالى فى شأن موسى وفرعون: "فأراه الآية الكبرى فكذب وعصى". وفى هذا المقام يفهم من لفظ "الآية الكبرى" آية العصا. والنوع الثانى الآيات السماوية القريبة من عرش الرحمن، وهى التى رآها محمد صلى الله عليه وسلم فى ليلة المعراج؛ وجميعها يوصف بلفظ "كبرى".

ومن ثم يكون اللفظ الذى فى هذا الشاهد (رقم ٧) معبرًا عن هذا المعنى. أى أن ما رآه النبى عليه الصلاة والسلام فى ليلة المعراج هو عدد من الآيات الكبرى عبرت عنه الآيات ذات الأرقام ١٣ ـ ١٨ من سورة النجم.

٨ ـ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (يونس: ٤٤).

لا يمنع مانع نحوى أن يكون لفظ "أنفسهم" توكيدًا معنويًا للناس، أو أن يكون مفعولاً به مقدمًا للفعل "يظلمون". ولكن النظر إلى آيات أخرى فى القرآن الكريم يرشدنا إلى أن المقصود هو معنى المفعولية، أى أن الناس يظلمون أنفسهم وأن الله سبحانه لا يظلم أحدًا إذ يقول جل شأنه: "ولا يظلم ربك أحدًا". فمن أسمائه الحسنى أنه "العدل". ومن الآيات الدالة على أن الناس يظلمون أنفسهم قوله

تعالى: ﴿ سَآءَ مَثَلاً ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴾ (الأعراف: ١٧٧).

٩ ـ ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ﴾ (الأنعام: ٣٤).

بماذا يمكن أن نعلق "حتى" وما دخلت عليه من قوله: "حتى أتاهم نصرنا"؟ هناك ثلاثة أفعال يصلح كل منها أن تتعلق به "حتى":

أ ـ صبروا حتى أتاهم.

ب ـ كذبوا حتى أتاهم.

ج ـ أوذوا حتى أتاهم.

ولا يستبعد فى صناعة النحو أىٌّ من هذه الاحتمالات. ولكن هناك قرينة عقلية تؤكد أن مفهوم الغاية الذى تعبر عنه "حتى" يرتبط بالصبر لا بالتكذيب ولا بالإيذاء. وفى القرآن الكريم من الشواهد ما يربط بين حتى وبين الصبر، كما فى قوله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ﴾ (يونس: ١٠٩)، ﴿ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ﴾ (الأعراف: ٨٧). لهذا يرتبط إتيان النصر بالصبر على التكذيب والإيذاء.

١٠ ـ ﴿ يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ ﴾ (الأحزاب: ٣٢).

لقد وضعت علامة الوقف فى المصحف على لفظ "النساء"، ولكن تعاليم القرآن نفسه ربما جعلت الوقف صالحًا أن يكون على لفظ "اتقيتن". فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ (الحجرات: ١٣)، ويقول نبينا صلى الله عليه وسلم: "لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى". هذا من ناحية؛ أما من

ناحية أخرى فإن الوقف على الفعل "اتقيتن" يجعل ما بعده استئنافًا لبيان المقصود بالتقوى فى هذا المقام. فهى عدم الخضوع بالقول منعا لطمع ذوى القلوب المريضة. فإذا تحققت هذه التقوى كن خيرة النساء. وهكذا يكون الوقوف على "اتقيتن" أقرب وإلى وصايا الدين.

١١ ـ ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ۝ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴾ (الأنبياء: ١١ ـ ١٢).

من الواضح أن فى القرية حذفًا بيانيًا، لأن المقصود "أهل القرية" الموصوفين بالظلم، والظلم لا يكون من مبانى القرية. من هنا نتساءل عن مرجع الضمير "هم" أين هو؟ ومن هم الذين يركضون من القرية؟ أهم أهلها الأولون الظالمون أم القوم الآخرون؟ من البديهى أن القوم الآخرين لم يقع منهم ظلم فيركضوا خوف البأس، والقرية لفظ مؤنث لا يصلح مرجعًا للضمير "هم". هنا يسمح المعنى باعتبار الضمير المذكور راجعًا إلى المحذوف البيانى الذى هو "أهل القرية" الأولون.

١٢ ـ ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ﴾ (الحج: ٤٠).

إلام يعود الضمير فى "ينصره"؟ إلى المنصور، فيكون المعنى: ولينصرن الله من يشاء الله أن ينصره؟ أم إلى الناصر، فيكون المقصود: ولينصرن الله من ينصر الله (برفع لفظ الجلالة مع الفعل الأول ونصبه مع الفعل الثانى فى الآية)؟ المعروف أن القرآن يفسر بعضه بعضا (وهذا المبدأ وجد لنفسه مصطلحا حديثًا هو مصطلح "التناص") فإذا طبقنا هذا المبدأ فلنا أن نلتزم فى تفسير هذه الآية بالتوفيق فى المعنى بينها وبين قوله تعالى: ﴿ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ ﴾ (محمد: ٧) وبذلك يعود الضمير فى "ينصره" إلى لفظ الجلالة فى الآية التى بين أيدينا. أما المعنى الآخر وهو: (ولينصرن الله من يشاء الله أن ينصره) فهو من المسلمات التى لا تفتقر إلى نص

عليها أو إعلام بها، فهى شبيهة بقولك: الأرض أرض والسماء سماء. أى أنها لا تشتمل على جديد يستحق الإشارة إليه.

١٣ ـ ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (آل عمران: ٥٩).

فى هذه الآية تشبيه عيسى بآدم. ووجه الشبه أن كليهما تم خلقه من غير نطفة بشرية. فأما عيسى فقد تم خلقه بواسطة نفخ الملك جبريل فى جيب أمه مريم، وأما آدم فقد خلق من تراب. فعلى الرغم من أن النحو يسمح بإعادة الضمير على كل منهما على حدة فإننا نجد عوده إلى آدم أولى من عوده إلى عيسى ومن عوده إليهما معا، وذلك بسبب النص على أن آدم خلق من تراب دون ذكر الطريقة التى خلق بها عيسى..

١٤ ـ ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ (الرعد: ١١).

ثمة احتمالان لفهم العلاقات فى داخل هذه الآية من الناحية النحوية الصرف: أحدهما بين الجار والمجرور، والآخر بينهما وبين لفظ معقبات. والمعنى بحسب كل منهما كما يلى:

١ ـ له معقبات يحفظونه من أمر الله.

٢ ـ له معقبات من أمر الله يحفظونه.

والذى يرجح المعنى الثانى أنه لا يمكن لشىء أن يحول دون أمر الله ليحفظ أحد مخلوقاته. ومعنى ذلك رفض تعليق الجار والمجرور بالفعل "يحفظونه". أما ما قاله القرطبى من أن "من" فى قوله: "من أمر الله" بمعنى الباء فهو غير متجه لأنه لم يأت على ذلك إلا بشاهد واحد هو قول أبى ذؤيب الهذلى:

شربن بماء البحر ثم ترقعت متى لجج خضر لهن نئيج

وهو يحتمل تضمين "شربن" معنى حفلن بماء البحر، لأن الكلام عن السحائب. كما يحتمل زيادة الباء تجوّزًا. وأيا ما كان الأمر فإن الاعتماد على الشاهد الواحد ربما كان اعتمادًا على رخصة ترخصها الشاعر فلا يصح أن تبنى عليها قاعدة.

١٥ ـ ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُّوحِيٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ﴾ (النحل: ٤٣ ـ ٤٤).

يحتمل التركيب ثلاثة أنساق نحوية، على النحو التالى:

أ ـ وما أرسلنا من قبلك بالبيانات والزبر إلا رجالاً نوحى إليهم.

ب ـ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحى إليهم بالبينات والزبر.

ج ـ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحى إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون بالبينات والزبر.

فالباء ومجرورها وما عطف عليهما تتعلق بالفعل "أرسلنا" أو بالفعل "نوحى" أو بالفعل "تعلمون". فأى هذه الأنساق هو المقصود؟ هناك قرينة فى محيط هذا الشاهد؛ فالآية رقم ٣٦ من النحل تقول: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُواْ فِى ٱلأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ (النحل: ٣٦). فهذا الشاهد الذى بين أيدينا يشتمل على بيان الطبيعة البشرية للرسل ولكنهم يختلفون عن بقية البشر بأنهم يوحى إليهم برسالات فيها بينات وكتب سماوية يعلمها من اهتدوا بهديهم؛ أى أنه إذا كان رسولكم الذى أرسل إليكم رجلاً من بنى الإنسان فذلك لا يمنع من أن الله أرسله بالبينات والزبر كما أرسل من قبله من الرسل. فإذا كنتم لا تعلمون بما أنزلنا إليه من البينات فاسألوا أهل الذكر ممن يعرفون شأن الرسالات السابقة.

١٦ ـ ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ ﴾ (النساء: ١٢٧).

من المعروف أن الفعل "رغب" يتعدى بحرف الجر "فى" فيكون معناه "طلب" أو بالحرف "عن" فيكون معناه "رفض" أو بالحرف "إلى" فيكون معناه "رجا".

غير أن الفعل "ترغبون" جاء فى هذه الآية بدون حرف جر، فكان من الممكن أن يكون فى النص لبس. ولكن القرآن الكريم يأبى اللبس؛ لأن حذف حرف الجر يناسب المقام، ويأتى للتعبير عن تعدد احتمالات حال اليتيمة المرغوب فيها أو عنها بحسب حالها. فهذه اليتيمة ذات مال كتب لها بالميراث، فالرغبة فى الوصاية عليها قائمة سواء كانت جميلة أم قبيحة فإن كانت جميلة كانت الرغبة فيها، وإن كانت قبيحة كانت الرغبة عنها. فلما كانت الرغبة مرتبطة بحرفين مختلفى الدلالة إلى درجة التقابل حذف كلاهما اتكالا على أن النص يعنى كلا منهما فى الوقت نفسه. ومثل هذه الحالات يعرض فى النصوص القانونية فى الوقت الحاضر فيجرى التعبير عنه بواسطة ذكر الحرفين وبينهما خط مائل مثل: (فى/ عن)، ولكن ذلك ليس من أسلوب القرآن الكريم.

١٧ ـ ﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (النور: ٦٣).

يمكن من الناحية النحوية الخالصة أن يكون للإضافة فى "دعاء الرسول" أحد معنيين:

أ ـ إضافة المصدر إلى مفعوله، أى لا يكن نداؤكم الرسول كنداء بعضكم بعضا.

ب ـ إضافة المصدر إلى فاعله، أى لا يكن كلام الرسول إليكم ودعوته إياكم إلى اعتناق عقائد الإسلام كمخاطبة بعضكم بعضا. بل قابلوا دعاءه إياكم بالانتباه والطاعة.

اختار بعض المفسرين كالقرطبى (رواية عن سعيد بن جبير وعن قتادة) الإضافة إلى المفعول، فجعلوا المعنى نحوًا من "لا تقولوا يا أبا القاسم ولكن قولوا يا رسول الله". فلما وصل القرطبى إلى تفسير "قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لو إذا" ذكر من المواقف ما يدعو إلى ترجيح المعنى الثانى، بل النص على إرادته تقريبًا؛ إذ يقول: والتسلل والانسلال الخروج، واللواذ من الملاوذة وهى أن تستتر بشىء مخافة من يراك؛ فكان المنافقون يتسللون عن صلاة الجمعة. "لواذا" مصدر فى موضع الحال؛ أى متلاوذين، أى يلوذ بعضهم ببعض، ينضم إليه استتارا من رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأنه لم يكن على المنافقين أثقل من يوم الجمعة وحضور الخطبة؛ حكاه النقاش. فالخطبة فيما يظهر يمكن أن تكون هى المقصودة بدعاء الرسول.

١٨ ـ ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ (الأحزاب: ٤٨).

يسمح النظام النحوى للإضافة هنا فى لفظ "أذاهم" بأحد معنيين:

أ ـ الإضافة إلى الفاعل، فيكون المعنى "أن تؤذيهم".

ب ـ الإضافة إلى المفعول، فيكون المعنى "أن يؤذوك".

ولكن القرينة الدالة على المقصود تظهر فى وقائع السيرة النبوية الشريفة إذ كان المشركون هم الذين يؤذون النبى صلى الله عليه وسلم.

١٩ ـ ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ ﴾ (المائدة: ٢).

هنا أيضًا يأذن النحو بالإضافة إمّا إلى الفاعل فيكون الشنآن (وهو البغض) من جهة القوم، وإمّا إلى المفعول فيكون من جهة المسلمين. ولكن القرينة على إرادة الإضافة إلى الفاعل هى قوله: "أن صدوكم"، أى فلا تقابلوا كراهيتهم إياكم ومنعكم من زيارة البيت بالعدوان عليهم بمنع قافلة لهم من الوصول إلى البيت الحرام. ولو قدرنا الإضافة إلى المفعول لكان الشنآن واقعًا من المؤمنين فلا تكون هناك فائدة فى النهى عن العدوان.

ثالثًا ـ احتمالات الحذف:

الحذف أحد الأساليب البلاغية التى ترمى إلى غاية معينة؛ منها تجنب الإطناب ومنها إرادة تجنب التصريح بالعنصر المحذوف ومنها الاعتماد على دلالة القرائن، إذ "لا حذف إلا بدليل". وله أغراض أخرى لا مجال لإطالة القول فيها هنا. ولقد سبق أن تناولنا تحت رقم ١٦ من شواهد احتمالات المعنى العلائقى حذف حرف الجر بعد الفعل "ترغبون"، وبينا الغرض الأسلوبى الذى حققه هذا الحذف. وسنحاول هنا أن نورد بعض الشواهد على حذف بعض العناصر الأخرى؛ وبخاصة الضمائر الرابطة وهى القسط المشترك بين معظم الشواهد.

١ ـ ﴿ وَلَا تَسُبُّوا ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ (الأنعام: ١٠٨).

إن من لا يفطن لدواعى الحذف فى هذه الآية ليظن أن المعنى: ولا تسبوا الكفار الذين يدعون آلهة من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم. ولكن هذا التقدير يهمل عنصر التقابل الذى ينبغى أن يكون بين طرفى السب. ولو طبق مبدأ التقابل هنا لكان جواب النهى بحسب هذا الفهم: "فيسبوكم". أما الفهم الصحيح فإنه يستدعى تقدير ضمير يعود على "الذين" أى على آلهتهم؛ والتقدير: "ولا تسبوا الذين يدعونهم من دون الله فيسبوا الله".

٢ ـ ﴿ أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾ (الإسراء: ٥٧).

قبل هذه الآية جاءت آية أخرى (رقم ٥٦) هى قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلاً ﴾ فكانت هذه الآية قرينة على المعنى. فلما أشار فى الشاهد الذى بين أيدينا بلفظ "أولئك" كان لابد من تقدير ضمير فى الفعل "يدعون" يعود إلى أولئك. والمقصود بهذا الضمير هو آلهتهم المزعومة من دون الله.

٣ ـ ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (آل عمران: ١٧٥).

قرينة الحذف هنا هى قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ (آل عمران: ١٧٣).

فتدل هذه الآية على أن هناك من يريد إخافة المؤمنين ممن اجتمعوا لقتالهم. فأرادت آية الشاهد أن تقول إن هؤلاء الذين أبلغوكم الخبر غير مخلصين لكم. وإنما أرادوا أن يخوّفوكم من أصدقائهم الذين جمعوا لكم المقاتلين ليقاتلوكم. فالتقدير لنص الشاهد: إنما ذلكم الشيطان يخوّفكم أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين حقًا. فضمير المخاطبين مقدر فى الفعل "يخوّف".

٤ ـ ﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ﴾ (النحل: ٣٧).

يحتمل الفعل "يضل" أن يكون مسندًا إلى ضمير يعود على "من" أو أن يكون مسندًا إلى لفظ الجلالة. والقرينة على إسناده إلى لفظ الجلالة (أو ضمير لفظ الجلالة على الأصح) هو إسناد الفعل "يهدى" إليه قبل ذلك مباشرة. وبذلك

يتحتم تقدير ضمير مفعول به للفعل "يضل" أى أن الله لا يـهدى من يقدر له الضلال. أضف إلى ذلك ما فى بداية الآية من عبارة "إن تـحرص على هداهم" أى لا ينبغى لك أن تـحرص على هداهم لأن الله لا يـهدى من قدّر له الضلال.

رابعًا ـ احتمالات المعنى المعجمى:

مادة المعجم تنتمى أساسًا إلى فقه اللغة لا إلى النحو، ومشتقاتها تنتمى إلى الاستعمال؛ إذ يلزم أن تقوم المناسبة المعجمية بين الألفاظ فى السياق، ومن هنا وجدنا البيانيين يستعملون عبارات مثل: إسناد الفعل إلى من هو له أو إلى غير من هو له. ولو أننا أخذنا مادة من مواد المعجم مثل: (ح ف ف) وتتبعنا مشتقاتها لوجدنا هذه المشتقات تتنوع صرفيًا فى صورها ومعجميًا فى معانيها. فهى تتنوع أولاً تبعًا لصيغ أقسام الكلم، وتتنوع ثانيًا تبعًا لبيئتها فى السياق. ومن ثم لزم فى الشرح المعجمى لمعانى المفردات أن يأتى الشارح بالشاهد أو بالمثال المشتمل على بيئة اللفظ فى السياق ليكون هذا الشاهد أو المثال قرينة على المعنى الذى نسب إليه اللفظ؛ لأن اللفظ الواحد يتعدد معناه فى حال إفراده ويظل قيد الاحتمال حتى يحدده الشاهد أو المثال.

دعنا أولاً نأخذ نموذجًا من المعجم للمادة المذكورة منذ قليل لنرى صدق ما نقول:

(حفت) الأرض ـ حفـوفًا: يبس بقلها. ـ الطعام: كـان يابسًا غـير دسم. ويقـال حف وهـو فى حفوف مـن العيش. وحف بطنه: يبس من عـدم أكل الدسم واللحم.

وحف شعره أو رأسه: شعث من عدم الأدهان. ـ الشمع: ذهب أجمعه ـ الشىء خفيفًا: سمع لـه صوت، كالـذى يكون من جناحى الطائر، أو تلهب النـار، أو مرور الريح فى الشجر. و ـ الشىء (منصوب) ـ (بضم الـحاء) حفا وحفافا: استدار حوله وأحدق به. ويقال حف الشىء بالشىء وحوله ومن حوله. حف فلانا: اعتنى

به ومدحه. و ـ الشيء (بالنصب): قشره. ويقال: حف شعره ولحيته وشاربه: أحفاه وخففه. وحفت المرأة وجهها: أزالت ما عليه من شعر. وحفته الحاجة: أصابته. (من المعجم الوسيط).

وهكذا أورد المعجم ثلاثة عشر معنى للفظ "حف" وحدد كل معنى منها ببيئته فى السياق. ولو لم يورد من الأمثلة والشواهد ما يدل على المعنى فى كل حالة لأصبح لفظ "حف" ملبسا لتعدد المعانى والاحتمالات، وغير صالح للاستعمال.

١ ـ لفظ "لباس":

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾ (الأعراف: ٢٦).

﴿ هُنَّ لِبَاسٞ لَّكُمۡ وَأَنتُمۡ لِبَاسٞ لَّهُنَّ﴾ (البقرة: ١٨٧).

﴿ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ﴾ (النحل: ١١٢).

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتٗا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورٗا ﴾ (الفرقان: ٤٧).

﴿ وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا ۝ وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗا ﴾ (النبأ: ١٠ ـ ١١).

يؤخذ من لفظ "لباس" أحد معنيين: أحدهما الملابس، وذلك هو المقصود بكلمة "لباسا" (بالنصب) فى آية الأعراف المذكورة فى بداية الشواهد فوق هذا الكلام، بقرينة قوله تعالى: "يوارى سوءاتكم". والثانى مصدر الفعل "لابس يلابس لباسا وملابسة" وهو المعنى المقصود فيما عدا ذلك من المواضع فى الآيات المذكورة هنا. وقرينة ذلك أن تصوّر الملابس تفسيرًا للفظ "لباس" فى المواضع المذكورة لا ينسجم مع النص بخلاف معنى الملابسة التى تدل على الإقامة مع الأهل، أو فى معاناة الجوع والخوف، أو قضاء الليل مع الأسرة

والانتشار لطلب الرزق فى النهار. فاللباس فى كل ذلك مصدر بمعنى الملابسة. وقد تكرر لفظ "لباس" فى الآية الأولى على سبيل المشاكلة؛ فذلك شبيه بما فى قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ (الروم: ٥٥).

٢ ـ لفظ "كتاب":

﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ (البقرة: ٧٨).

﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (الأنفال: ٦٨).

﴿ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ (النساء: ٢٤).

﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ (يونس: ٦١).

﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ﴾ (الكهف: ٤٩).

﴿ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ (النور: ٣٣).

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ﴾ (العنكبوت: ٤٨).

﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ ﴾ (ق: ٤).

﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ﴾ (آل عمران: ١٤٥).

﴿ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ ﴾ (الإسراء: ٧١).

إن من يتأمل دلالات الآيات السابقة ويرى أثر السياق فى معانى الألفاظ

المستعملة فيها سيرى أن لفظ "كتاب" يدل بحسب ترتيب الآيات على المعانى التالية:

* فى الآية الأولى يدل لفظ "كتاب" على الكتابة بدليل استعمال لفظ "أميون" فالكتاب مصدر "كتب".

* ويدل فى الثالثة على "الفريضة"، لأن الآية تدور حول حكم شرعى للتعامل مع النساء.

* وفى الرابعة على اللوح المحفوظ الذى يشتمل على أمور لا يحيط بعلمها إلا الله.

* وفى الخامسة على سجل أعمال المرء عند الله مشتملاً على الحسنات والسيئات.

* وفى السادسة على مكاتبة العبد الرقيق على مبلغ من المال يصبح بعد أدائه حرا، فالكتاب مصدر "كاتب".

* وفى السابعة على أى نص مخطوط، فلفظ كتاب معناه "مكتوب".

* وفى الثامنة ما يصيب كل واجد من العباد.

* وفى التاسعة موعد الموت.

* وفى العاشرة قائمة الحسنات التى كسبها العبد أثناء حياته الدنيا، بدليل، "بيمينه".

وهكذا يختلف معنى "كتاب" من الناحيتين الصرفية (التى يكون بها مصدرًا للفعل كتب أو كاتب أو بمعنى اسم المفعول من كتب)، والمعجمية التى تطلقه على الفريضة واللوح المحفوظ وسجل أعمال المرء عند الحساب أو ما يقع منه أو موعد الموت.

٣ ـ لفظ كوثر:

﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴾ (الكوثر: ١ ـ ٣).

تدل الأصول الثلاثة (ك ث ر) للفظ "كثر" على أن معنى "كوثر" متصل بمعنى الكثرة. ويشهد على ذلك قول الكميت:

وأنت كثيريا ابن مروان طيب وكان أبوك ابن العقائل كوثرا

فقد جعل الشاعرا بن مروان كثيرًا ثم بالغ فيما وصف به أباه من الكثرة بزيادة الواو، أى أن الكوثر مبالغة فى الكثرة. ويقول رواة الأثر إن المقصود بالكوثر فى سياق هذه السورة نهر فى الجنة، أو حوض للنبى صلى الله عليه وسلم تشرب منه أمته. ويوردون من الأحاديث ما يشهد لصحة هذا المعنى ولكنهم يختلفون فى سبب نزول هذه السورة بين الرجوع عن دخول مكة فى غزوة الحديبية وبين وفاة أحد أبناء النبى، وهو عبد الله أو إبراهيم ثم تعيير أبى جهل للنبى بأنه أبتر إلخ. وهذا القول الأخير فى سبب النزول أوجه فى رأيى من السبب الذى قبله، لأن الذى قبله لا يتضح منه سبب ذكر "الأبتر" فى آخر السورة. والمعنى فى عمومه ـ والله أعلم ـ: إنا أسبغنا عليك الكثير من النعم فاشكر الله بالتقرب إليه بالصلاة والقربات، ولا تعبأ بما قاله شانئك الأبتر.

٤ ـ لفظ "وسط":

﴿ حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ ﴾ (البقرة: ٢٣٨).

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ (البقرة: ١٤٣).

﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ (القلم: ٢٨).

﴿ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ ﴾ (المائدة: ٨٩).

يقول القرطبى فى تفسيره: روى الترمذى عن أبى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى: قال: "عدلاً". قال: هذا حديث حسن صحيح. وفى التنزيل: "قال أوسطهم" أى أعدلهم وخيرهم. وقال زهير:

همو وسط يرضى الأنام بحكمهم   إذا نزلت إحدى الليالى بمعظم

غير أن القرطبى فى تفسير معنى "الصلاة الوسطى" يقول: "واختلف الناس فى الصلاة الوسطى على عشرة أقوال". وقد اشتملت هذه الأقوال التى يشير إليها على تسمية جميع الصلوات الخمس مفردة أو مع جمع بعضها مع بعض، فخالف بذلك ما رواه عن الترمذى فى شرح معنى الأمة الوسط. ثم فسر الوسطية فى آية المائدة بأنها منزلة بين منزلتين أخذا من الحديث الشريف القائل: "خير الأمور أوسطها". مع أن الحديث يمكن أن يكون المقصود به أن أوسط الأمور هو خيرها، بمعنى أن الخيرية هى معنى الوسطية، أى تفسير معنى الوسطية؛ والتقدير: أوسط الأمور معناه خيرها. كما تقول: سيد القوّم خادمهم، أى خادم القوم أهم من فيهم لضرورة وجوده بينهم. فكما أن هذا المثال يمكن عكسه فيصير: سيد القوم خادمهم فكذلك يمكن عكس نص الحديث ليصير: أوسط الأمور خيرها.

ولقد كان يمكن قبول هذا الاختلاف الذى أورده القرطبى فى شرح معانى الوسطية لو قامت قرينة سياقية على كل معنى نسب إلى اللفظ. ولكن القرينة قائمة فعلاً على أن المعنى واحد فى جميع الشواهد السابقة على الترتيب التالى:

حافظوا على الصلوات وعلى إتقانها.

وكذلك جعلناكم خير أمة أخرجت للناس.

قال أفضلهم ألم أقل لكم قولوا إن شاء الله!

من أفضل طعام أهليكم أو كسوتهم.

فالأفضلية هى المعنى فى جميع الحالات، وإنكارها فى حالة الشاهد الأخير نوع

من البخل الذى يترك أثره فى حكم شرعى.

٥ ـ لفظا "أيد" و"موسعون":

يحتمل لفظ "أيد" أن يقصد به الأيدى وأن يقصد به الأيد وهو القوة (يقال: أيّدك الله أى قوّاك) وقرينة المعنى الثانى ما فى قوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ﴾ (ص: ١٧). وقيل فى لفظ "موسعون" ما فسره به أصحاب التفسير العلمى من "تمدد الكون"، أى أن الله يوسع مساحة الكون بقدرته. وتشير القرينة إلى أن المعنى: "وإن فى وسعنا أن نفعل ذلك". والدليل على صحة هذا المعنى ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ ﴾ (البقرة: ٢٣٦)، أى على المستطيع أن ينفق بقدر استطاعته.

٦ ـ الآخرة والأولى:

﴿ وَلَلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ (الضحى: ٤).

﴿ وَإِنَّ لَنَا لَلْـَٔاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴾ (الليل: ١٣).

﴿ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰ ﴾ (النازعات: ٢٥).

﴿ فَلِلَّهِ ٱلْـَٔاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴾ (النجم: ٢٥).

﴿ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ (القصص: ٧٠).

﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا ﴾ ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ (الإسراء: ٥ ـ ٧).

اشتهر فى أفهام المفسرين أن يكون المقصود بالأولى هو الحياة الدنيا، وأن المقصود بالآخرة هو الحياة بعد الموت. ولكن القرائن المحيطة بفهم هذه الآيات تدل على أن الأولى ما وقع ذكره أوّلا وأن الآخرة هى المذكورة بعد ذلك.

فالمقصود بهذين اللفظين فى سورة الضحى هو النزلة الأولى للوحى وما كان

فيها من مشقة، وبالنزلة الثانية ما صحبها من عطاء الرسالة وما فيها من عقيدة وشريعة.

أما فى سورة الليل فالمقصود بالأولى قوله تعالى: "فسنيسره لليسرى" والمقصود بالآخرة قوله تعالى: "فسنيسره للعسرى". أما قوله تعالى: "وإن لنا للآخرة والأولى" فمعناه: ونحن نستطيع التيسير لكلتيهما.

وأما فى سورة النازعات فإن فرعون فى أولى المعصيتين "كذب وعصى"، وفى الثنية "أدبر يسعى فحشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى". فعاقبه الله على اقتراف الآخرة والأولى.

وأما فى سورة النجم فثمة قوله تعالى: "ثم دنا فتدلّى"، وهذه هى الأولى. وقوله: ولقد رآه نزلة أخرى"، وهذه هى الآخرة. ثم جاءت بعد ذلك جملة التعجب التى تقول: "فلله الآخرة والأولى" أى ما أحسنهما.

وأما فى القصص فإن الأولى تتمثل فى قوله تعالى: وربك يخلق ما يشاء ويختار" وتتمثل الآخرة فى قوله سبحانه: "وربك يعلم ما تكن صدورهم".

ثم يقول: "له الحمد فى الأولى والآخرة". أى له الحمد خالقا وله الحمد عالما.

وأما فى الإسراء فثمة قوله تعالى: "لتفسدن فى الأرض مرتين". ومن هنا يأتى ذكر أولاهما والآخرة.

فالكشف عن الأولى والآخرة فى هذه الشواهد هو القرينة على إرادة المعنى المذكور لكل من هاتين الكلمتين.

٧ ـ الرحمن الرحيم:

يقول النسفى فى تفسيره: "الرحمن فعلان من رحم وهو الذى وسعت رحمته كل شىء كغضبان من غضب وهو الممتلئ غضبًا وكذا الرحيم فعيل منه كمريض من مرض. وفى الرحمن من المبالغة ما ليس فى الرحيم لأن فى الرحيم زيادة واحدة وفى

الرحمن زيادتين وزيادة اللفظ تدل على زيادة المعنى. ولذا جاء فى الدعاء: يا رحمن الدنيا لأنه يعم المؤمن والكافر ورحيم الآخرة لأنه يخص المؤمن". وفى قول النسفى هذا محاولة الكشف عن سبب اختلاف صيغة اللفظين وأصلهما واحد. وإذا كان الاستقراء من طرق البحث فلا مانع من أن ننظر فى استعمال القرآن الكريم لهذين اللفظين لنعلم من سياق استعمالهما المعنى المقصود بكل منهما. وقد تكون الطريقة المختصرة لأداء ذلك هى النظر فى المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، لأنه يجمع من الآيات فى موضع واحد كل ما يشتمل على أحد هذين اللفظين تحت مادة معجمية واحدة. وهكذا نعفى أنفسنا فى مشقة التفتيش عن الآيات المطلوبة فى النص القرآنى مجتمعًا.

وقبل أن نفعل ذلك يحسن بنا أن نشير إلى أن الأسماء الحسنى تدل على الذات الإلهية من جهتين: إحداهما الألوهية والأخرى الربوبية. الأولى تعنى استحقاق العبادة والأخرى استحقاق الاستعانة. وقد صرح النص القرآنى بذلك فى سورة الفاتحة بقوله تعالى: "إياك نعبد وإياك نستعين"، وبالفصل بين "مالك يوم الدين" و"رب العالمين". فإذا نظرنا فى ضوء ذلك إلى مواضع استعمال لفظى الرحمن والرحيم رأينا أن لفظ الرحمن يستعمل للدلالة على الألوهية وأن لفظ الرحيم يدل على الربوبية. أما لفظ الجلالة "الله" ـ وهو الاسم الأعظم فهو عام فى دلالته على الجهتين؛ لأنه معبود ومستعان فى وقت معا كما يفهم من مواضع استعماله.

وإذا كان الأمر كذلك فدعنا نلق نظرة إلى ترتيب الآيات فى معجم ألفاظ القرآن الكريم لنرى من سياق الآيات ما يوحى به كل من اللفظين:

* ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ (الإسراء: ١١٠).

* ﴿قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ (مريم: ١٨).

* ﴿ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا ﴾ (مريم: ٢٦).

* ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴾ (مريم: ٤٤).

* ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ (مريم: ٤٥).

* ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ (مريم: ٥٨).

* ﴿ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ﴾ (مريم: ٦١).

* ﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴾ (مريم: ٦٩).

فالرحمن كما رأينا صفة ألوهية وهيمنة وإحاطة بالعباد. فإذا اقترن ذكرها بلفظ "رب" فإنها تأتى فى مقام طلب المناصرة كما نراه فى آيتين من آيات القرآن الكريم:

﴿ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴾ (طه: ٩٠). أى إن ربكم هو المهمين الفعّال لما يريد، فكيف تتخذون العجل إلهًا من دونه!

﴿ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ (الأنبياء: ١١٢). أى وربنا المهيمن هو المعين لنا على عنادكم.

ففى الآية الأولى نرى بنى إسرائيل قد فتنوا فعبدوا العجل من دون الله فيقول لهم هارون ما نصت عليه الآية الأولى؛ فلما كان بنو إسرائيل ينظرون إلى الله تعالى من زاوية الربوبية أكثر مما ينظرون إليه من زاوية الألوهية، فهم شعبه المختار وهو يلتزم (فى ظنهم) بإنعامه عليهم وهم لا يلتزمون بعبادته، وإنما يعبدون العجل كما عبده الفراعنة رأى هارون من الضرورى أن يبصرهم بأن الله ليس ربا فقط بل هو رب وإله "وإن ربكم الرحمن" أى هو الإله أيضًا.

أما فى الآية الأخرى فإن الجملة الأصلية هى: "وربنا المستعان على ما تصفون" ولكن المقام تطلّب أن تكون الاستعانة به تعالى من حيث الألوهية وطلب النصر لا

من حيث الربوبية وطلب النعمة. وقد مهدت الآيات السابقة على هذه الآية لهذا الموقف على النحو التالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ (الأنبياء: ١٠٧ ـ ١١٢). وهكذا اقتضى الموقف أن يوصف الرب المستعان بأنه "الرحمن" الإله الواحد، ذو العرش المجيد الفعال لما يريد.

وإذا كان "الرحمن" من صفات الألوهية والهيمنة واستحقاق العبادة كما اتضح من بيئة اللفظ فى سياق الشواهد السابقة فإن "الرحيم" من صفات الربوبية والعطاء والرأفة كما يبدو أيضًا من بيئة اللفظ فى آيات القرآن الكريم. ولن يتسع المقام هنا ـ كما لم يتسع من قبل ـ لإيراد كل ما فى القرآن من آيات ورد فيها لفظ "الرحيم".

ومن ثم يحسن بنا أن نكتفى بإيراد شاهد واحد لكل صفة اقترن بها هذا اللفظ مما يوحى بمعنى الربوبية الذى يستفاد منه. وهذه الصفات هى:

* التوّاب: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (البقرة: ٣٧).

* الرءوف: ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (التوبة: ١١٧).

* الرحمن: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (البقرة: ١٦٣).

* الغفور: ﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (المائدة: ٣).

* الودود: ﴿ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ (هود: ٩٠).

* العزيز: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (الشعراء: ٩).

* الرب: "سلام قولاً من رب رحيم" (يونس: ٥٨).

* البر: ﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (الطور: ٢٨).

فالتوبة والرأفة والغفران والود والربوبية كلها صفات عطاء؛ أما العزة فهى كمال ذاتى ليس له هيمنة الرحمن. وأما الشاهد الذى اشتمل على عبارة "الرحمن الرحيم" فإن الآية تتكلم فى الأساس عن الإله الذى هو الرحمن ثم تصفه بأنه "رحيم" بعباده. ومعنى هذا فى النهاية أن لكل من لفظى "الرحمن" و"الرحيم" ظلا مختلفًا عن الآخر فى المعنى وإن اتفقا فى أصل الاشتقاق.

٨ ـ مادة (ق د ر) ومشتقاتها:

لمشتقات مادة (ق د ر) عدد لا بأس به من المعانى يجمعه اتجاه عام إلى مفهوم "الضبط والتحديد" الذى يمكن ملاحظته فى الأمور الآتية:

المقدرة: ﴿ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ (القيامة: ٤٠).

القيمة: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ﴾ (الأنعام: ٩١).

الغلبة: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ﴾ (المائدة: ٣٤).

الموعد: ﴿ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴾ (طه: ٤٠).

﴿ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ (المرسلات: ٢١).

الملك: ﴿ لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ﴾ (البقرة: ٢٦٤).

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴾ (النحل: ٧٥).

الحسبان: ﴿ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ (الأنعام: ٩٦).

﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ (يس: ٣٩).

﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ (فصلت: ١٠).

﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ (المزمل: ٢٠).

التضييق: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ (الرعد: ٢٦).

﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ (سبأ: ١١).

﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ (الطلاق: ٧).

﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ (الأنبياء: ٨٧).

﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ (البلد: ٥).

تحديد المقدار: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ (الفرقان: ٢).

﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾ (المرسلات: ٢٣).

﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ (الطلاق: ٣).

﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ (الرعد: ٨).

﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ (الحجر: ٢١).

﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ (الرعد: ١٧).

﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾ (الشورى: ٢٧).

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾ (المؤمنون: ١٨).

واحسب أن هذا المعنى الأخير قريب من مفهوم "توازن البيئة" كما نفهمه الآن.

خامسًا. احتمالات الوصل والفصل:

أول ما يرد على الذهن من هذه الظاهرة ما يعرف باسم "تعانق الوقف" كالذى نصادفه فى أول سورة البقرة من قوله تعالى:

* "ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين". إذ يمكن لهذه الآية أن تقرأ بكل من الصور التالية:

ذلك الكتاب ـ لا ريب فيه ـ هدى للمتقين.

ذلك الكتاب ـ لا ريب ـ فيه هدى للمتقين.

ذلك الكتاب لا ريب فيه ـ هدى للمتقين.

موضع التعانق هو عبارة "لا ريب فيه" من حيث علاقة الألفاظ فى داخلها وعلاقاتها بما حولها سواء مما تقدم عليها أو تأخر عنها. وهناك صور أخرى لاحتمالات الوصل والفصل يسمح بها النحو ويأبى بعضها المعنى المقصود، نورد بعضها فيما يلى:

* ﴿ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ (المائدة: ٤).

لا يمنع مانع نحوى من عطف "ما علمتم" على الطيبات والوقف على لفظ الجلالة، ثم الاستئناف بقوله: "فكلوا". ولكن يمنع من ذلك تحريم لحم الجوارح من جهة وعدم استعمال الطيبات فى الصيد من جهة أخرى. من هنا يكون الاستئناف على قوله: "وما علمتم" وتصبح الفاء فى "فكلوا" واقعة فى جواب الشرط.

* ﴿ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ﴾ (الأحزاب: ٥١).

ولا يمنع مانع نحوى أيضًا من عطف "ومن ابتغيت" على "من تشاء" والاستئناف بجملة "فلا جناح عليك". غير أن المعنى قائم على ربط الاستئناف بالجملة الشرطية "ومن ابتغيت" وجوابها "فلا جناح عليك".

* ﴿ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ (يس: ٥٢).

لو كان الوقف على لفظ "هذا" (ولا يمنعه النحو) لتحولت "ما" التى بعده عن الموصولية إلى نفى الوعد والصدق.

* ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ (يونس: ٦٥).

لا يمنع مانع نحوى من الوصل ولو تم الوصل لقامت دعوى غير معقولة هى أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يحزن عند قول هؤلاء: إن العزة لله جميعًا. ولكن الوقف على لفظ "قولهم" يجعل قولهم شيئًا غير ذلك، ويفيد أن ما بعده هو من كلام الله سبحانه وتعالى. أما ما قاله هؤلاء فقد أشارت إليه الآية رقم (٩٥) من السورة، وهى تقول: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾. فقولهم هذا هو الافتراء.

* ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾ (آل عمران: ٧).

لا مانع من النحو يمنع من أن يكون الراسخون فى العلم أهلا لتأويل المتشابه، فيكون لفظ "الراسخون" معطوفًا على لفظ الجلالة فلا مانع من الوصل. ولكن الراسخين ـ كما تقول الآية ـ "يقولون آمنا به كل من عند ربنا". وهكذا يقف الإيمان بإزاء العلم فيكون لهم الإيمان ولله العلم بالتأويل.

* ﴿ قَالُوا۟ تَقَٰسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ (النمل: ٤٩).

يجوز فى منطق النحو الوقف على "تقاسموا" ليكون على سبيل البدل من "قالوا" ثم الاستئناف بقوله تعالى: "بالله لنبيتنه وأهله". ولكن هؤلاء الرهط "كانوا

يفسدون فى الأرض ولا يصلحون" فلا ينتظر منهم أن يكونوا من أصحاب الإيمان اليارّة. ولو نظرنا إلى إيراد صيغة القسم "بالله" لوجدنا رواية اللفظ بعينه أولى أن تكون من كل واحدة منهم على حدة، لا أنهم تلوا القسم معا. فلا يبقى إلا أن يكون الكلام متصلاً بدون استئناف، وأن يكون كل منهم على حدة قد تلا القسم أمام الآخرين. وعلى ذلك يكون لفظ القسم من الجار والمجرور متعلقًا بالفعل "تقاسموا" متصلاً به فى التلاوة.

سادسًا. احتمالات معنى التركيب:

إذا صح أن يتعدد المعنى للحرف والأداة والصيغة واللفظ المفرد والوقف والابتداء فإن المعنى يتعدد أيضًا لتركيب الجملة فى بعض الحالات. ولقد رأينا كيف يعتمد المفسرون والفقهاء فى فهم معنى فعل الأمر على القرائن فيرونه مفيدًا للإباحة حينا وللوجوب حينًا آخر. وليس تعدد المعنى مقصورًا على صيغة الأمر، ولكن له مظاهر أخرى فى تراكيب العربية سجلها النحاة تحت عنوان "إشراب التركيب معنى غير معناه الأصلى" وأوضحوا ذلك فى باب الإخبار بالذى والألف واللام، إذ يصادفون خبر المبتدأ فى بعض الحالات مقترنا بالفاء فيفهمون بذلك أن الجملة الخبرية قد أشربت معنى الشرط. وأرى أن هذا الفهم لمشكلة تعدد المعنى فى مجال الجملة صالح أن يعمم فى الحالات المختلفة للجمل فى النحو العربى. انظر على سبيل المثال إلى احتمالات المعنى فى الشواهد التالية:

* ﴿ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران: ١٠٢).

التركيب فى صورة النهى وقد أشرب معنى الأمر بدليل أن الموت لا ينهى عنه وأن ما صحب التركيب من الاستثناء والغائية يشير إلى طلب التمسك بالإسلام حتى الموت.

* ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴾ (المؤمنون: ١١٦).

التركيب فى صورة الخبر ولكنه أشرب معنى الإنشاء التعبدى بقرينة النص على شعار الوحدانية والعرش الكريم.

* ﴿ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ (الكهف: ٢٨).

النهى للعينين فى التركيب وللنبى صلى الله عليه وسلم فى المعنى. بقرينة إسناد الفعل "تريد" إليه صلى الله عليه وسلم.

* ﴿ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ﴾ (القصص: ٨٧).

اتجه التركيب إلى نهى المشركين والقصد نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن طاعتهم.

* ﴿ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ﴾ (القلم: ٤٤).

التركيب أمر أشرب معنى الوعيد.

* ﴿ وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ ﴾ (الطلاق: ٤).

التركيب خبرى أشرب معنى الشرط بقرينة الفاء فى "فعدتهن".

* ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ (البقرة: ٢٢٨).

التركيب خبرى أشرب معنى الشرط بقرينة ما بعده من قوله تعالى: "إن كن يؤمن".

* ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ﴾ (البقرة: ٢٣٣).

التركيب فى صورة الخبر ولكنه أشرب معنى الشرط بقرينة قوله تعالى: "لمن أراد أن يتم الرضاعة".

* ﴿ هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ﴾ (الإنسان: ١).

التركيب على صورة الاستفهام ولكنه أشرب معنى التعجب أى ما أطول ما مر بالإنسان من الدهر دون أن يكون له وجود. والقرينة أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن له علم بتطور نشأة الإنسان فيسأل عما كان من ذلك.

* ﴿ هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴾ (المطففين: ٣٦).

التركيب على صورة الاستفهام ولكنه أشرب معنى التعجب من تبدل الحال بين الكفار والذين آمنوا.

* ﴿ ٱلۡحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ﴾ (الحاقة: ١ ـ ٣).

قوله تعالى ﴿ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ﴾ جاء على صورة الاستفهام غير أنه أشرب معنى التعجب بقرينة ما بعده من تعجب كامل الأركان هو قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ﴾ بدليل أن النبى صلى الله عليه وسلم كان على علم بأشراط الساعة.

* ﴿ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ (هود: ١٤).

التركيب على صورة الاستفهام ولكنه أشرب معنى التحضيض. وقد جاء ذلك بعد أن أمر الله المؤمنين بقوله: "فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو".

* ﴿ قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ۝١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ﴾ (الكهف: ١٠٣ ـ ١٠٤).

التركيب للاستفهام ولكنه أشرب معنى الخبر، أى سأنبئكم.

* ﴿ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ ﴾ (المائدة: ٦٤).

التركيب على صورة الخبر ولكنه أشرب معنى الإنشاء بقصد الدعاء.

مكنونات الضمائر فى النص القرآنى الكريم

المقصود بالضمائر ما وضعته من الكلم تحت هذا العنوان فى كتاب اللغة العربية معناها ومبناها من ضمائر الأشخاص والإشارات والموصولات. وذلك ضمن تقسيم جديد للكلم فى اللغة العربية. ولقد قبل النحاة قول ابن مالك فى الألفية:

وما لذى غيبة أو حضور كأنت وهو سم بالضمير

ولو أنصف ابن مالك لأضاف إلى عبارة" أنت وهو" لفظين آخرين أحدهما من الإشارات ليمثل معنى الحضور والأخر من الموصولات ليمثل الغيبة، وبذلك يشمل مصطلح الضمير الأنواع الثلاثة جميعا.

ثم يظل لكل نوع من هذه طرق استعماله وظلال معانيه. وفيما يلى بعض ما يتضمنه استعمال الضمائر بأنواعها الثلاثة من التوسع فى الأسلوب القرآنى:

أولا- ضمائر الأشخاص:

المعروف أن معانى الضمائر معان عامة(لا تدل على شئ مفرد)، ومن ثم يقول النحاة إن من حقها أن تؤدَّى بالحرف، وأن أداءها يعد سببا للبناء للشبه المعنوى بين اللفظ الذى يحمل المعنى العام وبين الحرف. والمعانى التى تحملها الضمائر من ثلاثة أنواع هى:

ا- النوع (التذكير والتأنيث).

ب - العدد(الإفراد والتثنية والجمع).

ج ـ الوضع (التكلم والخطاب والغيبة).

وهذه المعانى مما يتوقف عليه فهم الضمير فى الخطاب، بمعنى أن المتكلم من شأنه أن يراعى هذه المعانى لأن رعايتها شرط من شرط الإفادة. ومن ذلك الأيخاطب المؤنث بضمير المذكر ولا المخاطب بضمير المتكلم .

هذا ما يطلبه نظام اللغة. ولكن رعاية النظام شئ ورعاية التداوليات شئ آخر. من ذلك مثلا مخاطبة الغائب بضمير المخاطب، ويكون ذلك باستحضار الغائب بالتجريد الذهنى لمخاطبته فى أمر يهم المتكلم، وعندئذ يقال: "جرد الشاعر من نفسه شخصا وخاطبه" لأن خطاب التجريد يختلف عن خطاب الحضور.وحين قال امرؤ القيس:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

جرد من نفسه مخاطبين لا مخاطبا واحدا، ولم يكن لهذين المخاطبين حقيقة واقعة وذلك على عكس ما يقول به نظام اللغة من حضور المخاطب أثناء الخطاب.

ومن ذلك أيضا أن اختلاف المواقف الاجتماعية بين المتكلم والمخاطب يسمح، بل يقضى أحيانا فى كثير من الظروف. أن يخاطب المتكلم السامع المفرد الذى هو أعلى منه درجة فى السلم الاجتماعى بضمير الجماعة. فيقول له وهو مفرد: "أهلا بكم وسهلا، وقد شرفتمونا بزيارتكم" . وسيعلم المخاطب عندئذ إنه ليس موضع ترحيب فحسب، بل هو موضع احترام كذلك. والمتكلم الذى هو أعلى قدرا من السامعين يبيح لنفسه أيضا أن يشير إلى شخصه المفرد بضمير الجمع، فيقول: " نحن كذا قررنا ما يلى: ..." . أما فى حال الإشارة إلى الغائب فإن الاحترام يكون بإضافة الصفة الداعية إلى الاحترام إلى الغائب أو ضميره، فيقال: "جلالة الملك" أو "سمو الأمير" أو"سيادة الرئيس" أو"معالى الوزير" أو غير ذلك من صفان التكريم. أو يقال: جلالته وسموه وسيادته ومعاليه ويظل الضمير على حاله.

هنا يمكن أن نتناول أسلوب القرآن الكريم فيما يتصل باستعمال الضمائر، سواء

ما يقوله المتكلم وما يتقبله السامع. فالذين يذكرون الله بضمير الخطاب يقولون: "أنت" بضمير المفرد على عكس ما فى الحياة الاجتماعية الإنسانية، وإن ذكروه فى غير الخطاب فذلك بضمير المفرد" هو" . ومن شواهد ذلك بالنسبة للخطاب:

﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (البقرة٣٢).

﴿ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (البقرة٢٨٦).

﴿ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ﴾ (المائدة ١١٧).

﴿ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ (يوسف١٠١)

ومن شواهد ضمير الغيبة:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ (البقرة٢٩).

﴿ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ﴾ (البقرة١٣٩).

﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (التقرة١٦٣).

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ (أل عمران٢).

لقد رأينا فى هذه الشواهد اطراد الإفراد فى ضميرى الخطاب والغيبة عند ذكر الله تعالى، وذلك تجنبا لظن الوقوع فى التعدد الذى يفهم من ضمير الجمع.فلو خواطب سبحانه بضمير الجمع لكان من الممكن للسامع غير المسلم أن يفهم من الضمير أنه جماعة من المخاطبين، أو يفهم من ضمير ا لغيبة إشارة إلى التعدد أيضا.

هذا فيما يتصل بضميرى الخطاب والغيبة، أما فيما يتصل بضمير التكلم فإن الله سبحانه وتعالى يستعمل ضمير التكلم المفرد حينا وضمير المعظم ذاته حينا أخر، بحسب سياق النص. أما ضمير المتكلم المفرد فيكون استعماله عندما يكون الكلام موجها إلى المقربين أو المعاتبين من عباده كما فى قوله تعالى:

﴿ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ ﴾ (طه١٢ـ ١٣).

﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى ﴾ (طه ١٤).

﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (البقرة ١٦٠).

﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (النمل٩).

﴿ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ﴾ (الممتحنة١).

أما بمناسبة ذكر الالاء والنعم والقدرات الإلهية فإن الله سبحانه يستعمل ضمير الجمع لإعلاء الذات كما نرى فى الشواهد الأبية:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (الحجر٩).

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴾ (الحجر٢٣).

﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ (الإسراء٣١).

﴿ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ (الإسراء٥٨).

﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ﴾ (الكهف١٣).

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ (مريم٤٠).

﴿ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴾ (مريم ٧٠).

﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ (طه ١٠٤ وق ٤٥).

﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ (طه ١٣٢).

﴿ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ (الإسراء ٥٨)

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ (يس ١٢).

﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ (الزخرف ٣٢).

﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ (ق ١٦).

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴾ (ق ٤٣).

﴿ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴾ (الواقعة ٥٧).

﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ ﴾ (الواقعة ٦٠).

﴿ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴾ (الواقعة ٧٣).

﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴾ (الواقعة ٨٥).

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴾ (الإنسان٢٣).

﴿ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴾ (الإنسان ٢٨).

ولعل القرينة النصية الدالة على أن الضمير "نحن" فى الشواهد السابقة لا يدل على متعدد هى قوله تعالى فى سورة طه: ﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى ﴾ (طه ١٤). وقد سبق ذكر هذا الشاهد.

ومما يمكن أن يضاف إلى المعانى العدولية الأسلوبية للضمائر ما يقصد بها من الدلالة على الشأن أو القصة بحيث يصبح الشأن مرجعا متأخرا للضمير، فإذا كان الضمير مذكرا سمى ضمير الشأن وإن كان مؤنثا قيل له ضمير الالقصة. ومن شواهد ذلك:

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ

كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ (الإخلاص ١-٤). فالشأن الذى عاد عليه الضمير هو "الله أحد الله الصمد" أما ما بعد ذلك حتى نهاية السورة فهو كلام مفسر كلمة "الصمد".

﴿ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾ (طه ٧٤).

﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ (الحج ٤٦)

﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (النمل ٩).

فما بعد الضمير فى كل ذلك هو مرجع الضمير.

ثانيًا ـ ضمائر الإشارة:

وقد يشار إلى كلام لاحق بضمير إشارة فلا يكون ثمة فارق بينه وبين ما يسمى ضمير الشأن ومن ذلك ما فى قوله تعالى:

﴿ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ۝ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (آل عمران ٥٩). فمرجع الضمير "ذلك" هو قوله "إن مثل عيسى... الخ".

﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ﴾ (البقرة ٣٧-٣٨). فالكلمات هى "قلنا اهبطوا... الخ".

ويمكن كذلك أن يشار إلى كلام سابق بضمير إشارة يتلوه واو العطف (وذلك شرط فيما نقصد) ومن ذلك قوله تعالى:

﴿ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ..... ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ﴾ (الحج ٢٧-٣٠). ومثله قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾ الحج ٣٢).

فقوله "ذلك" إشارة إلى الشأن السابق فى الكلام، والواو عاطفة على ما يلى. أى

أن من الشأن النحوى ما يكون مرجعا لضمير الإشارة، سبقه ضمير الأشارة أو لحقه.

وكما حمل الضمير الشخصى "نحن" شحنة الاحترام وجدنا بين الضمائر الإشارية ضميرين هما "اولئك" و "هؤلاء". فأما أولئك فيشار به دون نية تكريم أو انتقاص، ولكن استعمال "هؤلاء" فى النص القرآنى يحمل من إرادة الانتقاص قدرا لا يخفى على ذى فهم يكفى أن نقرأ لفظ "هؤلاء" فى الشواهد التالية لنعرف أن المشار إليهم غير محل رضى، وإليك ما يلى من شواهد ذلك:

﴿ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ (البقرة ٣١).

﴿ ثُمَّ أَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تَقۡتُلُونَ أَنفُسَكُمۡ ﴾ (البقرة ٨٥).

﴿ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ ﴾ (آل عمران ٦٦).

﴿ هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ ﴾ آل عمران ١١٩).

﴿ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴾ أى عن الذين كفروا (النساء ٥١).

﴿ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ (النساء ٧٨).

﴿ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾ (النساء ١٠٩).

﴿ مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰٓ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ (النساء ١٤٣).

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡ ﴾ (المائدة ٥٣).

﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ﴾ (الأنعام ٥٣).

﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴾ (الأنعام ٨٩).

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ (يونس ١٨).

﴿ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ (هود ١٨).

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ (هود ٧٨).

﴿ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ﴾ (هود ١٠٩).

﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾ (الحجر ٦٦).

﴿ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴾ (الحجر ٦٨).

﴿ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾ (الحجر ٧١).

﴿ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ (النحل ٨٩).

﴿ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ﴾ (الكهف ١٥).

﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ﴾ (الأنبياء ٤٤).

﴿ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴾ (الأنبياء ٦٥).

﴿ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ (الأنبياء ٩٩).

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ (الفرقان ١٧).

﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ۝ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴾ (الشعراء ٥٤-٥٥).

﴿ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴾ (ص ١٥).

﴿ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ (الزمر ٥١).

﴿ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ (الزخرف ٨٨).

﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ۝ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴾ (الدخان ٣٤-٣٥).

﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ﴾ (محمد ٣٨).

﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴾ (الإنسان ٢٧).

﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ۝ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴾ (المطففين ٣٢-٣٣).

ومن اساليب الإشارة ما اسميه: "الإشارة على الشيوع". وذلك هو الإشارة إلى غير معيّن ومن ذلك أن تقول لسامعك مثلا: إما أن تكون صديقى أو عدوّى، اختر هذه أو تلك". فذلك فى قوة قولك: اختر أيهما شئت، وهكذا تكون الإشارة على الشيوع. وقد جاء فى سورة الإسراء (٦٦-٧٢) شىء من هذا القبيل. وذلك ما نصادفه فى قوله تعالى: ﴿ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ . وإليك ما نفهمه من معنى "هذه" و "الآخرة":

١- يسّر الله للإنسان طلب الرزق فى البحر. الله تعالى ينقذ الإنسان من أخطار البحر.

٢- غير أن فى ركوب البحر خطرا. ولكن الإنسان يعرض عن شكر الله.

الله قادر على إعادة الإنسان إلى خطر البحر

وقادر على عقابه فى البر أيضا.

سيحاسب الله عباده يوم القيامة.

فمن حسن عمله نجا، ومن ساء عمله فى أى من هاتين البيئتين بالإعراض عن شكر النعمة فلن ينفعه الشكر للنعمة الأخرى. وهكذا تصلح "هذه" للإشارة إلى اى واحد من المرجعين دون تعيين. وقديما أشار زوج الاثنتين إليهما إشاره على الشيوع حين قال:

تزوجت اثنتين لفرط جهلى　　بما يشقى به زوج اثنتين

لهذى ليلة ولتلك أخرى　　عذاب دائم فى الليلتين

هذه = إحداهما (بلا تحديد).　　تلك = الأخرى (بلا تحديد).

ونفى التحديد فى الحالتين هو المقصود بمفهوم الشيوع.

ثالثا: ضمائر الغيبة:

سبق أن ذكرنا معنى الغيبة فى الكلام عن اتخاذ فكرة ضمير الشأن فى مقدمة للكلام عن دلالة ضمائر الإشارة على ما يسبقها وما يليها، وعددنا هنا صورة أخرى لضمير الشأن. وذلك أن نتناول وسيلة أخرى للدلالة على الغيبة بواسطة ما تكنه "ال" الدالة على الجنس وكذا الدالة على العهد. ولست أريد الكلام هنا عن مطلق الجنس، لأن دلالة "ال" على مطلق الجنس لا تضيف إلى المعنى ظلا مهما. ولكننى أشير إلى نوع من الجنس أسميه: "الجنس النسبى"، لأن مدلول هذه التسمية لا يستقل بالوجود؛ وإنما يوجد منسوبا إلى مفهوم آخر. ففى قوله تعالى: ﴿ **وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ** ﴾ (النازعات ٧٩) دل لفظ "النفس" على صاحب النفس، لأن لكل حى نفسا تنسب إليه ويتنسب إليها. ولذلك كانت النفس دالة على جنس من

الأجناس لا يستقل بوجود خاص. ومن ثم كان من قبيل الجنس النسبى الذى يدل على ما نسب إليه. ومنه:

﴿ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ ﴾ (الأحزاب ١٠)

﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ (الرعد ٢٨).

﴿ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾ (الأنفال ١١).

﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ﴾ (النجم ٢٣).

فالقلوب والحناجر والأقدام والظن والأنفس كل أولئك يفهم بالنسبة إلى ذويه، ومن ثم سميت هذا الجنس بالجنس النسبى.

وتبقى بعد ذلك "ال" الدالة على العهد. ولقد سبق بيان معنى العهد بأنه "المعرفة السابقة". وقد يكون السبق سبقا للذكر كما مضى نحو: ﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾ (يوسف ٥٨)، وقد يكون سبقا لمجرد المعرفة الذهنية كما فى قوله تعالى" ﴿ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ (الأحزاب ٦). ومع أن ذاكرة العهد قد ترتبط بسبق الذكر فتكون "ال" بمعنى "المذكور" أو بسبق المعرفة العامة فتكون بمعنى "المعهود"، فإن فكرة الحضور بالنسبة لهذه الذاكرة أضعف من أن تقاوم فكرة السبق. وبذلك أرى أن المعهود بواسطة "ال" يعد أقرب إلى ضمائر الغيبة منه إلى ضمائر الحضور.

والمعروف أن "ما" و"الذى" من الموصولات. وأن الموصولات من ضمائر الغيبة ولكن الضمائر (كما رأينا فى "أذ" منذ قليل) يمكن أن تتحوّل إلى معان أخرى كما فى قوله سبحانه: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾ (آل عمران ٨). وهكذا نجد "ما" أداة مصدرية فى قوله جل شأنه: ﴿ وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ ﴾ (آل عمران ١١٨) أى عنتكم.

ونجد "الذى" وهى ضمير موصول تعاقب "ما" المصدرية فتقع موقعها فى قوله

سبحانه: ﴿ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ ﴾ (التوبة ٦٩) أى كخوضهم. وفى قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾ (الأنعام ١٥٤). أى تماما على إحسانه.

والدليل على إرادة المصدرية فى الحالتين ما نقرؤه فى قوله تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا ﴾ (الأعراف ١٤٥). إذ نجد فى مقابلة النصوص الثلاثة ما يلى:

تماما	يقابلها	من كل شىء
تفصيلا	يقابلها	تفصيلا
الذى أحسن	يقابلها	بأحسنها.

أضف إلى ذلك أن الفرق بين "ما" الموصولة وبين أختها المصدرية أن الاولى يعود عليها الضمير الرابط ولا يعود على الثانية. ومع وجود تقدير الضمير بعد "خاضوا" وبعد "أحسن" نجد الضمير الذكور بعد "خاضوا" يعود على الخائضين، والضمير المفهوم فى "تماما على إحسانه" يعود على المحسن.

شواهد قرآنية على دلالة قرينة السياق

المقصود بالسياق التوالى، ومن ثم يمكن أن ننظر إليه من زاويتين: أولاهما توالى العناصر التى يتحقق بها السياق الكلامى، وفى هذه الحالة نسمى السياق "سياق النص". والثانية توالى الأحداث التى هى عناصر الموقف الذى جرى فيه الكلام، وعندئذ نسمى السياق "سياق الموقف". وهناك علاقة طابعها العموم والخصوص بين مصطلحين هما: "دلالة السياق" و "قرينة السياق". فالمستفاد من النص فى جميع حالات الإفادة هو "دلالة السياق" سواء كانت هذه الدلالة (كما يقول الأصوليون فى كلامهم عن دلالة المفردات) بواسطة العبارة أم كانت بواسطة الإشارة أو الإيماء أو الاقتضاء. والدلالة فيما عدا العبارة دلالة على معنى مضاف يلزم عن العبارة أى عن الكلام نفسه. وفى هذه الحالة يدل السياق بالإشارة أو الإيماء أو الاقتضاء على معنى لم يرد عنه فى النص تعبير صريح. وعندئذ يكون السياق قرينة على هذا المعنى. وهكذا يكون المقصود بقرينة السياق أخص من المقصود بدلالة السياق. ويمكن إذن أن نوجز الأمر على النحو التالى:

بهذا نرى أن سياق النص إما أن يكون قرينة تركيبية (نحوية أو معجمية) أو دلالية (قوامها العلاقات النصية). أما سياق الموقف فإما أن يكون ذا دلالة واقعية أو ذهنية، فالواقعية مبناها على العرف أو أحداث التاريخ أو مواقع الجغرافيا أو العلاقات العملية فى إطار الموقف الذى وقع فيه الكلام. أما الذهنية فإنها تنشأ عن تداعى المعانى بحيث يثير بعضها بعضا فى تسلسل منطقى (طبيعى لا صورى).

دعنا إذن نلق نظرة على أنواع قرينة السياق واحدا بعد الآخر:

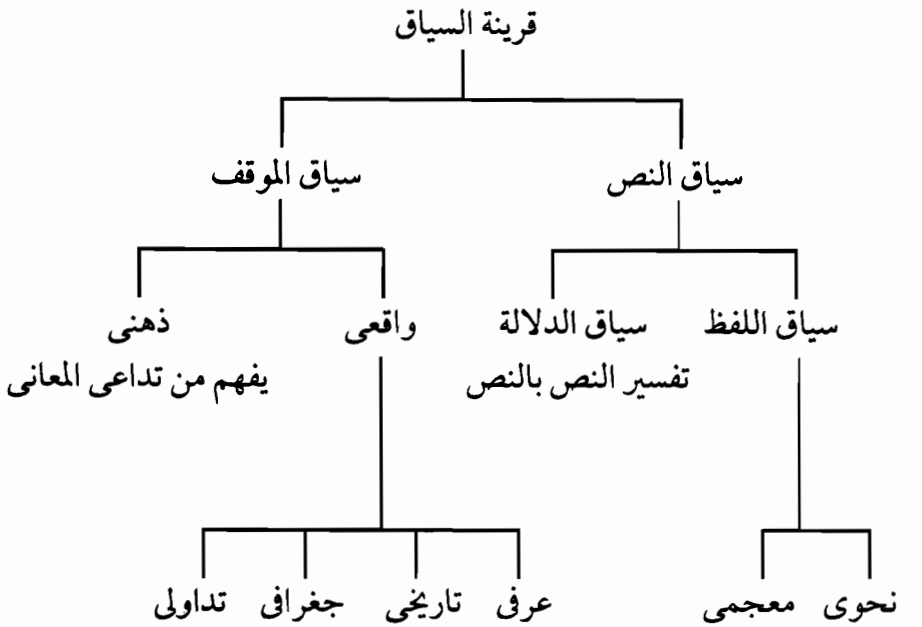

أولاً ـ قرينة العلاقة النحوية:

١ ـ يقول الله تعالى: ﴿ طه ۝ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾ (طه ١ ـ ٣) . المعروف أن "إلا" تأتى لمعنى الاستثناء، ولكن السياق هنا لم يشتمل على مستثنى منه وإنما جعل بين ما سبق "إلا" ما لحقها علاقة استدراك، فكان حتما فى هذه الحالة أن نفهم من "إلا" معنى "لكن"، وذلك بقرينة السياق (سياق النص).

٢ ـ ويقول تعالى: ﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ (يس ٣٢) دخلت "إنْ" على الاسم ولم يأت بعدها ما يصلح للشرط، فبقى لها إما أن تكون مخففة من الثقيلة لاقترانها باللام فى "لما" وزيادة "ما" بعد اللام، فيكون المعنى: "وإنّ كلا منهم لمحضرون جميعا"، وإما أ، تكون "إن" للنفى و "لّما" بمعنى "إلا". ثم إنه لما كانت الحروف ينوب بعضها عن بعض كان تقدير النيابة عن "إلا" أخف وقعا من تقدير

زيادة "ما". وبهذا يصبح المعنى: "وما كل إلا جميع لدينا محضرون" وذلك بقرينة السياق. أما تقدير الزيادة فهو يصلح لقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ (هود ١١١) وفى هذا الموضع الأخير يكون تكرار اللام للتأكيد، فهو شبيه بتكرار حرف النداء فى قول الشاعر:

"ألا يا اسلمى يا دار مى على البلى"

٣ ـ قال الشاعر:

"أنا ابن أباة الضيم من آل مالك وإن مالك كانت كرام المعادن"

فلو جعلنا "إن" فى قوله "وإن مالك" نافية لأوقعنا الشاعر فى التناقض، لأنه يكون قد مدح قومه بالإثبات فى الشطر الأول ثم هجاهم بالنفى فى الشطر الثانى، فكأنه يقول: إن قومه أباة الضيم وليسوا كرام المعادن. فلم يبق إذن إلا أن تكون "إنْ" مخففة من الثقيلة ليستقيم السياق.

٤ ـ هناك باب فى النحو يسمى: "الإخبار بالذى والألف واللام". والملاحظ فى تراكيب هذا الباب أن الخبر قد يقترن بالفاء إذا تحققت له شروط اقتران جواب الشرط بالفاء، ولا يقترن بها إذا لم تتحقق هذه الشروط. انظر إلى الفرق بين قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (البقرة ٢٦٢).

وقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (البقرة ٢٧٤).

فالفرق بين خبر "الذين" فى الحالتين أنه لم يقترن بالفاء فى الحالة الأولى لأن الآية نزلت فى عثمان بن عفان إذ جاء بألف دينار لإنفاقها على جيش العسرة فصبها فى حجر النبى صلى الله عليه وسلم. فهذا عمل وقع فعلاً فلا مجال فيه لمعنى الشرط، ومن ثم لم تكن بيئة الخبر هنا شبيهة ببيئة جواب الشرط، فلم يقترن الخبر بالفاء. أما

فى الآية الثانية فإن سبب النزول هو الحض على علف خيل الجهاد فمعنى الشرط واضح فيه لأن من أنفق فله أجره عند ربه.

ومغزى هذا أن "الذين" هى أخت "من" و "و" أى "اللاتى ينتقلن من الموصولية إلى استعمال الشرط فيكون لهن شرط وجواب. ولكن "الذين" لا تنتقل إلى استعمال الشرط وإن أشربت معناه أحيانا. فحين يتم إشرابها معنى الشرط كما فى الآية الثانية يقترن خبرها بالفاء بالشروط التى تصدق على جواب الشرط. أما إذا لم تشرب معنى الشرط كما فى الآية الأولى فلا مجال لإلحاق الفاء بخبرها. وهكذا تكون الفاء قرينة على إرادة معنى الشرط فى الجملة الخبرية فى هذا النوع من الجمل.

ثانياً ـ العلاقات المعجمية:

لا يتحقق المعنى بواسطة العلاقات النحوية فقط. فقد يستوفى التركيب كل الشروط النحوية فيصبح صالحاً للإعراب ولكنه مع ذلك يكون صفرا من المعنى. انظر إلى عبارة مثل "تألم الحجر فسلم على البرهان". إذ يمكن أن نعرب هذه العبارة فيكون إعرابها بيانا للعلاقات النحوية بين مفرداتها، حتى إذا حاولنا أن نفهم معناها لم نجد لها معنى يفهم. والسبب فى خلو الجملة من المعنى أن بين مفرداتها مفارقة معجمية، لأن الحجر لا يتألم ولا ينطق فيسلم وليس البرهان ممن تلقى إليه التحية. فلقد أسند الفعلان كما يقول البلاغيون إلى غير من هما له. ومعنى هذا أن العلاقات المعجمية تؤدى دور القرينة على المعنى فى الكثير من الحالات. وإليك البيان:

١ ـ فى قوله تعالى: ﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ (الأعراف ٢٦) تبرز المفارقة المعجمية فى "لباس التقوى"، لأن التقوى لا لباس لها. ومن ثم يصبح المعنى معلقا بالكشف على علاقة معجمية مقبولة بين اللفظين. فإذا بحثنا عن معنى مقبول يمكن أن نفهم منه الإضافة التى بينهما وجدنا أن لفظ "لباس" لا يطلق على الملابس فقط، وإنما يكون مصدرا للفعل "لابس ـ يلابس ـ لباسا ـ وملابسة" أى "خالط". فإذا ربطنا بين اللفظين بواسطة هذا المعنى استقام الفهم. ومنه قوله تعالى: ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ

﴿لَكُمْ﴾ (البقرة ١٨٧)، وكذلك ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ (النبأ ١٠) وقوله تعالى: ﴿فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾ (النحل ١١٢) أى ملابستهما.

٢ ـ قال تعالى: ﴿ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ﴾ (الأنعام ٩٩) بين الشجر الذى يعود إليه الضمير فى "ثمرة" وبين مفهوم الينع الذى فى لفظ "ينعه" مفارقة، فلا يقال: "شجرة يانعة" ولكن هناك مناسبة معجمية بين الثمر والينع إذ يمكن أن يقال: "ثمرة يانعة". وهذه المناسبة أو العلاقة المعجمية تبرر إعادة الضمير إلى الثمر دون الشجر.

٣ ـ قال تعالى: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (ص ٣٩). يتحتم تعليق الجار والمجرور "بغير حساب" فى هذه الآية بالمصدر "عطاؤنا" لأن الله سبحانه يعطى بغير حساب. ولا يعقل أن يقال: "أمسك بغير حساب" لما فى ذلك من مفارقة معجمية. وبذلك تكون عبارة "فامنن أو أمسك" على سبيل الاعتراض.

٤ ـ قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ (الكوثر ١). وفى "الكوثر الأصول الثلاثة: الكاف والثاء والراء، فهى ثلاثية الأصل أضيف إليها الواو لإلحاقها بالرباعى. فالمعنى "إنا أعطيناك الكثير". قال الشاعر:

وأنت كثير يا ابن مروان طيب وكان أبوك ابن العقائل كوثرا

فالإلحاق فى هذا اللفظ للمبالغة والتأكيد. وحتى لو نظرنا إلى أن الكوثر نهر فى الجنة فإن اسم هذا النهر إنما جاء للدلالة على سعته وغزارة مائه، لأن الإلحاق كما ذكرنا يحمل جرثومة المبالغة.

ثالثاً ـ الجانب الدلالى:

قد يشتمل النص على قرينة تحدد معنى فيه لولاها لكان ملبسا وقد تقوم علاقة التناص بين نصين أو أكثر فيفسر أحدهما الآخر كما قال المفسرون من أن "القرآن يفسر بعضه بعضاً". فمن النوع الأول ما يلى:

١ ـ قال تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ (الأنعام ١)

وقال جل شأنه: ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾ (الأعراف ١٨١) فحين أسند الفعل "يعدلون" فى الآية الأولى إلى ضمير الذين كفروا وتعلق به الجار والمجرور "بربهم" فهم منه أنهم يجعلون لله عديلاً غيره، وحين أسند الفعل فى الآية الثانية إلى أمة يهدون بالحق فهم من لفظ "الحق" معنى "القسطاس". هذا على رغم مجئ الفعل فى الحالتين على صورة واحدة، غير أن كلا من النصين اشتمل على ما يحدد معناه.

٢ ـ ثمة أنواع من الاستفهام يميز بينها سياق النص:

فهناك استفهام على بابه يقصد به معرفة أمر مجهول كما فى قول قوم إبراهيم: ﴿ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (الأنبياء ٥٩). ولهذا جاء الجواب كشفا عن حقيقة لم تكن معلومة إذ قال من اتجه السؤال إليه: ﴿ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴾ (الأنبياء ٦٠) فإذا فهم السامع أن الاستفهام على بابه بادر بالإجابة. ولهذا كان الفزع طابع إجابة عيسى عليه السلام حين سأله ربه: ﴿ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ (المائدة١١٦) إذ أجاب بجمل منفصلة ليس بينها حرف عطف لتكون كل جملة إجابة قائمة بذاتها فتتعدد الإجابات طلبا للإقناع. فقد أجاب عيسى ربه بقوله: ﴿ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ ﴾ (المائدة ١١٦).

وقد يكون الاستفهام تقريرا بأن يشتمل بتركيب الجملة الاستفهامية على حرف النفى فتؤول بجملة مثبتة يغلب أن تتصدرها اللام وقد أو الفعل "ينبغى" مثل: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾ (الضحى ٦ ـ ٧) أى لقد وجدك، ومثل ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ﴾ (المائدة ٧٤) أى ينبغى لهم أن يتوبوا ويستغفروا.

وقد يكون الاستفهام إنكاريا لا يشتمل تركيب الجملة فيه على حرف النفى ولكنه يؤول بجملة منفية، مثل: ﴿ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ (طه ٨٣) أى ما كان ينبغى أن تعجل. وهذه الآية هى التى دعت إلى إيراد ما سبقها من تقدير. والسبب أن اثنين من أئمة المفسرين لم يشيرا إلى معنى الإنكار فى هذه الآية، ولكن الدليل على هذا المعنى يأتى من النص نفسه كما يلى:

أ ـ اعتذار موسى عليه السلام عن العجلة بقوله: "وعجلت إليك رب لترضى*" ولو كان السؤال على بابه لكفى للإجابة عنه أن يقول: "هم أولاء على أثرى".

ب ـ أن الإنكار إنما جاء بسبب ما حدث من ترك موسى لقومه عرضة للفتنة بدليل قوله تعالى: "فإنا قد فتنا قومك من بعدل وأضلهم السامرى" أى بلوناهم وأضلهم السامرى. فالفتنة هنا بمعنى الابتلاء كما فى "ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى" وكذلك "وظن داود أنما فتناه" أى أننا ابتليناه وهديناه إلى الخطأ.

ج ـ رجوع موسى بعد هذا الإنكار إلى قومه غضبان أسفا، فإيراد هذين الوصفين دليل على تعدد مصادر الألم؛ فالغضب منصب على قومه والأسف لما كان من إنكار ربه عليه أن يعجل وفى ذلك مزيج من الحزن والألم.

٣ ـ قال تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾ (هود ٢٤). تكررت واو العطف ثلاث مرات فى الآية فبدا التركيب فى السمع كأنما يتكلم عن أربعة أفراد هم الأعمى والأصم والبصير والسميع. وعندما يدرك السامع أن فى الكلام علامة التثنية فى "الفريقين" وضمير المثنى فى "يستويان". يدرك أن الكلام يتناول شخصين أحدهما أعمى أصم والآخر بصير سميع. أى أن العطف كان للصفات لا للأفراد.

٤ ـ قال تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (آل عمران ١٨). فلولا قوله : "قائما بالقسط "على الإفراد وقوله: "لا إله إلا هو" فى آخر الآية لسمح التركيب بصورته

هذه بعطف "الملائكة" على الضمير "هو" (تعالى الله عن ذلك) لا على اسم الجلالة. وهكذا يكون الملائكة وأولو العلم قد شهدوا مع الله أنه لا إله إلا هو.

٥ ـ قال تعالى: ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴾ (النساء ١٠٣). يصلح القيام والقعود للمصدرية كما يصلحان لجمع قائم وقاعد، ويعربان فى هذه الآية حالا على كلا الاحتمالين. ولكننا عند قراءة قوله: "وعلى جنوبكم" نفهم فورا أن المراد معنى الجمع، أى اذكروه قائمين وقاعدين ومضطجعين ولو كان المعنى على المصدرية لقال: واضطجاعا.

٦ ـ قال تعالى: ﴿ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ (يس ٣٥). تصلح ما من قوله: "وما عملته" للمصدرية فيكون المعنى "والذى عملته أيديهم". وتصلح للنفى فيكون المعنى "ولم تعمله أيديهم". ولكن الحض على الشكر فى ختام الآية يجعل المعنى على النفى، لأن من يأكل شيئاً لم يعمله بيده أحق بأن يتقدم بالشكر لمن أطعمه ممن صنع طعامه بنفسه. أضف إلى ذلك أن ما فى سورة النمل من قوله تعالى: ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ﴾ (النمل ٦٠). فالله سبحانه يمن على عباده أن أنبت لهم حدائق ما كانوا يستطيعون إنباتها مما يوجد نوعا من التناص بين الآيتين ويحكم بمعنى النفى للفظ "ما" فى آية يس.

معنى التعليق:

١ ـ قال تعالى: ﴿ وَٱلْأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَـٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ (النحل ٥ ـ ٦).

عند قراءة هذه الآية يسأل المرء نفسه أين يقف أثناء القراءة فى الجملة الأولى. هل يقف على لفظ "خلقها" أو على الجار والمجرور "لكم"؟ ففى الحالة الأولى تكون الجملة التالية "لكم فيها دفء"، أمّا فى الحلة الثانية فإن الجملة التالية تكون "فيها دفء". فإذا استمر المرء فى القراءة صادف جملة بعد ذلك مباشرة تشبه بنية الجملة فى

حالة الوقف الأول مثل: "ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون". عندئذ يدرك القارئ بواسطة اتساق المعنى أن هذه الآيات تقرأ على الصورة التالية: "والأنعام خلقها ـ لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ـ ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون". ويصبح المعنى بذلك أن الله خلق الأنعام ليكون لنا فيها دفء ومنافع ومأكل وجمال.

٢ ـ قال تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ﴾ (الكهف ٥٨). عند النظر فى هذه الآية نجد بها مبتدأ هو "ربك" ونجد الخبر يخضع لثلاثة احتمالات:

أولها "الغفور" وبعده وصف الخبر بالرحمة ثم جملة مستأنفة هى "لو يؤاخذهم...الخ"

والثانى أن يكون "الغفور" صفة للمبتدأ ويكون الخبر "ذو الرحمة" وبعده جملة مستأنفة.

والثالث أن يكون "الغفور" و "ذو الرحمة" نعتين للمبتدأ ويكون الخبر هو "لو يؤاخذهم...الخ". والذى يؤيد هذا المعنى الأخير هو اتساقه مع الآية التى تسبق ذلك مباشرة والتى فيها ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴾ (الكهف ٥٧).

٣ ـ قال تعالى: ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴾ (يوسف ٢٦ ـ ٢٩). رأى القرطبى أن المقصود بالعزيز هو الملك وأن الشاهد الذى هو من أهلها فيه أربعة أقوال: أحدها أنه طفل فى المهد تكلم، والثانى أن القميص قد بما فيه من لسان الحال (ويمنعه قوله: "من أهلها")، والثالث أنه خلق من خلق الله تعالى ليس بإنسى ولا

جنى (ويمنعه أيضا قوله: "من أهلها")، والرابع أنه رجل حكيم ذو عقل يستشيره فى أموره وكان من جملة أهل المرأة وكان مع زوجها. والقرطبى بعد ذلك كلام طويل لا يخرج عن هذا الإطار. ولا يخرج كلام صاحب البحر المحيط عن ذلك. ولنا أن نلاحظ الأمور الآتية:

أ ـ قوله تعالى: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾ (يوسف ٢٥).

ب ـ نداء الرجل موجها إلى يوسف: "يوسف أعرض عن هذا" أى لا تذكر للناس شيئاً عن ما حدث.

ج ـ مطالبة المرأة بالاستغفار عن ما حدث.

د ـ أن الزوج لم يكن هو الملك، لأن حديث يوسف إلى الملك يأتى بعد ذلك بقليل ولأن الملك لم يكن يعرف يوسف حتى كلمة ثم "قال إنك اليوم لدينا لمكين أمين".

هـ ـ أكبر احتمال أن منصب العزيز كان يساوى بالمقاييس الحاضرة كبير الشرطة أو وزير الداخلية. فكان له قدرة على استخراج النتائج من القرائن. ـ وله قدرة على عقاب يوسف.

بناء على ما تقدم يمكن القول إن الشاهد لم يكن غير العزيز نفسه. فحين لحق يوسف بالبال وفتحه "ألفيا سيدها لدى الباب" فلما نظر العزيز إلى دلائل الانفعال فى حالتى يوسف والمرأة سأل عن السبب فتضاربت أمامه الأقوال فلم يكن لديه بد من أن يتولى فهم الموقف بنفسه، فدار فى نفسه الكلام الذى نسبته الآية إلى الشاهد. ولّما تبين له الأمر أمر يوسف بكتمان القصة وأمرها بالاستغفار. وما كان لطفل فى المهد ولا لخلق من خلق الله ليس بإنسى ولا جنى ولا لحكيم أن يقول لامرأة فى محضر زوجها: "إنك كنت من الخاطئين". فالشاهد الذى هو من أهلها لم يكن غير زوجها.

٤ ـ قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ﴾

(يوسف ٣٥). ما السبب فى هذا البداء بعد أن رأوا آيات براءته؟ لم يقل أحد من المفسرين شيئاً عن سبب ذلك.

غير أننا نذكر أن العزيز طلب من يوسف أن يكتم خبر المراودة وأن يعرض عن ذكره لأى أحد. ولكن الخبر شاع فى المدينة ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ (يوسف ٣٠)، فوقر فى نفس العزيز أن يوسف لم ينفذ وصيته بالكتمان. وهكذا رأى أن يتدخل فى المسألة بإلقاء اللوم على يوسف سترا لنفسه ولأهل بيته، ورأى أن إلقاء اللوم على يوسف بإدخاله السجن سيقنع الناس بأن يوسف هو المذنب. ومن ثم أرسل به إلى السجن وهو برىء، وأعانه على ذلك منصبه فى السلطة.

٥ ـ قال تعالى: ﴿ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ﴾ (يوسف ٦٧). يقول القرطبى: "لما عزموا على الخروج خشى عليهم العين فأمرهم ألا يدخلوا مصر من باب واحد وكانت مصر لها أربعة أبواب. وإنما خاف عليهم العين لكونهم أحد عشر رجلاً لرجل واحد. وذلك ما قاله أيضا صاحب البحر المحيط. ولكن أنّى للعين أن تصيب جماعة من البدو خرجت بهم الحاجة إلى الطعام من مضاربهم إلى بلد فيه سمات الغنى والحضارة وفيه الميرة والطعام، وكيف يعرف الناس أن هؤلاء إخوة من رجل واحد؟ لقد قال يعقوب لأبنائه قبل ذلك بقليل: "لتأتننى به إلا أن يحاط بكم" أى أنه كان يخشى عليهم أن يؤخذوا بعد أن عوملوا معاملة قاسية فى المرة السابقة باتهامهم بالسرقة، فكان تدبيره أنهم إذا كانوا مجتمعين فأصابهم ضرر أصابهم جميعاً، أما إذا تفرقوا فدخلوا من أبواب متفرقة فإن أحيط بالبعض نجا البعض الآخر. أضف إلى ذلك أن ما ساوره من الشك فى عودتهم سالمين علمه بأن يوسف (الذى لا يعرف من يكون)، أصر على إحضار أخيهم قائلا لهم: ﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴾ (يوسف ٦٠).

رابعاً ـ السياق الواقعى:

أقصد بالسياق الواقعى اعتماد الفهم على العرف السائد أو على التاريخ أو على الجغرافيا أو على العلاقات السائدة بين عناصر الموقف الذى تم فيه الكلام. وسنحاول فيما يلى أن نكشف عن كل من هذه الملابسات ونبدأ بقرينة العرف.

أولاً ـ العرف:

١ ـ حين نقرأ قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ (النور ٣٣) نحتاج إلى معرفة عادات بعض السادة من العرب لئلا نظن أن المقصود بالفتيات بناتهم مِنْ أصلابهم. فلقد كان مما يستسيغه بعض السادة كعبد الله بن أبى أن يكره جواريه على التكسب بالبغاء ليحصل هو على هذا الكسب، وعلى ما يكون نتيجة للزنى من ولد. وكانت له جاريتان يرغمهما على ذلك فشكتاه إلى النبى صلى الله عليه وسلم، فكان ذلك من أسباب نزول الآية. كما أن المشهور من نتائج هذا العرف أن زياد بن أبيه نسب إلى أبى سفيان فى عهد معاوية لينتصر به معاوية على علىّ بن أبى طالب، وأن عمرو بن العاص ألحق بأبيه عن طريق القيافة فيما يروى.

٢ ـ وحين نقرأ قوله تعالى: ﴿ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ (الأحزاب ٣٣) نلتمس ما يدلنا على تبرج الجاهلية الأولى وكيف كان، فإذا رجعنا إلى القرطبى وجدناه يروى عن ابن عطية ما يأتى: "والذى يظهر عندى أنه أشار للجاهلية التى لحقنها (أى نساء النبى) فأمرن بالنقلة عن سيرتهن فيها وهى ما كان قبل الشرع من سيرة الكفرة؛ لأنهم كانوا لا غيرة عندهم؛ وكان أمر النساء دون حجاب. وجعلها أولى بالنسبة إلى ما كان عليه وليس المعنى أن ثم جاهلية أخرى". بهذا نعلم أن الجاهلية الأولى ليست جاهلية عاد وثمود أو غيرهما.

٣ ـ وقوله تعالى: ﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ﴾ (المائدة

١٠٣) إشارة إلى نوع من الأنعام كان يهمل فلا ينتفع به رعاية لتعظيم الأصنام فيما يزعمون. فالبحيرة لا تحلب إلا للطواغيت، والسائبة التى ولدت عشر إناث متواليات ليس بينهم ذكر، والوصيلة من الغنم إذا ولدت أنثى بعد أنثى سيبوها، والحام فحل الإبل إذا انقضى ضرابه جعلوا عليه ريش الطواويس وسيبوه.

- وفى قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ﴾ (الأنفال ٣٥) أشارة إلى عادات الجاهلية. يروى القرطبى عن ابن عباس أن قريشا كانت تطوف بالبيت عراة يصفقون ويصفرون فكان ذلك عبادة فى ظنهم. بهذا ندرك أن العرف جزء من سياق الموقف وبالتالى قرينة على معنى السياق.

ثانياً - التاريخ:

أما قرينة التاريخ فإنها يعتمد عليها فهم النص عندما يفتقر هذا الفهم إلى الإلمام بأحداث بعينها وقعت فى الفترة التى يشير إليها النص. فإذا نظرنا مثلا إلى بعض آيات سورة التوبة التى تشير إلى طوائف من الناس دون أن تحدد أسماءهم ثم قرأنا أسماء هؤلاء فى كتب السيرة النبوية عرفنا قيمة العلم بالحدث التاريخى فى فهم النص. دعنا ننظر مثلا فى نصوص الآيات التالية من سورة التوبة:

١ - ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ (٤٣).

٢ - ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّى ﴾ (٤٩).

٣ - ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ (٥٨).

٤ - ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ﴾ (٦١).

٥ - ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ (٦٤).

٦ ـ ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ﴾ (٧٤).

٧ ـ ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ (٧٥).

٨ ـ ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ ﴾ (٨١).

٩ ـ ﴿ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ (٩٠).

١٠ ـ ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ﴾ (١٠١).

١١ ـ ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ (١٠٢).

١٢ ـ ﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ (١٠٦).

١٣ ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ﴾ (١٠٧).

١٤ ـ ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ﴾ (١٢٧).

فهذه الآيات كلها تحمل إشارات عامة إلى طوائف من الناس إمّا بواسطة الضمائر أو الصفات ثم يعتمد فهم هذه الإشارات العامة على معرفة الوقائع التى تشير إليها الآيات بالتفصيل من كتب السيرة والتفاسير. أما بدون ذلك فستظل النصوص غامضة الدلالة. ومن الآيات ذات القرينة التاريخية أيضاً:

ـ ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴾ (الفيل ١).

ـ ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ (آل عمران ١١).

ـ ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ (المسد ١).

ـ ﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ (النمل ٢٢).

ثالثاً ـ الجغرافيا:

وهى تقترن عادة بحدث تاريخى ولها أمثلة كثيرة فى آيات القرآن الكريم. ومن ذلك ما يلى:

١ ـ يقول الله تعالى: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا ﴾ (القصص ٢٣ ـ ٢٩).

يؤخذ من هذه الآيات ما يشير إشارة تلزم عنها إلى مواقع جغرافية وقعت فيها الأحداث. ومن ذلك ما يلى:

أ ـ يؤخذ من قوله تعالى: "فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا" مع افتراض أن موسى لابد أن يسير فى اتجاه يباعد بينه وبين فرعون أن اتجاهه كان إلى الشرق.

ب ـ فإذا كان الطور شرقى ماء مدين فلابد من أن يكون ماء مدين فى نقطة ما بين وادى النيل وجبل الطور. (فى شبه جزيرة سيناء مثلاً لأن التخوم الصحراوية الشرقية الواقعة بين وادى النيل وخليج السويس لم تكن مأهولة بالبدو أيام الفراعنة).

ج ـ على الجانب الشرقى لخليج السويس فى طريق الذاهب إلى الطور موضع فيه عدد من الآبار يعرف الآن باسم: عيون موسى. وأكبر الظن أنه هو المقصود بماء مدين وأنه أخذ هذا الاسم من هذه القصة.

٢ ـ قال تعالى: ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ﴾ (الصافات ١٣٧) والمقصود بالضمير من "عليهم" قوم لوط أى قريتهم التى دمرت فأصبح عاليها سافلها. والمعروف أن هذه القرية كانت فى مكان ما من صحراء الشام قريبة من بصرى على طريق رحلة الصيف لأن هذه الرحلة كانت إلى الشام كما كانت رحلة الشتاء إلى اليمن. وإذا كان السير فى وقت الظهيرة فى الصحراء شاقاً فإن السير يكون فى وقت الصباح لا وقت الظهيرة. وفى ذلك إشارة إلى أن هذه الرواية كانت لموقع فى الصحراء.

٣ ـ قال تعالى ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴾ (الشعراء ١٤٩). إن كل من يعرف شيئاً عن مدائن صالح فى شمال الساحل الغربى للمملكة العربية السعودية لابد أن يفهم ما تقصه الآيات عن رسالة صالح إلى ثمود، ويتصور كيف بنى هؤلاء الناس من الجبال بيوتاً. فالموقع الجغرافى بما فيه عون على فهم مجرى السياق.

٤ ـ قال تعالى: ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (الزخرف ٥١). المعروف أن فى مصر نهر النيل. ومن عرف أن مصر بها نهر واحد هو نهر النيل وقرأ كلمة "الأنهار" قد يتساءل عن استعمال لفظ الجمع. فإذا عرف أن للنيل دلتا كانت قديما ذات عدد من الأفرع، وأضاف إلى ذلك فرعا من النهر كان يتجه إلى القلزم (السويس) عرف السر فى استعمال فرعون لصيغة الجمع.

رابعاً ـ التداولية:

المقصود بالتداولية دلالة عناصر الموقف الذى حدث فيه الكلام، من متكلم وسامع ونص ما قيل ومن أثر تركه فى بيئة الاتصال ونحو ذلك. كل اولئك يعين

على فهم دلالة النص ويتحتم الاعتداد به عند محاولة فهم ما قيل. ذلك بأن تركيب اللغة تسمح أحياناً باللبس؛ بمعنى أن عبارة مثل "ما هذا" قد يفهم منها الاستفهام على بابه كما يفهم منها الإنكار، وقد نتردد عند سماع عبارة "زيارة الأصدقاء تسعد النفس" قبل فهم من الزائر ومن المزور. فإذا كان النطق بالعبارة مصحوباً بسماع نغمة الكلام فى الحالة الأولى وبرؤية الزائر فى الحالة الثانية زال اللبس وحدث الفهم. وسماع ورؤية الزائر هما ذواتا طابع تداولى.

العلاقة الذهنية:

المقصود بالعلاقة الذهنية ما يدعو الذهن إلى صرف المعنى عن ظاهر النص إلى فهم آخر لولاه لتعذر قبول النص لما يترتب على الظاهر من مفارقة عقلية. وفيما يلى شواهد على ذلك:

١ ـ قال تعالى: ﴿ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران١٠٢). ظاهر النص نهى عن الموت إلا فى حالة خاصة، ولكن الموت والحياة بيد الله ولا خيار لامرئ فيهما فينهى عن أحدهما. وما دام الأمر كذلك فإن ظاهر النص يستعصى على القبول العقلى. ومن هنا يبدأ العقل عمله فى التوفيق بين الظاهر والقصد فينتهى الأمر إلى أن المقصود ليس هو النهى عن الموت وإنما هو التمسك بالإسلام حتى الموت.

٢ ـ قال تعالى: ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴾ (آل عمران ١٩٨). ليس فى النحو ما يمنع أن تكون "ما" فى هذا الشاهد نافية. ولكن ذلك يمتنع بقرينتين إحداهما دلالية هى ما سبق ذلك من قوله تعالى: ﴿ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ (آل عمران ١٩٨). فالذى عند الله من الرضوان خير من هذه الجنات. والقرينة الثانية ذهنية؛ إذ لا يعقل أن يحجب الله الخير عن الأبرار من عباده ويحول دون وصوله إليهم.

٣ ـ قال تعالى: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ (الرعد ١١). ليس فى النحو أيضاً ما يحول دون تعليق الجار والمجرور "من أمر الله"

بالفعل "يحفظونه" ولا سيما أنه أقرب إلى الجار والمجرور مما عداه من عناصر النص ولكن العقل هو الذى يحول دون ذلك لأن أمر الله (أى قضاءه وقدره) لا يحفظ منه شئ ولا تحفظ منه المعقبات المذكورة فى النص. هنا يتدخل العقل من أجل استنباط المعنى المقصود فيهتدى إلى إدراك أن الجار والمجرور صفة للمعقبات؛ أى (له معقبات من أمر الله يحفظونه من بين يديه ومن خلفه).

٤ ـ قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُواْ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ۝ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلْفِتْنَةَ لَأَتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ۝ وَلَقَدْ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ۝ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (الأحزاب ١٣ ـ ١٦). يروى ابن عباس أن اليهود قالت لعبد الله بن أبى بن سلول وأصحابه من المنافقين: ما الذى يحملكم على قتل أنفسكم بيد أبى سفيان وأصحابه؟ ومن ثم استأذن بنو حارثة بن الحارث ومعهم فى رواية النقاش بنو سلمة فى العودة إلى المدينة. وهما الطائفتان اللتان همتا أن تفشلا فى غزوة أحد. قال الضحاك: ورجع ثمانون رجلاً بغير إذنه. هنا يمكن للعقل أن يعمل على الاختيار بين تعليق الجار والمجرور (من الموت) إمّا بالمصدر (الفرار) أو الفعل (فررتم). فإذا اعتمدنا على رواية الضحاك يكون الفرار قد وقع فعلاً فيتعلق الجار والمجرور بالفعل، والمعنى: أن فررتم كما حدث منكم فلن ينفعكم الفرار. أما إذا لم نعتمد على رواية الضحاك فزعمنا أن الفرار لم يقع فإن الجار والمجرور يتعلق بالمصدر (الفرار) دون الفعل ويكون المعنى: لن ينفعكم الفرار من الموت أو القتل إن فررتم. وعندئذ يكون عن المبدأ المعبر عنه بالمصدر لا عن واقعة وقعت فعلاً.

هذا هو المقصود بالعلاقة الذهنية. وبهذا نرى أن القرائن ذات النفع الجزئى ينتفع بها فى سبك التركيب، ولكن قرينة السياق هى القرينة الكبرى التى تعين على الإلمام بالمعنى الكلى للسياق، وعلى الترابط المفهومى للنص.

الصحة والجمال فى النص القرآنى

حين تصدى النحاة العرب لدراسة اللغة العربية كانت الغاية التى يسعون للوصول إليها هى إنشاء نظام طابعه الاطراد، وكان التصنيف خطوتهم الأولى إلى هذه الغاية، وكانت ملاحظة أوجه الاتفاق والاختلاف سبيلهم إلى التصنيف، فجعلوا الاتفاق علاقة تحكم مفردات الصنف الواحد وجعلوا الاختلاف فارقًا بين باب وباب، ثم وصلوا إلى قواعدهم التى نسبوها إلى الاطراد.

أما إذا لم يتحقق الاطراد المطلق لقاعدة ما فإنهم خصصوا هذا الإطلاق بقاعدة فرعية شرطها أمن اللبس كما سنرى بعد قليل. والمعروف أن الاتفاق والتشابه يؤدى إلى تعدد الاحتمالات المؤدى إلى اللبس، وأن الاختلاف والفروق تؤدى إلى الوضوح وأمن اللبس. ومن تراكيب اللغة ما تتعدد احتمالاته فيلحق به اللبس. فلو قلت مثلاً: "غادرته غاضبًا" لوجدت فى "غادرته" ضميرين يصلح كل منهما أن يكون صاحب الحال "غاضبًا"، ولا توجد قرينة تدل على غضب أحدهما دون الآخر ومن هنا كان التركيب ملبسًا. أما إذا قلت: "غادرته يتميز من الغضب" فإن بنية جملة الحال تربط هذه الجملة بضمير الغائب فيعرف السامع عندئذ من هو صاحب الحال بواسطة المطابقة فى معنى الغائب.

كان على النحاة من ثم أن يكشفوا عن القرائن الدالة على المعنى النحوى لكل باب من أبواب النحو، وأن يشيروا إلى كل منها فى نطاق النظام النحوى فى جملته، وهكذا أشاروا إلى القرائن التالية:

١ ـ قرينة التضام: (ويقع تحتها الافتقار والاختصاص والاستغناء والمناسبة المعجمية).

٢ ـ الرتبة: (وهى إما محفوظة وإما غير محفوظة تسمح بالتقديم والتأخير).

٣ ـ الربط: وتحته أمران:

أ ـ المرجعية (وتشمل إعادة الذكر وإعادة المعنى وعود الضمير والإشارة والموصول والصفة)(*).

ب ـ المطابقة (فى الشخص (المتكلم إلخ) والنوع (التذكير إلخ) والعدد (الإفراد إلخ) والتعيين (التعريف إلخ) والإعراب).

٤ ـ العلامة الإعرابية: وهى تكون أصلية على المفرد المتمكن الصحيح الآخر وفرعية على المثنى والجمع السالم ومعاقبة مع المقصور والمنقوص والمبنى وما يحل محل المفرد (أى يعاقبه).

٥ ـ البنية: والمقصود اشتراط صيغة صرفية معينة لعنصر نحوى معين كالاشتقاق للحال والجمود للتمييز.

٦ ـ الأداة: كالأدوات الداخلة على الجمل، والحروف الداخلة على المفردات لإفادة معنى.

٧ ـ دلالة السياق:

وهى قرينة تركيبية الطابع تفهم فى نطاق القرائن السابقة وفى نطاق العلاقات والموقف. كدلالة "إلا" على الاستدراك دون الاستثناء فى قوله تعالى: ﴿ طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾ أى لكن تذكرة لمن يخشى، ودلالة "إن" على النفى دون الشرط وذلك فى قوله جل شأنه: "إن أنت إلا نذير"،

(*) انظر البيان فى روائع القرآن لصاحب المقال ١٢٢ ـ ١٢٨.

ودلالتها على التأكيد فى: "وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله". فى ضوء هذه المعطيات كان النحاة يحكمون على التراكيب بالصحة والخطأ، غير أن اللغة أوسع من نحو النحاة، لأن هموم الاستعمال اللغوى ليست نحوية فقط، إذ هناك مثلاً الجانب الأسلوبى الذى يقحم فى التركيب عدولاً عن أصل الاستعمال بواسطة الزيادة أو الحذف أو التضمين أو التغليب أو الترخص فى القاعدة أو المجاز أو غير ذلك من مظاهر الشجاعة الأسلوبية التى تتحدى الأطراد فى قواعد النحاة. انظر مثلا إلى قول الشاعر:

ألا يـا اسـلمى يـا دار مـى علـى البلـى ولازال مـــنهلا بجـــرعائك القطـــر

وتأمل كيف قدم الدعاء بالسلامة للدار بعد البدء فى ندائها ثم عاد فناداها بتكرار حرف النداء، وجعل ذلك أسلوبًا للتعبير عن حرصه على سلامة الدار، ولو قصد غير ذلك لكان له مندوحة أن يقول: "ألا فاسلمى يا دار مى على البلى" ولكان حرف النداء واحدًا غير مكرر. ولعل هذا التركيب الشعرى يلقى بعض الضوء على تكرار اللامين والفصل بين اللامين بـ "ما" الزائدة وتشديدها فى إحدى القراءتين للتعبير عن زيادة تأكيد المفهوم من تكرار اللام، وذلك فى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ (هود: ١١١). فتكرار اللام فى الآية شبيه بتكرار "يا" فى بيت الشعر، وإقحام "ما" بين اللامين شبيه بإقحام الفعل "اسلمى" بين حرفى النداء.

والقرآن الكريم نزل بلسان عربى مبين قبل أن يكون ثمة نحو أو نحاة. ففيه زخم اللغة الذى يتمثل فى صور العـدول عن الأصل للوصول إلى أغراض أسلوبية. وفى القرآن قراءات مـختلفة وصف بعضها بالشذوذ عن قواعـد النحو، ولكن قبول هذه القراءات الشاذة كان مشروطًا بموافقتها للعربية (أى النحو) ولو بوجه من وجوه التأويل إلى أصل من الأصول. من هنا يتضح أن قضية الصحة قضية نحوية أولاً ثم لا تكون أسلوبية إلا عند تعلق الأسلوب بصورة التركيب كما

رأينا منذ قليل. وقد تتحقق الصحة فى التركيب دون أن يتحقق المعنى لعدم وجود القرينة السياقية وهى كبرى قرائن النحو كما فى قول المجنون ابن جندب:

محكوكة العينين معطاء القفا كأنما قدت على متن الصفا

ترنو إلى متن شراك أعجفا كأنما ينشر فيه مصحفا

فالبيتان لا يدلان على معنى محدد لأنهما لا يحملان دليلاً على المعنى من شىء قيل فيه، ولا تتسم علاقة المفردات فيهما بالمناسبة المعجمية، وليس للضمائر فيهما مراجع محددة. هذا من الناحية النحوية أما من الناحية البيانية فلا يتضح فيهما المشبه والمشبه به ولا علاقة الشبه. من أجل هذا خفى المعنى على رغم صحة الرصف النحوى.

والمعروف أن هناك ما يسمى بالحقول المعجمية، وقد اشتهر منها لدى علماء الأنثروبولوجيا حقلان هما حقل ألفاظ القرابات (جد، أب، عم، إلخ) وحقل الألوان (أبيض، أسود، أحمر، إلخ). ولكن الأمر فى الواقع أوسع من ذلك وبخاصة إذا نظرنا إلى المناسبة المعجمية بين ألفاظ الجملة وهى جزء من قرينة التضام. فلو أخذنا ما فى الأفعال من معنى الأحداث لوجدنا الحدث المعين يتطلب فاعلاً مشروطًا بمناسبة معناه الأصلى لهذا الحدث. فلو سمع أحدنا قائلاً يقول فى بداية كلامه: "فهم...." لكان به إرهاص بأن هذا الفاهم لابد أن يكون عاقلاً، فإذا أسند المتكلم الفعل إلى الحجر مثلاً كان لدى السامع أحد خيارين:

١ ـ أن يعتقد فساد المعنى.

٢ ـ أن يصرف الجملة إلى المجاز، فيكون المعنى. أن هذا الفاهم يشبه الحجر ذلك المشبه بالحجر.

ذلك أن لفظ الحجر نقل من معناه الأصلى إلى معنى آخر بعلاقة المشابهة بين جمود الحجر المشبه وقرينة كون الحجر الحقيقى لا ينسب إلى الفهم. أما إذا

سمعت قائلاً يقول: "تدحرجت إلى فوق" فإنك تحكم بفساد المعنى وإن كان رصف الجملة سليمًا من الناحية التركيبية، وذلك كحكمك على فساد ما قاله المجنون ابن جندب منذ قليل على رغم صلاحية العبارتين للتحليل الإعرابى.

والمعانى ثلاثة أنواع كبرى تخضع للتفريع: أولها المعنى العرفى الذى هو شركة بين الناس فى المجتمع، وذلك كالمعنى المعجمى للمفردات والنحوى للتراكيب، ثم المعانى التى تفهم من أضواء المرور وطقوس الاحتفال وثياب الحداد... إلخ. وثانيها المعنى العقلى أو الذهنى أو المنطقى وهو الذى يرتب النتائج على المقدمات فيصل بذلك إلى الإفهام والأحكام من خلال النشاط الذهنى، ومن ذلك نشاط الكشف عن مرتكبى الجرائم وإدراك مفهوم المخالفة عندما يكون مقصودًا من الكلام. وثالثها المعنى الانطباعى الذى هو ثمرة المؤثرات الحسية كالذى نحسه عند النظر إلى الصورة الزيتية أو سماع الصورة البيانية أو عند سماع الموسيقى أو الشعر أو التمثيلية المسرحية. كل أولئك يعد من قبيل التأثير بالأسلوب، ومن قبيل هذا التأثير ما توحى به الصورة التى عبر عنها قوله تعالى: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَىٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة: ٢٧٣) ففى الآية أسلوب لغوى ينسب إلى هؤلاء الفقراء صفات تبعث الشفقة عليهم والإكبار لهم، وفيها أسلوب تشكيلى يرسم لهم صورة يسهل معها أن نعرفهم بسيماهم. والإحساس بالشفقة والإكبار وكذلك المعرفة بواسطة الهيئة البادية للعيان كل أولئك من قبيل المعانى الانطباعية.

ولعل الفارق الأساسى بين العلم والفن أن العلم أكثر اعتمادًا على المعانى الذهنية وأن الفن أكثر تعويلاً على المعانى الانطباعية. ففى العلم استقراء وفرض وتحقيق فرض ونتيجة وقياس إلخ. أما الفن ففيه خيال وإلهام وإيحاء وموقف

ذاتى، وربما لـجأ إلى الترخص فى مطالب العقل والـمنطق. ولو رجعنا إلى فضل تأمل للآية الكريمة السابقة لوجدنا نوعين من الانطباع بموقف هؤلاء الفقراء: فلقد ظنهم الـجاهل أغنياء بسبب التعفف عن السؤال، ومن ثم لـم يستوعب المعنى الانطباعى على صورته الـحقيقية، أما الـحاذق الصادق النظرة فقد عرفهم بسيماهم ولـم ينخدع بالتعفف. وهكذا اتـحدت الصورة واختلف إدراك معناها الانطباعى.

خلاصة القول أن للاستعمال اللغوى جانبين أحدهما جانب الصحة والثانى جانب الجمال. فأما جانب الصحة فيتعلق بالمعنى العرفى، وأما جانب الجمال فيتعلق بالمعنى الانطباعى. الأول يقوم على شروط التركيب، والثانى يقوم على تأثير الانطباع، الأول يتحقق بمطابقة العرف اللغوى والثانى يتحقق بحساسية الذات المعبرة والمتلقية. وسوف نحاول فيما يلى من هذا المقال أن نلقى الضوء على موقف القرآن الكريم من صحة العبارة، وموقفه من جمال الأسلوب والتماس الجمال فى الوسائل اللغوية المختلفة:

أولاً: موقف القرآن الكريم من صحة العبارة:

جرد النحاة قواعدهم بملاحظة المسموع من كلام العرب ثم قاسوا السياق بعد ذلك على هذا المسموع. ولقد أرادوا للاطراد والقياس على المسموع أن يكونا من ضروريات النحو العربى. ولكن اللغة أرحب ساحة وأكثر مرونة من أن تخضع للاطراد الصارم ومعايير القياس، ومن هنا رأينا فى المسموع والمقيس كليهما من المخالفة لشروط التركيب ما أضطر النحاة إلى التغاضى والقبول أو إلى التأويل سعيًا إلى الاطراد.

وتتمثل تلك المخالفة فى مجالات مهمة مثل:

١ ـ الأساليب العدولية التى يقاس عليها.

٢ ـ القواعد الفرعية.

٣ ـ الترخص فى قرائن المعنى عند أمن اللبس.

فأما الأساليب العدولية (أى التى هى عدول عن أصل القاعدة) فمنها الحذف والزيادة والنقل والتضمين والتغليب والفصل والاعتراض، وإنما كان قبول النحاة لهذه الظواهر التركيبية يرجع إلى عدم إيصال التركيب إلى اللبس. فلا حذف إلا بدليل يحول دون اللبس، والزيادة تعرف يكون الزائد ليس عمدة ولا فضلة وأن الجملة تفيد معنى بدونه، والنقل يكون ظاهرة نحوية كنقل المصدر والفعل ونحوهما إلى العلمية ونقل المبهمات إلى الظرفية وكون التمييز منقولاً عن الفاعل أو المفعول وهلم جرا، قد يكون ظاهرة بلاغية بيانية كالمجاز المرسل والاستعارة والكناية ونحو ذلك. ويتضح التضمين من اكتساب المضمن علاقات ما تضمن معناه فى الجملة، فالفعل قد يكون متعديا نحو "استحب" ولكنه حين يضمن معنى "فضل" يتعدى بحرف الجر على نحو: ﴿ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ (فصلت: ١٧) أى فضلوه فيعرف وقوع التضمين بتغيير العلاقة مثلاً. والتغليب اختصار مقصودين بذكر أيسرهما نطقًا كالعمرين أو أولاهما بالذكر كالأبوين بتغليب الأب والوالدين بتغليب الوالدة. ويعرف الفصل بموقعه والاعتراض بما يحدثه من فجوة فى السياق. ولوضوح المعنى بهذه الأدلة عليه لم يكن لدى النحاة ما يدعوهم إلى وصف هذه الأساليب بالشذوذ.

وأما اشتراط أمن اللبس فقد كان سببًا فى نشأة القواعد الفرعية التى تعد استثناء من القواعد العامة. وحسبنا عند إرادة الإيجاز أن نذكر قول ابن مالك فى بيان هذه القواعد المشروطة بأمن اللبس:

ولا يجوز الابتدا بالنكرة ... ما لم تفد كعند زيد نمرة

والأصل فى الأخبار أن تؤخرا ... وجوزوا التقديم إذ لا ضررا

وحذف ما يعلم جائز كما ... تقول زيد بعد مَن عندكما

وفى جواب كيف زيد قل دنف ... فزيد استغنى عنه إذ عرف

وربما استغنى عنها إن بدا ... ما ناطق أراده معتمدًا

وشاع في ذا الباب إسقاط الخبر ... إذا المراد مع سقوطه ظهر

والحذف في نعم الفتاة استحسنوا ... لأن قصد الجنس فيه بيّن

وأخّر المفعول إن ليس حذر ... أو أضمر الفاعل غير منحصر

وما بإلا أو بإنما انحصر ... أخّر وقد يسبق إن قصد ظهر

نقلاً وفي أن وأن يطرد ... مع أمن لبس كعجبت أن يدوا

وقد ينوب عنه ما عليه دل ... كجد كل الجد وافرح الجذل

وإن بشكل خيف ليس يجتنب ... وما لباع قد يرى لنحو حب

ومعنى كلام ابن مالك هذا أنه لا إصرار على القاعدة الأصلية إذا أمن اللبس، فإذا أمن اللبس نشأت قاعدة أخرى فرعية، ولكنه يقول أخيرًا: "وإن بشكل خفيف لبس يجتنب" أى تبقى القاعدة الأصلية مستصحبة فلا ترخص فيها عند خوف اللبس.

وكما يكون الترخص فى القاعدة يكون فى إحدى القرائن الدالة على معنى نحوى ما. وقد سبق فى أول هذا المقال أن عرفنا بهذه القرائن هى التضام والرتبة والربط والبنية والإعراب والأداة ودلالة السياق. فمن الترخص فى قرينة التضام قوله تعالى: ﴿ قَالُوا طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ﴾ (يس: ١٩) بحذف جواب الشرط أى: أئن ذكرتم تطيرتم؛ ومن الترخص فى الرتبة قوله جل شأنه: ﴿ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ﴾ (هود: ٣٨) "بتقديم جملة الحال مع امتناع ذلك بحسب القاعدة. ومن الترخص فى الربط قوله تعالى: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ

﴿ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ (الحاقة: ٣٨ ـ ٥٢). ففى الآية عشرة من ضمائر الغيبة أحدها مستتر فى الفعل "تقوَّل" وليس لواحد منها مرجع مذكور ولكن المراجع جميعًا واضحة من السياق. ومن الترخص فى البنية قوله تعالى: ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴾ (التين: ١ ـ ٢) أى وطور سيناء. ومن الترخص فى الإعراب ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ ﴾ (المائدة: ٦٩) ومن الترخص فى الأداة حذف الهمزة فى قوله تعالى: ﴿ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ﴾ (البقرة: ١٢٤) أى أو من ذريتى. أما دلالة السياق فالترخص فيها يؤدى إلى اللبس.

وقد يأتى الترخص فى نمط الجملة مع إرادة المعنى الذى جرى الترخص فى نمطه. ففى قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران: ١٠٢) ليس المقصود النهى عن الموت على حال بعينها وإنما المقصود الأمر بالتمسك بالإسلام حتى الموت فجرى الترخص فى نمط الأمر وحل محله نمط النهى مع إفادة معنى الأمر. وفى قوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾ (البقرة: ٢٢٨) عدل عن نمط الأمر بالتربص إلى نمط الجملة الخبرية. وفى قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ﴾ (التوبة: ١٢٧) دل عن صيغة الحال المفردة والحال الجملة الخبرية إلى نمط الجملة الإنشائية "هل يراكم من أحد" وفى قوله جل شأنه: ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ﴾ (الفرقان: ٢٠) جاء المفعول لأجله جملة إنشائية أيضًا والمعنى لنرى قدرتكم على الصبر. يبدو للمتأمل فى هذه الحقائق السابقة أن النحو أضيق ساحة من اللغة لأنه صرف همه منذ البداية إلى الجانب المطرد منها عازفًا عن حصر الشجاعة الأسلوبية التى تتأبى على الاطراد والتقعيد وهى التى يتبين من خلالها العنصر الجمالى للنص اللغوى. وما أكثر ما سمعنا عن المشاحنة بين النحاة والشعراء إذ يتسلح النحوى بطرد القاعدة ويجيب الشاعر بحرية الفن قائلاً: علينا أن نقول وعليكم أن تتأولوا.

ثانيًا: الجمال فى النص القرآنى:

حين نريد معرفة الأثر الجمالى نتجه بالسؤال عنه إلى قارىء النص وليس إلى منشئه ولكننا حين نريد نسبة الفضل فى التأثير الجمالى ننسبه إلى منشئ النص من خلال نسبته إلى النص نفسه. وإذا قيل إن القرآن معجز فإن بعض إعجازه يعود إلى الجمال. وإذا أردنا أن نتتبع عناصر الجمال فيه فلابد أن ننسبها إلى وسائل تربط المبانى بالمعانى ربطًا يبعث فى النفس الإحساس بالجمال. وتتدرج هذه المبانى من مخارج الأصوات وصفاتها إلى صياغة الكلمات المفردة إلى اختيار مفردة دون أخرى إلى ما فى النص من الصور البيانية والتصوير الوقائعى إلى غير ذلك من وسائل التعبير.

١ ـ المستوى الصوتى:

للأصوات مخارج وصفات تعد فى الدرس اللغوى سمات مميزة يؤمن اللبس بواسطتها وهذا هو الجانب العرفى عند النظر إلى الاستعمال وهو الجانب المنهجى العلمى عند البحث فى اللغة. ولكن الذى نتكلم عنه هنا أصوات شأنها فى التأثير شأن كل صوت مسموع كالصوت الموسيقى مثلاً، فالأصوات المسموعة ذات معان طبيعية إيحائية وانطباعية لا هى عرفية ولا ذهنية. فقد تدل المقابلة بين الترقيق والتفخيم على إرادة التأكيد عند تفخيم الصوت. انظر مثلاً إلى قوله تعالى فى مجرد الإخبار عن خلق الأرض ﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴾ (النازعات: ٣٠) ثم عندما أريد التأكيد بمناسبة القسم قال ﴿ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴾ (الشمس: ٦) بوضع الطاء فى موضع الدال أى بإبدال التفخيم بالترقيق وقد يدعو المقصود إلى تغيير حركة البناء للوصول إلى غرض معيّن كما فى تغيير بناء ضمير المفرد الغائب من الكسر إلى الضم على رغم القاعدة وذلك فى قوله تعالى ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ وذلك للحرص على تفخيم اللام فى لفظ الجلالة. وقد

تدل الرخاوة أى الاحتكاك فى نطق الصوت على أثر معين كالذى نراه فى قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ﴾ (التوبة: ٣٨) وذلك بإدغام التاء من "تثاقلتم" مع الثاء ليكون منهما معا ثاء مشددة أطول فى نطقها مدة من الصوت المفرد وأكثر دلالة على إفراغ الطاقة والركون إلى المكث والتخلف وذلك بإيحاء الصوت. وقد تدل شدة الصوت الشديد على الإقفال والحبس كما فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّهَا عَلَيۡهِم مُّؤۡصَدَةٌ ﴾ (الهمزة: ٨) بهمز الواو من لفظ "موصدة" للإيحاء بهذا المعنى. ومن دلالات الإدغام أيضًا ما فى قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا ﴾ (الأعراف: ٣٨) من إيحاء بمفاجأة إلقائهم فى النار، وفى قوله ﴿ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰ ﴾ (يونس: ٣٥) من إيحاء بالإحجام عن الاهتداء، وقوله: ﴿ قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ ﴾ (الزمر: ٦٤) من دلالة على ضيق النفس بسبب هذا الأمر. أما التكرار فى أصوات الكلمة فيدل على التوالى كما فى قوله تعالى: ﴿ فَكُبۡكِبُواْ فِيهَا هُمۡ وَٱلۡغَاوُۥنَ ۝ وَجُنُودُ إِبۡلِيسَ أَجۡمَعُونَ ﴾ (الشعراء: ٩٤ ـ ٩٥) ومن هذه الأساليب الصوتية أيضًا زيادة صوت على أصول الكلمة الثلاثة للدلالة على المبالغة كما فى قوله تعالى: ﴿ وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا ﴾ (فاطر: ٣٧) بزيادة الطاء على "يصرخون" للدلالة على شدة الصراخ. وانظر أيضًا إلى المقابلة بين "اسطاعوا" و"استطاعوا" فى قوله ﴿ فَمَا ٱسۡطَٰعُواْ أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبًا ﴾ (الكهف: ٩٧) للدلالة على أن تسلق السور أيسر من نقبه من حيث المبدأ وذلك أن ذا القرنين حين قال: ﴿ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ قَالَ ٱنفُخُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا ﴾ (الكهف: ٩٦) فكانت لزوجه القطر حائلاً دون التسلق وكان حديد جسم السد حائلاً أيضًا وبصورة أشد دون نقب السد فاستحال على يأجوج ومأجوج أن يستطيعوا التسلق أو يستطيعوا النقب فكانت التاء فى "استطاعوا" دالة على الصعوبة الكبرى فى محاولة النقب.

٢ ـ مستوى المفردات:

قد يصوغ النص القرآنى الكلمة المفردة يرتجلها ارتجالاً يدخلها فى معجم اللغة بعد أن لم تكن فيه. فلا وجود فى مفردات العربية الجاهلية ولا فى صحراء شبه الجزيرة لشجرة تسمى "شجرة الزقّوم"، ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ۝ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾ (الصافات: ٦٤ ـ ٦٥) ولكن اسم هذه الشجرة يرد فى القرآن الكريم بواسطة الارتجال ليكون مؤشرًا أسلوبيًا معناه من قبيل المعانى الانطباعية التى تنبنى على الحكاية والإيحاء. فلقد صيغ الاسم المرتجل أولاً من الزاى والقاف وكأنه يذكرنا بالفعل فى "زق الطائر فرخه" أى أدخل الطعام إلى جوفه ولا غرو فشجرة الزقوم طعام الأثيم. ولأمر ما جاء تشديد القاف موحيا بمكث اللقمة فى فم الأثيم قريبة من مخرج القاف مدة أطول من المعتاد، وزاد من هذا المكث أن القاف لحقتها الواو (لا الضمة) فدلت بكونها أطول من الضمة على زيادة المكث. ثم تأتى الميم بما لها من ضم الشفتين للإيحاء ببلع الطعام فأنت تستطيع أن تبتلع السوائل بفم مفتوح ولكنك لا تبلع الطعام إلا بإقفال الشفتين عليه. كل ذلك من قبيل المعانى الطبيعية التى ليس مصدرها العرف أو الذهن. وكذلك حول النص القرآنى إلياس إلى الياسين فى قوله تعالى: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴾ (الصافات: ١٣٠) كما حول سيناء إلى سينين فى قوله: ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝ وَطُورِ سِينِينَ ﴾ (التين: ١ ـ ٢) وذلك لرعاية الفاصلة فى كلا الموضعين بحيث يكون ثمة تشابه صوتى بين فواصل الآيات يوحى بالانسجام والارتياح. وهناك عدد من صور التصرف فى البنية المقررة بغرض الإيحاء أيضًا كما فى ألفاظ مثل "عجاب" و"كبّار" و"كِذّاب" و"يحموم" و"سجين" و"سلسبيل" و"تسنيم" و"غساق" و"عليين" وهلم جرا.

وثمة موقف آخر للتصرف الأسلوبى يقوم على المفاضلة بين استعمال المفردات فى موقف بعينه، إذ يفضل النص مفردة على مفردة أخرى للوصول بذلك التفضيل

إلى غرض أسلوبى بعينه. لقد سأل زكريا عليه السلام ربه وهو يعجب ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ ﴾ (آل عمران: ٤٠) وسألت مريم ربها وهى تعجب ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾ (آل عمران: ٤٧) فكان جواب الله على سؤال زكريا: "كذلك الله يفعل ما يشاء" وعلى جواب مريم: "كذلك الله يخلق ما يشاء". فاستعمل الفعل "يفعل" لإجابته زكريا والفعل "يخلق" لإجابته مريم. وواضح أن الفعل "يفعل" لا يناسب مخاطبة الأنثى كما فى حالة مريم. وفى الكلام عن محنة يوسف عليه السلام يقول الله تعالى: ﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ (يوسف: ٢٣) ولم يصف هذه المرأة بأنها سيدته تكريمًا ليوسف. وحين ضرب الله للكافرين مثلاً بالعنكبوت قال: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ﴾ (العنكبوت: ٤١) فلم يقل "نسجت" أو "بنت" وإنما قال اتخذت للدلالة على إرادة التحصن فى البيت. والله تعالى يقول: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ﴾ (النحل: ٧٠) يعود بالإنسان إلى الضعف الذى جربه فى طفولته ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ﴾ (الروم: ٥٤) لذا كان من الأفضل لنص الآية أن يوحى بأن فى الشيخوخة المتأخرة وهى "أزدل العمر" انتكاسا إلى الضعف وارتدادا إليه، ومن هنا جاء الفعل "يرَدُّ" وقد يدعو غرض أسلوبى إلى التعميم باستعمال الموصول تجنبًا لذكر شىء أو شخص ما أو التهوين من شأنه كما فى قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ ﴾ (الأحقاف: ١٧) وقوله: ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِي كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾ (مريم: ٨٠) فنجد النص يكنى عن الشخص "بالذى"

وعن كلامه بـ "ما يقول" بقصد السخرية منه والتهوين من كلامه. ومن ذلك ﴿ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا ﴾ (آل عمران: ١٨١)، ﴿ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ﴾ (المائدة: ٦٤)، ﴿ قَالُوا يَشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ ﴾ (هود: ٩١)، ﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ (المزمل: ١٠)، ﴿ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا ﴾ (الأحزاب: ٦٩)، ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ (طه: ١٠٤) وغير ذلك كثير فى القرآن الكريم. مما يشير إلى تلخيص قول غير مقبول.

٣ ـ مستوى التراكيب:

وكما تدعو الاعتبارات الأسلوبية الجمالية إلى اختيار المفردات تدعو أيضًا إلى اختيار التراكيب لدفع اللبس حينا ولقصد التأثير حينا آخر. دعنا أولاً نعرض بعض الصور التى أمن بها اللبس. فمن ذلك قوله تعالى ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ﴾ (يونس: ١٦) فاستعمل "لا" مع "أدراكم" ولم يستعمل "ما" لسببين: الأول أن العطف مع تكرار النفى بما إنما يكون عند عدم وجود علاقة بين المعطوف والمعطوف عليه ومن ذلك: ﴿ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ (البقرة: ٩)، ﴿ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ (البقرة: ١٦)، ﴿ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ﴾ (البقرة: ١٤٥)، ﴿ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ﴾ (آل عمران: ١٤٦)، ﴿ لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا ﴾ (آل عمران: ١٥٦)، ﴿ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ﴾ (النساء: ١١٣)، ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ ﴾ (النساء: ١٥٧)، ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ (الأنفال: ٣٣) ففى كل هذه الشواهد لا يتوقف تحقق المعطوف على تحقق المعطوف عليه. أما إذا كان المعطوف عليه مقدمة لحدوث المعطوف فإن المعطوف ينفى بلا وليس بما كما فى الآية. والسبب الثانى أن الفعل "أدراكم" لو دخلت عليه ما

لتعرض للبس للشبه عندئذ بين النفى والتعجب فى "وما أدراكم به" من هنا جاء تفضيل "لا" على "ما" فى هذا التركيب. أما إذا كان المعطوف عليه منفيًا بلا فإن المعطوف عندئذ لا ينفى إلا بها، نحوه ﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴾ (القيامة: ٣١) ﴿ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ (التوبة: ١٢٦)، ﴿ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ ﴾ (البقرة: ١٩٧).

وقد يكون التكرار أيضًا لتوثيق علاقات المفردات أو التراكيب الفرعية فى الجملة وقد يكون لدفع اللبس. فمن الأول تكرار صدر الجملة بعد أن طال الكلام قبل تمامها كما فى قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ﴾ (البقرة: ٨٩)، ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ (البقرة: ٢٥٣)، ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (النحل: ١١٩) فلولا التكرار لا نحلت عرى الجملة وضعفت العلاقة بين أجزائها. أما التكرار لدفع اللبس فقوله تعالى: ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾ (التوبة: ٧٧). "فلولا تكرار الباء فى" بما كانوا يكذبون" لصلح التركيب للنفى دون المصدرية، وهناك قرائن أخرى تحول دون هذا اللبس منها أن الإخلاف والكذب آيتان من آيات النفاق كما أوضح الحديث النبوى القائل: "آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان".

وقد يكون نقل اللفظ من مكانه أو وضعه فى مكان هو فيه زائد على المعنى مؤشرًا أسلوبيًا ذا غرض خاص كما فى قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ﴾ (غافر: ٥٨) أى "ولا الذين آمنوا

وعملوا الصالحات والمسئ" وقوله تعالى: ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ﴾ (فاطر: ١٩ ـ ٢٢) ف "لا" زائدة قبل النور والحرور والأموات. وقوله تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾ (هود: ٢٤) فقوله: "هل يستويان" بإسناد الفعل إلى ألف الاثنين يحول دون اعتقاد المتعاطفات أربع مفردات ويدل على أن هناك شخصين أحدهما أعمى أصم والثانى بصير سميع.

٤ ـ التصوير البلاغى:

يقوم التصوير البلاغى على الانتفاع بالعلاقات سواء ما كان منها انطباعيًا كالمشابهة، أو عقليًا نحو السببية (السبب المسبب) والزمانية (ما كان وما يكون) والكمية (الكلية والبعضية) والمكانية (الحالية والمحلية) واللزومية أو لغويًا إسناديًا (كالتعارض فى المعنى بين المسند إليه والمسند) أو معجميًا (كالمشترك اللفظى) أو غير ذلك. فأما المشابهة فهى العلاقة التى يبنى عليها التشبيه والاستعارة، وأما السببية والزمانية والمكانية والكمية فهى علاقات المجاز المرسل، وأما لزوم المعنى فعلاقة الكناية، وأما تعارض طرفى الإسناد فعلاقة المجاز العقلى، والمشترك اللفظى أداة التورية. فمن التصوير بالتشبيه قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (البقرة: ٢٦٤ ـ ٢٦٥). هنا صورتان من صور الإنفاق يشتمل عليهما المشبه به:

الأولى صورة جبل صخرى أملس تغطيه طبقة من التراب الصالح للزراعة والثانية صورة حديقة على رابية ترتفع قليلاً عن سطح الأرض نزل عليها المطر. يلاحظ أن تزول المطر بالنسبة للجبل عبرت عنه جملة معطوفة بالفاء أما نزوله على الحديقة فقد عبرت عنه جملة هى صفة للحديقة. فنزول المطر على الجبل حادث مفاجئ غير مرغوب فيه كان سببًا فى تعرية الجبل حتى إنه لم يعد صالحًا للزراعة بدليل التعبير بالفعل "تركه" إذ صار الجبل متروكًا لعدم الفائدة أما الحديقة فمن صفتها أنها ١: بربوة ٢: أصابها وابل ولهذا آتت أكلها ضعفين. وهذا الموقع المتميز للحديقة يجعلها عرضة للرى من وجهين فإما أن يصيبها وابل وإما أن يصيبها الطل فتنتفع بالماء فى الحالتين.

والمشابهة علاقة الاستعارة أيضًا لأن الاستعارة بحكم التعريف "نقل اللفظ من معناه الأصلى إلى معنى آخر لعلاقة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلى "مثال ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ﴾ (النساء: ١٢٩). فهنا نجد المعنى الأصلى للميل أنه ضد الاعتدال ولكن "تميلوا" نقل إلى معنى التحيز وعدم العدالة فى المعاملة (أى بعلاقة) الانحراف فى كل منهما ثم ترك معنى استقامة الوضع الحسى واستعمل معنى استقامة القصد والعدالة، والقرينة الدالة على هذا الاستعمال ما تقدم من قوله تعالى: ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ ﴾. فهذه الاستعارة تصور الرجل بين امرأتين فى وضع جسمانى مائل إلى إحداهما دون الأخرى وهو وضع ينفر منه الرجل الكريم. والعين سبب الرؤية وسيلة الرعاية، فحين يقول الله تعالى لنبيه: ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ (الطور: ٤٨) تصور الآية أن النبى فى رعاية الله تعالى وفى ذكر العين ما يفيد الظرفية وهو الباء إيحاء بالمحبة والإعزاز. والقلب فى الأدب التراثى محل الفكر، وفى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ (ق: ٣٧) مجاز مرسل فى لفظ القلب واستعارة تبعية فى

"ألقى السمع" فالصورة العامة تعنى أن فى ذلك عظة لمن يفكر ويستمع إلى النصح. والسنون أزمنة الوقائع فإذا ذكرت وكان المقصود ما حدث أثناءها فالمجاز مرسل والعلاقة زمانية وذلك ما نلحظه فى قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ (الأعراف: ١٣٠) فالصورة هنا تجعل السنين أداة البطش وتعنى الأزمات. والأرض كوكب من كواكب المجموعة الشمسية فلا قدرة لعرب الجاهلية أن يروه فى جملته، فإذا قال الله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ (الرعد: ٤١). فليس معنى ذلك تصوير رؤيتهم كوكب الأرض وهو بيضاوى لا كروى وإنما المقصود أرض الكفر ينقصها الله بنصر المسلمين على الكفار ففى الأرض هنا مجاز مرسل بعلاقة الكمية لأن الأرض المذكورة جزء من كوكب الأرض. وهكذا نرى اللفظ فى الاستعارة وفى المجاز المرسل كليهما منقولاً من معناه الأصلى إلى معنى آخر لعلاقة بين المعنيين وقرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلى ولكن العلاقة تشبيهية فى الاستعارة وعقلية فى المجاز المرسل. والنقل فى الحالتين أداة التصوير. وثمة علاقة عقلية أخرى غير علاقات المجاز المرسل وتلك هى اللزوم وهو يقف بإزاء نقل المعنى فلبس مع اللزوم نقل إذ يذكر المعنى الأصلى (ويسمى المعنى القريب) ويلزم منه معنى آخر يسمونه لازم المعنى أو المعنى البعيد. ويمكن إرادة أى من المعنيين دون حاجة إلى النقل مثال ذلك قوله تعالى: ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ (الكهف: ٤٢) فقد يراد المعنى القريب وهو تقليب الكفين وقد يراد ما يلزم من هذا التقليب من الأسف والندم والمراد بتقليب الكفين ضرب كف بكف ولا حاجة فى الكناية إلى قرينة لصحة إرادة المعنى الأصلى. والصورة هنا معبرة جدًا فليس أدل على الندم من تقليب الكفين.

والمجاز العقلى يبنى على المفارقة المعجمية فى الإسناد لا فى الإفراد كما مر فى الاستعارة. فإذا كانت المفارقة فى الاستعارة سببها نقل المعنى كأن ننقل معنى

الأسد من الحيوان المفترس إلى الرجل الشجاع فتترتب المفارقة بين الفعل "خطب" مثلاً وبين "الأسد" أى الشجاع، فإن المجاز العقلى يبقى على المعنى الأصلى للألفاظ ولكنه يجعل المفارقة بينها فى الإسناد إذ يسند اللفظ إلى غير من هو له لعلاقة مع قرينة مانعة من اعتقاد المناسبة بين طرفى الإسناد. فالرابح هو التاجر مثلاً وليست التجارة ولكن الله تعالى يقول: ﴿ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ ﴾ (البقرة: ١٦) فالعلاقة أن التجارة وسيلة للربح والقرينة أن التجارة صفقات فلا تقوم هى بإجراء الصفقات ومن ثم لا تنسب إلى إنشاء الربح والخسارة. وفى قوله تعالى: ﴿ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ (الحاقة: ٢١) نجد نسبة الرضا إلى العيشة مع أنها تكون مرضية لا راضية. والوعد يأتى ولا يؤتى إليه ومع ذلك نجد قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴾ (مريم: ٦١). والنهر مجرى الماء وليس الماء نفسه ومن ثم لا يجرى على الحقيقة ولكن الله تعالى يقول: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ ﴾ (الأنعام: ٦) فكل ذلك تصوير بواسطة المجاز العقلى.

٥ ـ تصوير الأحداث والمواقف:

القرآن الكريم كتاب دعوة إلى عقيدة وتشريع لمجتمع. أما الدعوة إلى العقيدة فقد كانت الطابع الغالب على العهد المكى من نزول القرآن، وأما فى العهد المدنى فقد كانت العقيدة والتشريع جنبًا إلى جنب فى الوحى القرآنى. ولقد اشتملت الدعوة إلى العقيدة على الترغيب والترهيب وكانت الجنة أوضح ما يدور حوله الترغيب كما كانت النار مناط الترهيب. وكان الأمر فى كلتا الحالتين مجالاً لتصوير الأحداث والمواقف سواء أثناء الحساب أو بعد القضاء بدخول الجنة أو النار. فأما مشهد القيامة فحسبنا أن نقرأ قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ (الحج: ٢) فإذا جاء يوم العرض على الله فإن تصوير

الموقف يأتى فى سورة الحاقة إذ يقول الله تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴾ (الحاقة: ١٨ ـ ٢٤) ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴾ (الحاقة: ٢٥ ـ ٣٧). أما فى صورة الواقعة فقد تجاوز الأمر تصوير الجنة والنار إلى وصف أنواع النعيم والعذاب فيقول الله تعالى: ﴿ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ (الواقعة: ٨ ـ ١٢) ولما كان السابقون من عباد الله من سائر الأمم التى اتجهت إليها الرسالات ومنهم أتباع محمد كان الجميع ممن استحقوا دخول الجنة فقال تعالى: ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴾ (الواقعة: ١٣ ـ ١٤) ثم ذكر تفصيل نعيم السابقين فقال: ﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴾ (الواقعة: ١٥ ـ ٢٦) ثم فصل نعيم أصحاب اليمين فقال: ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا

أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ (الواقعة: ٢٧ ـ ٣٨) هذا هو الترغيب فى خيرات الجنة وما فى الجنة من حياة النعيم والرفاهية: أما الترهيب من عذاب جهنم فهو ما نقرأه فى مصير أصحاب الشمال من قوله تعالى: ﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ (الواقعة: ٤١ ـ ٥٦) هذا ما نجده فى سورة الواقعة، أما فى سورة الرحمن فللإنس جنة وللجن أخرى وجنتا السابقين أكثر نعيمًا من جنتى أصحاب اليمين فحين الكلام عن جنتى السابقين من الثقلين يقول تعالى: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (الرحمن: ٤٦ ـ ٦١) أما أصحاب اليمين من الثقلين فلهم جنتان دون ذلك فى وسائل التنعيم إذ يقول تعالى: ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَامَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ

مَّقْصُورَٰتٌ فِي ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (الرحمن: ٦٢ ـ ٧٧). أما المذنبون أصحاب الشمال فجزاؤهم جهنم. يقول تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِي وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (الرحمن: ٣٧ ـ ٤٥) وواضح أن العلاقة بين قوله تعالى: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴾ وقوله: ﴿ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ ﴾ علاقة السببية فما داموا يعرفون بسيماهم فلا داعى للسؤال عن ذنوبهم مع تحقيق معرفة القرائن وضوح الأمارات.

وفى سورة الأعراف مشهد حوار بين أهل الجنة وأهل النار يوضح الفارق العظيم بين هؤلاء وأولئك ويبدى الفارق الكبير بين النعيم والحرمان. وتشارك فى هذا الحوار طائفة ثالثة متوسطة بين الجنة والنار تقف على أعلى السور بين الجنة والنار فترى أهل الجنة فى أحد الجانبين وأهل النار فى الجانب الآخر هذه الطائفة الثالثة تنتظر قضاء الله فى شأنها أن يغفر لها فيدخلها الجنة بعد انتظار وترقب نظرًا لتساوى حسناتهم وسيئاتهم. هؤلاء ينادون المجرمين أهل النار الذين يعرفونهم بسيماهم ويتهكمون بهم ويسخرون منهم. يقول الله تعالى: ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ ۚ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾

* وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَـٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَـٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَـٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ (الأعراف: ٤٤ ـ ٥١).

والأعراف الحجاب الذى بين الجنة والنار هى الزوائد الرأسية فوق السور على نحو ما تبدو فى أسوار القلاع والحصون. وقد كان لأصحاب الأعراف النصيب الأكبر فى الحوار كما رأينا. ولعل المؤذن المذكور فى هذا الحوار كان من أصحاب الأعراف. (بديل لفظ "بينهم").

وثمة صورة أخرى لافتضاح أهل النار بشهادة أعضاء أجسادهم عليهم فكأنهم يشهدون على أنفسهم بارتكاب ما ارتكبوه من الأعمال. وإذا كان للإنسان خمس من الحواس هى السمع والبصر واللمس والذوق والشم فإن الحواس الثلاث الأولى تشهد على أهل جهنم حال دخولهم فيها: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَـٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَـٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴾ (فصلت: ٢٠ ـ ٢٤) هذه الصورة تكشف عن ورطة لم تكن فى خاطر هؤلاء المذنبين لأنهم لم يكونوا يتوقعون من جلودهم أن تشهد عليهم وهى موضع حاسة اللمس التى هى أخطر الحواس جميعًا. ذلك أن الذى يبطش بغيره يبطش بيده وهى موضع

اللمس والذى يزنى يحس اللذة المحرمة من خلال اللمس ويكون اللمس طريق عدد من المخالفات المورثة للذنوب، ومن ثم لم يعتب هؤلاء المذنبون على سمعهم ولا على أبصارهم وإنما لاموا جلودهم من أجل الإدلاء بهذه الشهادة فكان جواب الجلود تأنيبًا لهم وجعلت الجلود بعد ذلك وسيلة لدوام العذاب "كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودًا غيرها ليذوقوا العذاب". وهكذا كان الاختيار عند أهل النار بين أمرين فإما أن يصبروا على العذاب وإما أن يطلبوا المغفرة. "فإن يصبروا فالنار مثوى لهم وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين بشهادة أسماعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون فلا فائدة ترجى من أى من الخيارين". ومن الصور فى الأسلوب القرآنى ما نجده فى الأمثال القرآنية. والمثل القرآنى ضرب من التشبيه البسيط أو المركب ولكن المركب هو الذى يكشف عن موقفين أحدهما يشبه الآخر ومن هنا تبدو الصورة الحادثة من هذا التشبيه أكثر حياة ونبضًا بحكم تناولها للمواقف الحية. وليس معنى هذا أن التشبيه البسيط أقل جمالاً فهو يتسم بقوة وجه الشبه حتى ليبدو أحد الطرفين كأنه من قبيل الآخر. فمن ذلك تشبيه الذين ذرأهم الله لجهنم بأنهم ﴿ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ (الأعراف: ١٧٩) وتشبيه من أدبر عن سماع آيات ربه بأنه ﴿ كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ﴾ (لقمان: ٧) ويصف الناس يوم البعث بقوله ﴿ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾ (القمر: ٧) ويصف السماء بأنها ﴿ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴾ (الرحمن: ٣٧) أى محمرة كالطلاء الأحمر، ويصف الحور بقوله: ﴿ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾ (الرحمن: ٥٨) ويقول فى الحور العين: ﴿ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ﴾ (الواقعة: ٢٣) الذى لم يستخرج بعد من الصدف. ويقول فى يوم العذاب الواقع: ﴿ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ۝ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴾ (المعارج: ٨ ـ ٩) أى تكون السماء كعكارة الزيت وتكون الجبال كالصوف المنفوش كما يأتى وصفها بذلك فى صورة القارعة أيضًا أما جيش أبرهة فقد أهلكه الله تعالى حتى جعله ﴿ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ (الفيل: ٥) لا يبقى على صورته التى كان عليها.

تأتى بعد ذلك صورة الأمثال المركبة وما تتسم به من جمال التصوير وكفاءته الإعلامية. يصور القرآن الكريم الذين كفروا فى صورة البهائم التى تسمع نعيق الراعى ولا تفهم دلالة ألفاظه ومن ثم يعبر عنهم بالموصول "ما" دون "من" فيقول: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (البقرة: ١٧١) وفى الذين كفروا حذف مضاف أى مثل داعى الذين كفروا. والله سبحانه يضاعف أجر المنفقين فى سبيل نصرة دينه ويضرب المثل لذلك بقوله: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ﴾ (البقرة: ٢٦١) أما من ينفق من الكافرين فإنه يخسر ماله ثم يكون المال عليه حسرة فمثله كمثل قوم كانت لهم مزارع ولكنهم عصوا الله فأرسل على مزارعهم ريحًا باردة ذات صقيع فأهلكت مزارعهم ﴿ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ (آل عمران: ١١٧) أما من رزقه الله المعرفة بآياته فتنكر لها واتبع إغواء الشيطان فإنه يظل على تنكره لآيات الله سواء دعى إلى الهدى والعودة إلى الحق أم لم يدع: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ (الأعراف: ١٧٥ ـ ١٧٦) وانظر إلى قوله: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ فهو يرفض التسامى عن عمد وإصرار.

حين ندعو الله سبحانه نبسط كفينا بالدعاء، ولأن الله تعالى يجيب الداعى إذا دعاه فإنه حقيق أن يدعى ودعوته دعوة حق أما من يدعو الأصنام باسطًا يده إليها فإنه كمن يبسط يده إلى الماء يطلب أن يبلغ الماء فاه ليشرب ولكن الماء لا يبلغ فاه ومن ثم يخيب دعاؤه: ﴿ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم

بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ ۚ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ (الرعد: ١٤) وفى الفعل "يدعون" مفعول به محذوف هو ضمير الأصنام والتقدير "يدعونهم" وفى قوله "كباسط" مضاف محذوف والتقدير "كحرمان باسط كفيه". ويضرب الله مثلاً للحق والباطل بماء السيل وغثائه: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ۚ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ (الرعد: ١٧) والمقصود بالسيل هنا سيلان الماء فى النهر لأن الأودية سالت بقدرها فلم يحدث فيضان غير أن الماء حمل معه الزبد رابيا على السطح ليذهب جفاء ويبقى الماء وما ينفع الناس مما كان فى صحبته طافيا معه.

إن الله سبحانه وعد بأن يظهر الإسلام على الدين كله ولو كره المشركون فكلمة الإسلام باقية وكلمة الشرك ذاهبة: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ (إبراهيم: ٢٤ ـ ٢٥) فكلمة التوحيد كشجرة النخل عميق جذرها شاهق فرعها تؤتى ثمرها كل موسم بإذن ربها. أما كلمة الشرك فإلى زوال كشجيرة الحنظل التى تقتلعها الريح من جذورها وتذروها على سطح الأرض فلا تستقر أبدًا، وثمرها شديد المرارة.

من آمن بالله فقد أخلص وجهه لله ومن عبد الأصنام فقد عدّد ولاءه لها. فأما أول الرجلين فإنه يعرف دائمًا ما يطلب منه ويألف عبادة الله تعالى ولا تتعارض واجبات هذه العبادة فهو كعبد له سيد واحد فأصبح يعرف ما يطلبه سيده فلا يشق عليه منه شيء. أما الرجل الآخر فهو كعبد تشارك فى امتلاكه عدد من الشركاء لكل منهم مطالبه الخاصة التى تتعارض مع مطالب شركائه فإذا قال له أحد سادته اذهب

إلى اليمين وقال الآخر: اذهب إلى الشمال فسوف يحار العبد ويعانى من تعارض رغبات سادته: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الزمر: ٢٩).

يضرب الله مثلاً لذاته وهو صاحب النعم ورازق العباد وللأصنام وهى عاجزة مفتقرة لا تملك ولا تنعم، فيقول سبحانه: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (النحل: ٧٣ ـ ٧٦) فالله سبحانه فى هذه الصورة القرآنية يرزق عباده سرًا وجهرًا ويأمر بالعدل أما الأصنام فهى العبد المملوك الذى لا يملك شيئًا وهو الأبكم العاجز الذى يمثل عبئًا على صاحبه والمشئوم الذى لا يأتى بخيرًا أبدًا.

وكذلك يضرب الله مثلاً لمن يعاهد ثم ينقض عهده لظروف طارئة يسعى للانتفاع بها فيقول تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ﴾ (النحل: ٩١ ـ ٩٢) فإذا عاهد قوم قومًا آخرين ثم تعرض هؤلاء الآخرين لعدوان ممن هم أكثر منهم عددًا وأشد قوة فلا ينبغى للأولين أن يتخلوا عن عهودهم لقوة المعتدين وإلا كانوا كالحمقاء التى تحكم غزلها طول النهار ثم تنقضه آخر اليوم مهدرة جهدها.

تقبل الدنيا على الإنسان فيغتر بكثرة خيراتها ويلهيه ذلك عن فعل الخير وتمر به الأيام سراعا حتى إذا انقضى أجله لم يجد من عمله ما يؤهله للحياة الآخرة. فإقبال الدنيا كغزارة الماء الذى ينزل من السماء وإهمال الإنسان للأعمال الصالحة وانشغاله بالآمال الزائلة كنبات الأرض فإذا صادف إقبال الدنيا انشغالاً بالآمال الزائفة اختلط هذا وذاك فكانت النهاية زوال الحياة والنعمة كلتيهما يقول الله تعالى: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ (الكهف: ٤٥ ـ ٤٦).

قد يبذل الكافر ماله فى سبيل الخدمة العامة ويظن بهذا أنه سيلقى جزاء حسنًا فى الحياة الآخرة غير أن فساد الاعتقاد يفسد كل عمل صالح. فمثل اغترار الكافر بما يقدمه من عمل صالح مع الكفر كمثل ظمآن يمشى فى الصحراء فيرى سرابًا فى مسطح بعيد من الأرض فيسرع إليه ينبغى أن يروى منه غلته حتى إذا بلغه اكتشف أنه لم يكن أكثر من خدعة ووجد عنده عذاب الله سبحانه وتعالى. أو أن هذا الاغترار كالظلمات التى بعضها فوق بعض وأن الخدعة هنا لا ترتبط بالسراب وإنما ترتبط بالماء الحقيقى نفسه لأن هذه الظلمات فى بحر متلاطم عليه موج فوقه موج وفوق ذلك سحاب فلو أخرج المرء فى هذه البيئة يده لم يكد يراها. ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ۚ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ (النور: ٣٨ ـ ٤٠).

هل تقوم الشركة بين السيد والعبد الواقع فى ملكه أى بين المالك والمملوك وهل

يخشى السيد اعتراض شريكه العبد على بعض تصرفاته كما يخشى اعتراض شريكه الحر؟ "إذا كان الجواب بالنفى فكيف يجعل الكفار خلق الله شركاء لله فى الألوهية؟ ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَـٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (الروم: ٢٨).

كان النبى صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين يجاهدون الكفار فى سبيل الله فكانوا أشداء فى الحق كما كانوا متراحمين فيما بينهم حريصين على شعائر دينهم طلبا لرضوان الله تعالى حتى لقد كنت تعرفهم بسيماهم التى فى وجوههم من أثر سجودهم فى الصلاة. لقد ورد ذكرهم فى التوراة من نسبتهم إلى هذه الصفات المذكورة. أما فى الإنجيل فقد جاء تمثيلهم بمثال زرع أخرج ثمرة ثم ما زال هذا الثمر ينمو حتى بلغ مرحلة النضج مستويًا على سيقان النبات يعجب من زرعه وقد جعلهم الله سبحانه على هذه الصورة ليغيظ بهم الكفار الذين يناصبونهم العداء. ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ۝ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (الفتح: ٢٩).

أما أحبار اليهود فقد وضعت أمانة المحافظة على التوراة فى أيديهم ولكنهم لم يحسنوا حمل هذه الأمانة فحرفوا فيها وأساءوا فهمها وتفسيرها وإنكار ما فيها من إشارات واضحة إلى ظهور الإسلام وحرفوا نصوصها حتى انتهت فى أيديهم إلى نص آخر غير الذى نزل على موسى. وبذلك أصبحوا لا يعلمون حقيقة ما

يحملون فكان مثلهم كمثل حمار يحمل على ظهره أسفارًا ولكنه لا يدرى من أمرها شيئًا. ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (الجمعة: ٥).

وهكذا نرى وضع المشبه فى صورة المشبه به فى هذه الأمثال يأتى بدرجة من الإحكام تثير فى النفس من التأثير ما يجعلها تحس جمال الأسلوب ودقة التصوير وبخاصة إذا أضفنا إلى جمال التصوير جمال التعبير.

العلاقات الملفوظة والعلاقات الملحوظة فى النص القرآنى

الاتصال أهم وظائف اللغة، ونقل المعنى اللغوى من الملقى إلى المتلقى أهم وظائف الاتصال. من هنا كانت فروع علم اللسانيات معنية فى الأساس بالبحث فى أنواع المعانى من طبيعية (أو انطباعية) إلى وظيفية إلى عقلية إلى اجتماعية إلى غير ذلك، وبالبحث فى وسائل الوصول إلى كل نوع من هذه الأنواع يستوى فى ذلك أن تكون وسيلة الوصول إلى المعنى من خلال الصوتيات أو الصرف أو النحو ومن خلال النص بظواهره المختلفة. ولما كانت اللغة كغيرها من موضوعات البحث لا يمكن تناولها إلا بواسطة التحليل الذى يضع عناصرها فى نظام هرمى ذى مستويات متدرجة، لكل منها مفاهيمه التى تختلف عن مفاهيم المستويات الأخرى التى تقع فوقه أو تحته، والتى يمهد الأسفل منها لفهم الأعلى، وجدنا اللغويين العرب يبنون فكرهم النحوى فى مستويات ثلاثة هى: الأصوات، والصرف، والنحو. وربطوا بين هذه الفروع الثلاثة وبين مبدأين رأوهما غاية مطلوبة للاستعمال العربى هما: طلب الخفة، وأمن اللبس. وجعلوا طلب الخفة غاية الصوتيات والصرف، ثم جعلوا أمن اللبس (أو الفائدة أو الإفادة كما يسمونه) غاية علم النحو. وهكذا يمكن تلخيص منهجهم فى أنهم جعلوا الصوتيات والصرف لدراسة المبانى، وجعلوا دراسة النحو للعلاقات السياقية سواء ما كان من هذه العلاقات ملفوظًا أم ملحوظًا.

كان عليهم أول الأمر أن يرصدوا المبانى اللغوية العربية التى تقوم بينها

العلاقات فى السياق فقسموا الكلم إلى اسم وفعل وحرف. ورأوا أن الاسم ما دل على مسمى، وأن الفعل ما دل على حدث وزمن، وأن الحرف ما ليس كذلك، ثم غيروا هذا التعريف السلبى للحرف فقالوا: الحرف ما دل على معنى فى غيره، ثم أضافوا إلى ذلك أن الحرف ما دل على معنى عام. وقالوا فى اللفظ المبنى للشبه المعنوى: إنه دل على معنى عام حقه أن يؤدى بالحرف. هذه العبارة الأخيرة أضافت بعض الوضوح إلى المقصود بمعنى الحرف كما يظهر من النقاط التالية:

أ ـ الحرف يدل على معنى فى غيره (أى علاقة بين عنصرين ليس الحرف واحدًا منهما).

ب ـ هذا المعنى ليس دلالة على مسمى ولا على اقتران حدث وزمن.

ج ـ معنى الحرف عام يشار إليه بصيغ مصدرية مثل الظرفية والاستعلاء ومطلق الجمع والترتيب والتعقيب والشرط والنفى إلخ. وكلها معان عامة.

د ـ أما إذا كان الحرف له الصدارة فى الجملة كالحال فى أدوات الاستفهام والشرط والنفى إلخ، فإن الأداة تحدد معنى الجملة من جهة وتربط بين عناصرها من جهة أخرى وترهص بالجواب إن كانت الجملة من ذوات الجواب وقد تغنى الأداة عن ذكر الجملة عند وجود القرينة نحو قولك: وإلا فلا.

وتعد العلاقة ملفوظة إذا عبر عنها الحرف ونحوه، فإذا فهمت العلاقة بقرينة عقلية ولم تعتمد على اللفظ سميت فى عرف هذا البحث علاقة ملحوظة. ومن شأن العناصر اللفظية سواء ما كان منها اسمًا أو فعلاً أو حرفًا أن تقع من الجملة فى مواقع تكشف فيها عن المعانى النحوية التى سميناها العلاقات. ففى قولنا: الشمس طالعة شغل الاسم موقع المبتدأ وشغل الوصف موقع الخبر وعبرت المطابقة فى الإفراد والغيبة والتأنيث عن الربط بينهما ففهمنا أن الوصف مرتبط

بالاسم فى هذه الجملة وهذا هو المعنى النحوى. ولكننا لا نستطيع عند هذا الحد أن ننسب هذه الجملة إلى الحقيقة أو إلى الـمجاز. بل إننا عندما نسمع رجلاً يقول: "زرت صديقى فاختلفت معه فى أمر فغادرته غاضبًا" لا ندرى من الذى كان غاضبًا من الصديقين، ولا نستطيع أن نصل إلى الـمعنى المقصود من خلال إعراب هذا الكلام. وإذا قرأنا قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ ﴾ (الأحزاب: ٤٨) لـم ندر إلا بعد الإطلاع على السيرة النبوية الشريفة من الذى كان يؤذى الآخر. من هنا يلزمنا أن نقول إن من شأن السياق (سواء كان جـملة واحدة أم عدة جـمل) ألا يدل على معناه التام إلا بالاستعانة بقرائن من داخل النص وخارجه.

سبق منذ قليـل أن أشرنـا إلى أقسام الكلم فى عـرف النحاة، وأود أن أشـير الآن إلى أن هـذا التقسيم كـان موضع نقـد فى كتابـى: "اللغـة العربيـة معناها ومبناها" (١٩٧٣)، وأننى قسمت الكلم بناءً على هذا النقد إلى سبعة أقسام يختلف كل منها عن بقيتها معنىً ومبنىً. ولقد وجدت أن الذى دفع النحاة إلى اختيار التقسيم الثلاثى أمورٌ ثلاثة نبهت إليها فى كتابى المذكور، وهى:

١ ـ قد ينقل اللفظ من القسم السباعى الذى هو منه إلى قسم آخر فيؤدى معنى هذا القسم.

٢ ـ قد يتعدد معنى اللفظ دون نقل أو بعد أن ينقل إلى قسم آخر.

٣ ـ قد يعاقب اللفظ لفظًا من قسم غير قسمه فينوب عنه أو يسد مسده أو يعوض عنه دون نقل.

وفيما يلى بيان كل إجراء من هذه الإجراءات:

١ ـ النقل:

أشار النحاة الأقدمـون إلى ظاهـرة النـقل فى موضعين: العلم الـمنقول، والتمييز الـمحول عن الفاعل أو الـمفعول. ولـم يعيروا انتباها لانتشار هذه

الظاهرة بين عناصر اللغة. فالنقل وثيق الصلة بالقواعد وبالمؤشرات الأسلوبية كما سنرى بعد قليل، وهو شائع فى حقل المبنيات والظروف المنقولة وفى المجاز اللغوى وأسماء الأعلام إلخ. فأما فى مجال أسماء الأعلام فحسبنا أن نقرأ قول ابن مالك:

ومنه منقول كفضل وأسد وذو ارتجال كسعاد وأدد

وأما المجاز فيكفى أن نقرأ تعريفه الذى ينص على أن المجاز "نقل اللفظ من معناه الأصلى إلى معنى آخر لعلاقة بين المعنيين مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلى". وأما بالنسبة إلى المبنيات فدعنا ننظر إلى قسم واحد من تقسيمنا السباعى للكلم وهو قسم الضمير. لقد كان من قبيل المصادفة بعد إجراء التقسيم السباعى أن وجدت لدى ابن مالك أيضًا ما يؤيده من قوله فى الألفية:

وما لذى غيبة أو حضور كأنت وهو سم بالضمير

فلما حاولت تطبيق هذا التعريف على قسم الضمير فى كتابى: "اللغة العربية ومعناها ومبناها" (١٩٧٣) وجدته يسمح بالوضع التالى:

كما أن من المبنيات قسمًا آخر من أقسام الكلم هو الظرف ويتمثل هذا القسم فى الظروف الأصلية وهى كما يلى:

ظرف زمان	ظرف مكان
إذ	أين
إذا	أنى
أيان	حيث
متى	
لما	

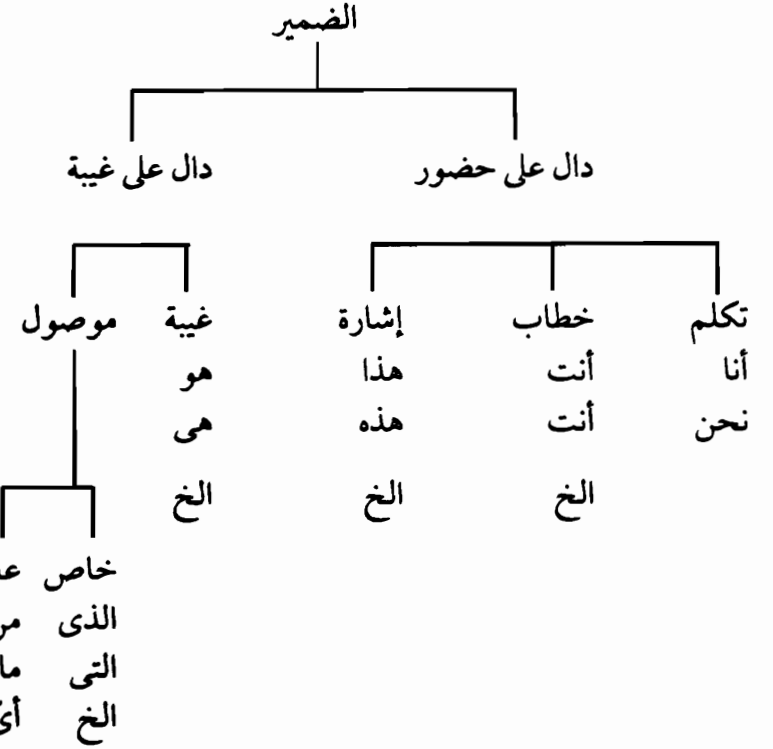

فأما الإشارة فقد تنقل من معناها الأصلى إلى كونها رابطة بين أجزاء النص السابقة كما فى:

* ﴿ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴾ (الأنبياء: ١٠٦).

* ﴿ مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ (المؤمنون: ٢٤).

* ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ (لقمان: ١١).

* ﴿ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴾ (ص: ٥٥).

* ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ ﴾ (ق: ٢٢).

وقد تكون الإشارة إلى مضمون لاحق كما فى قوله تعالى:

* ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (آل عمران: ١٣٨) أى فيما

يلى بيان للناس هو قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ ﴾ (آل عمران: ١٣٩ وما بعدها) فالإشارة فى الشواهد الأولى تعود إلى متقدم لفظًا وفى الحالة الأخيرة تشبه ضمير الشأن فى العود إلى متأخر.

دعنا الآن نلق نظرة على نقل الضمير الموصول إلى وظائف أخرى ليست له فى الأصل، ولنأخذ أولاً "الذى" واستعمالها أداة مصدرية فى قوله جل شأنه ﴿ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا ﴾ (التوبة: ٦٩) أى كما خاضوا، أى كخوضهم. وقد تنقل هى وفروعها إلى أن تكون شرطية فيقترن خبرها بالفاء كما لو كان الخبر جواب شرط. وفيما يلى شاهدان دلت فى أحدهما على الخبر المحض وفى الآخر على معنى الشرط فاقترن الخبر بالفاء، فمثال الأول الدال على الخبر المحض:

* ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ (البقرة: ٢٦٢) ومثال الثانى الدال على الشرط.

* ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ (البقرة: ٢٧٤) والأمر كذلك فى ال الموصولة وفى الذين واللائى إلخ نحو:

* ﴿ وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا ﴾ (النساء: ١٦).

* ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ﴾ (المائدة: ٣٨).

* ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ﴾ (النور: ٢).

* ﴿ وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ ﴾ (الطلاق: ٤) على فهم جملة "إن ارتبتم" على معنى الاعتراض.

والموصولات المشتركة (وهى من وما وأى) أوغل فى ظاهرة النقل من أخواتها السابقات، وذلك أصدق بالنسبة لـ "ما وأى" منه بالنسبة لـ "من" لأنهما يقبلان من

صور الإلصاق بعناصر أخرى أكثر مما تقبله "من" وبخاصة عندما تستعمل "ما" منقولة إلى معنى الشرط فلقد نجد أداة شرط تضم ما وأى فى صورة "أيما" كما فى قوله تعالى:

* ﴿ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ﴾ (القصص: ٢٨).

كما نجد "ما" المنقولة إلى الشرط تتصل بالظروف لتضيف إلى معنى الشرط الذى لها ظلا من ظلال الظرفية. وذلك فى نحو إنما وحيثما وأينما إلخ كما فى قوله تعالى:

* ﴿ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾ (البقرة: ١٤٤).

* ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ (البقرة: ١١٥)

فالشرط المعبر عنه بواسطة "ما" فى هذين الشاهدين جاء مقيدًا بالظرفية المكانية. والظرفية أيضًا تنتقل عن معانيها وينقل غيرها من العناصر إلى معناها. فمن نقل الظرف إلى معنى آخر غير الظرفية ما نراه من نقل "إذ" إلى المصدرية فى قوله تعالى:

* ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾ (آل عمران: ٨) أى بعد أن هديتنا. ونقلها إلى إفادة التعليل فى قوله جل شأنه:

* ﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ (الأحقاف: ١١) أى ولأنهم لم يهتدوا به، ونقلها إلى إفادة الاستفتاح فى قوله تعالى:

* ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ ﴾ (البقرة: ٣٤) فالاستفتاح هنا أوجه من تقدير "اذكر" لأن النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن حاضرًا هذا القول حتى يطالب بتذكره. فالتقدير. ولقد خلقنا. ومن الظروف ما ينقل إلى الشرط والاستفهام مثل متى وأيّان وأنى كما فى الشواهد التالية:

* ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾ (الإسراء: ٥١).

* ﴿ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ (آل عمران: ٣٧).

* ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴾ (النازعات: ٤٢).

أما ما ينقل إلى الظرفية من أقسام الكلم الأخرى فيشمل ما يلى:

١ ـ المصادر نحو: آتيك طلوع الشمس.

٢ ـ أسماء الزمان والمكان نحو: آتيك مطلع الشمس، وأقعد منك مقعد التلميذ.

٣ ـ بعض حروف الجر نحو: مذ ومنذ.

٤ ـ بعض ضمائر الإشارة نحو: هنا وثم والآن وأمس.

٥ ـ بعض الأسماء المبهمة التى لا يتحدد معناها إلا بوصف أو إضافة أو تمييز نحو أسماء المقادير والعدد والجهات والأوقات، ونحو: قبل وبعد ودون ولدن وبين وعند إلخ. وإذا كانت "ما" تدل كما سبق على الشرط عند اتصالها بالظروف الأصلية فإنها إذا اتصلت بالظروف المنقولة فإنها تدل على المصدرية دون الشرط كما فى: قبلما وبعدما ودونما وبينما وعندما إلخ.

وهكذا تعد ظاهرة النقل مددًا لتعدد المعنى كما سنرى بعد قليل.

٢ ـ تعدد المعنى للمبنى الواحد:

العناصر التى تأذن بتعدد المعنى للمبنى الواحد هى: الحروف والأدوات والصيغ الصرفية والمفردات المعجمية وتراكيب الجمل. وقد يتعدد المعنى للمبنى الواحد والمبنى ما يزال فى قسمه من أقسام الكلم، أو يتعدد بانتقال المبنى من قسم إلى قسم آخر. مثال الحالة الأولى ما نراه مثلاً من تعدد معانى "من" الجارة دون أن يشاركها فى معانيها الأصلية حرف آخر فهى تستقل بإفادة التبعيض وابتداء

الغاية دون أن يشاركها فى ذلك حرف آخر فهذا المتعدد بحسب الأصل، ولكن لها معانى أخرى بحسب النقل منها البدلية التى تشارك فيها الباء، وتدل اللام بحسب الأصل على الملك وشبه الملك ولكنها تدل بالنقل على انتهاء الغاية والتعدية ومعنى عن والتعليل، وتدل الباء بحسب الأصل على الاستعانة والتعويض والإلصاق ولكنها تدل بالنقل على البديل والتعدية والظرفية والسببية والمعية والمجاوزة.

سبق أن ذكرنا أن "ما" بحسب التقسيم السباعى ضمير موصول كما فى قوله تعالى:

* ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ (البقرة: ٣٠). فهذا معناها بحسب الأصل، ولكنها تنقل إلى:

١ ـ النفى، نحو: ﴿وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ﴾ (البقرة: ٩).

٢ ـ الاستفهام، نحو: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ (البقرة: ٢٤٦).

٣ ـ التعجُّب، نحو: ﴿فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ (البقرة: ١٧٥).

٤ ـ التنكير، نحو: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا﴾ (البقرة: ٢٦).

٥ ـ الزيادة، نحو: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا﴾ (مريم: ٢٦).

٦ ـ الشرط، نحو: ﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآ﴾ (البقرة: ١٠٦).

* ﴿فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِ﴾ (البقرة: ١١٥).

* ﴿وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ﴾ (البقرة: ١٤٤).

١ ـ المصدرية، نحو: ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ (البقرة: ١٣).

* ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ﴾ (البقرة: ٦١).

* ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ (البقرة: ٧٥).

فهذه المعانى فيما عدا المعنى الأصلى المذكور إنما جاءت عن طريق نقل الضمير إلى استعمال الأداة. أما تعدد معنى الصيغة الصرفية فمثاله دلالة صيغة فعيل على مسمى وعلى مصدر وعلى صفة مشبهة بمعنى فاعل أو بمعنى مفعول كما يلى:

* ﴿ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ (الحج: ٢٣).

* ﴿ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ﴾ (الأنبياء: ١٠٢).

* ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (العنكبوت: ٢٦).

* ﴿ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾ (النساء: ١٦٩).

لا يكاد المرء (عند نظره فى معانى مفردات المعجم) يظفر بكلمة مفردة ذات معنى واحد فقط وإنما يتعدد معنى المفردة فلا يتحدد إلا بمعونة السياق، ومن ثم حَرَص واضعو المعاجم على ذكر الشواهد لما ينسبونه إلى الكلمات من معان فإن لم يجدوا الشاهد جاءوا بالمثال لتكون بيئة الكلمة مبررًا لنسبة المعنى إليها. فإذا أخذنا الفعل "ضرب" ومشتقات مادته مثالاً نبين به صدق ما نقول وجدنا ما يلى:

١ ـ أدبَّ، نحو: ﴿ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ﴾ (النساء: ٣٤).

٢ ـ ذكر، نحو: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا ﴾ (النحل: ١١٢).

٣ ـ أقام، نحو: ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌ ﴾ (الحديد: ١٣).

٤ ـ فرض، نحو: ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا ﴾ (آل عمران: ١١٢).

٥ ـ مهد، نحو: ﴿ فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا ﴾ (طه: ٧٧).

٦ ـ صفع، نحو: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴾ (محمد: ٢٧).

٧ ـ ركض، نحو: ﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ﴾ (النور: ٣١).

٨ ـ أرخى، نحو: ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ (النور: ٣١).

٩ ـ نقر، نحو: ﴿ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ﴾ (البقرة: ٦٠).

١٠ ـ سعى، نحو: ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ (البقرة: ٢٧٣).

١١ ـ حجب، نحو: ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا ﴾ (الزخرف: ٥).

١٢ ـ عطَّل، نحو: ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾ (الكهف: ١١).

وهناك معان أخرى لمشتقات هذه المادة لم نجد لها شواهد من القرآن الكريم، ومنها:

١ ـ حسب، نحو: ضرب ٥ × ٦.

٢ ـ تحير، نحو: ضرب أخماسًا فى أسداس.

٣ ـ استعمل، نحو: ضرب الهاتف.

٤ ـ خلط، نحو: ضرب البيض فى اللبن.

وليست تراكيب الجمل بمنأى عن تعدد المعنى، فإذا سمعت من يقول "بارك الله لمحمد فى ماله وولده" فلن تجزم إلا بقرينة خارجية فيما إذا كان هذا التركيب خبرًا أو دعاء. وإذا سمعت من يقول "ما هذا"؟ فلن تميز بين الطلب والإنكار إلا بالنغمة فى الكلام. وهكذا يتعدد المبنى للمعنى الواحد إما بحسب الأصل وإما بالنقل.

٣ ـ المعاقبة:

المعاقبة حلول عنصر محل عنصر آخر فى موقع معين فالفرق بين المعاقبة والنقل ما يلى:

أ ـ معنى النقل يتعدد ومعنى المعاقبة واحد.

ب ـ النقل إجراء أسلوبى والمعاقبة إجراء قاعدى.

ج ـ النقل لا يرتبط بموقع معين والمعاقبة ترتبط بالموقع.

د ـ النقل تعدد المعنى للمبنى والمعاقبة تعدد المبنى للموقع.

ويلزمنا الآن أن نبين المقصود بظاهرة المعاقبة.

من القواعد الشهيرة فى عرف النحويين ما يلى:

١ ـ ينوب المفعول به عن الفاعل.

٢ ـ كل وبعض ينوبان عن المفعول المطلق.

٣ ـ حروف الجر ينوب بعضها عن بَعض.

٤ ـ الفاعل يسد مسد الخبر فى باب الابتداء.

٥ ـ الحال تسد مسد الخبر فى الباب نفسه.

٦ ـ أن وما بعدها تسد مسد مفعولى ظن أو علم.

٧ ـ "ترك" أغنى عن "ودع" فلم يرد "ودع" فى معجم اللغة.

٨ ـ قد يؤول الجامد بالمشتق.

٩ ـ قد يكون التنوين عوضًا عن محذوف.

١٠ ـ "يا" حلت فى النداء محل أدعو.

١١ ـ من الأخبار ما يتقدم على المبتدأ وجوبًا أو جوازًا.

١٢ ـ الأصل فى الربط إعادة اللفظ، ويتم الربط بغير ذلك أيضًا.

١٣ ـ إذا وقع المقصور أو المنقوص فى موقع الصحيح الآخر قدرت العلامة الإعرابية عليهما.

١٤ ـ إذا وقع المبنى أو الجملة الفرعية موقع المفرد تعلق الإعراب بالمحل لا باللفظ.

وهكذا نجد النحاة يعبرون عن مفهوم المعاقبة بعبارات متعددة مثل:

النيابة ـ السداد مسد شيء ما ـ الإغناء عن شيء ما ـ التأويل ـ التعويض ـ الحلول محل عنصر ـ شغل الموقع المقرر بحسب الرتبة إلخ. ومن شواهد المعاقبة ما يلي:

* ﴿ طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾ (طه: ١ ـ ٣).

لا يصح أن يعد ذلك من تعدد معنى إلا لأن السياق مختلف عما ترد فيه إلا، فهى هنا تأتى فى بداية جملة لأن الجملة السابقة انتهت بعبارة "لتشقى" وجاءت "إلا" لتعبر عن الاستدراك أى أنها عاقبت "لكن" ومن ذلك أيضًا:

﴿ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ (الأعراف: ١١). أى لكن إبليس لم يكن من الساجدين.

* ﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ﴾ (التوبة: ٧) أى لكن الذين عاهدتم....

* ﴿ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝١٠ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ (هود: ١٠ ـ ١١) أى لكن الذين صبروا.

* ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ۝٥٩ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴾ (مريم: ٥٩ ـ ٦٠) أى لكن من تاب...

* ﴿ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (الشعراء: ٢٢٦ ـ ٢٢٧) أى لكن الذين آمنوا لا يتبعهم الغاوون.

* ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ (الإنشقاق: ٢٤ ـ ٢٥) أى لكن الذين آمنوا لهم أجر غير ممنون.

* ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ (الليل: ١٩ ـ ٢٠) أى لكن يؤتى ماله ابتغاء وجه ربه الأعلى.

* ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ (التين: ٥ ـ ٦).

وإذا كان الأصل فى معنى "إلا" هو الاستثناء وهو يتطلب أن يكون ثمة مستثنى منه مقدم على "إلا" فإن الملاحظ فى هذه الشواهد أن "إلا" جاءت فيها بعد تمام جملة سابقة وفى صدارة جملة لاحقة. وهذا الموضوع الذى حلت فيه يتنافى مع معناها الأصلى ويدعو للتفكير فى أداة أخرى تناسبه وسيجد المتأمل أن هذه الأداة هى "لكن" وأن "إلا" عاقبت "لكن".

وشبيه بذلك ما نلاحظه فى سياق النص القرآنى من معاقبة "بل" للفظ "إن" قبل الاسم والفعل المضارع وللفظ "قد" قبل الفعل الماضى. وفيما يلى بعض الشواهد على ذلك:

* ﴿ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴾ (آل عمران: ١٥٠) أى إن الله مولاكم.

* ﴿ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ﴾ (الأنعام: ٢٨) أى قد بدا لهم.

* ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ (الشعراء: ١٦٦) أى إنكم قوم عادون.

* ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾ (الصافات: ١٢) أى قد عجبت وهم يسخرون.

* ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ (الأعلى: ١٦) أى إنكم تؤثرون الحياة الدنيا.

فإذا كان المعنى الأصلى للفظ "بل" هو الإضراب فإن "بل" فى هذه الشواهد لم يسبقها قول يصلح للإضراب عنه وإنما جاءت لإفادة التأكيد.

العلاقات الملحوظة:

لم يقصر دارسو التراث اللغوى العربى فى تأمل العلاقات الملحوظة سواء فى تناولهم للنحو أو للبلاغة. فَمِمَّا تداوله النحاة من العلاقات الملحوظة فكرة الأجوبة والمحل الإعرابى والحذف عند أمن اللبس والفروق الدلالية بين معانى الصيغة الواحدة كالتعرف على الصفة المشبهة بدلالتها على الدوام والثبوت، وعلى اسم الفاعل بدلالته على التجدد والانقطاع فالفرق بين لفظ قائم فى الجملتين الآتيتين يعود إلى ذلك فقط:

فلان قائم يصلى: اسم فاعل لأن الصلاة ستنتهى بعد قليل.

الله قائم على كل نفس بما كسبت: صفة مشبهة لأن قيامه سبحانه على النفوس لا ينقطع.

أما البلاغيون فحسبنا أن نلاحظ تفريقهم بين أسلوبين للتشبيه أحدهما ملفوظ يسمى التشبيه والثانى ملحوظ يسمى المشابهة، واستعمال المشابهة فى فهم الاستعارة من حيث هى علاقة ملحوظة بين المعنى الأصلى والمعنى المجازى. كما لاحظوا علاقة اللزوم فى الكناية وفصلوا القول فى علاقات المجاز اللغوى على النحو التالى:

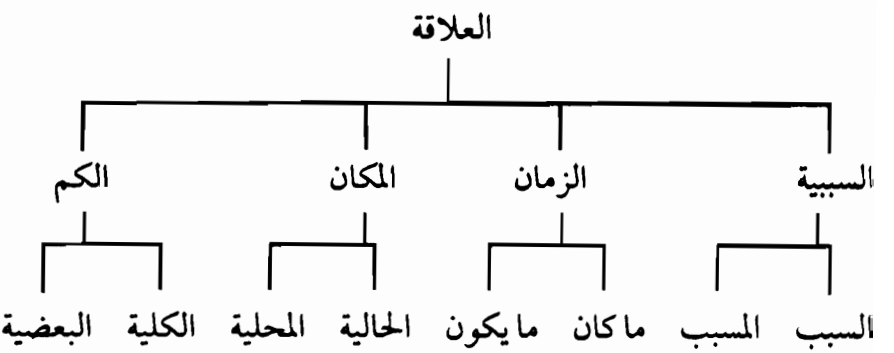

وتناولوا دلالات الفصل فى مقابل دلالات الوصل، واعترفوا بمفهومى الحال

والمقام إلخ. وأما الأصوليون فقد فرقوا بين مفهومى الموافقة والمخالفة وبين الفحوى والإشارة والاقتضاء والمعنى الضمنى وغير ذلك من المفاهيم التى تدل على أن التراث العربى نتاج عقول تستحق الإعجاب.

غير أن النحاة حبسوا جهودهم فى الجملة الواحدة ولم يتجاوزوها إلا إلى علاقتها بجارتها المباشرة سواء كانت هذه العلاقة إضرابًا أم استدراكًا أم عطفًا أم غير ذلك من العلاقات الملفوظة، أى ذات الأدوات الدالة على هذه العلاقة. "وعند التأمل فى القرائن الملحوظة (التى لم تعبر عنها أداة ما) نراها تتراوح بين الوضوح ودقة الاستخراج وأن تكون عرضة للاحتمال فى بعض الحالات إذ يتردد المرء فى نسبة موقع ما إلى هذه العلاقة أو تلك لأن كلاً من النسبتين ممكنة حتى تقوم قرينة ما على أن إحدى العلاقتين أولى بالاعتقاد من الأخرى" (البيان فى روائع القرآن (١ ـ ٤٠٤) انظر مثلاً إلى قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران: ١٠٢). وسنرى أن العلاقات الملفوظة هنا تقول: إن جملة "ولا تموتنَّ إلا وأنتم مسلمون" تدل بحسب تركيبها النحوى على النهى عن الموت إلا فى حال إسلام، ولكن الموت ليس من الأمور التى ينهى عنها. عندئذ نترك للنحاة أمر التحليل اللفظى دون أن نعارضهم فى دلالة "لا" على النهى، ونلجأ إلى فهم الجملة فى ظل دلالة السياق، فإذا تأملنا النص وجدناه يشتمل على جملة: "اتقوا الله" بصيغة الأمر قبل عبارة "ولا تموتن" فساغ لنا فى هذه الحالة أن نصرف معنى "ولا تموتن" إلى معنى الأمر أيضًا ونفهم المعنى بأنه: "وتمسَّكوا بالإسلام حتى الموت". أى أن المعنى العام هو: "اتقوا وتمسَّكوا". هذا هو المقصود باحتمالات فهم العلاقة.

وسنحاول فيما يلى أن نعرض طائفة من هذه العلاقات الملحوظة بين عناصر النص القرآنى:

١٠ ـ علاقة السببية:

تعلمنا تجارب الحياة أن السبب يسبق المسبب دائمًا. أما الاستعمال اللغوى فيفرق بين السببية الملفوظة والسببية الملحوظة. فأما الملفوظة فقد يتقدم فيها السبب على المسبب فتكون الأداة هى فاء السببية نحو: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓا إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ﴾ (هود: ١١٣) وقد يتقدم المسبب على السبب فتكون الأداة هى لام التعليل نحو: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ (البقرة: ١٤٣) فالشهادة على الناس سبب لجعل الأمة وسطًا وقد يتم ذلك بعبارات أخرى تذكر فيها حروف أخرى كالباء فى ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ (آل عمران: ١٨٢). أما العلاقة الملحوظة فتقوم بين مسبب سابق وسبب لاحق دائمًا كما سنرى فى الشواهد الآتية التى تعبر عنها فيها لام التعليل وتتضح علاقة السببية فى نص الآيات القرآنية التالية:

* ﴿ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ﴾ (البقرة: ٥٧).

قد يوجه النحاة هذا النص إحدى وجهتين:

أ ـ أن قوله تعالى: ﴿ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ﴾ جملة مستأنفة.

ب ـ أن هذا القول فى تقدير: "وقلنا كلوا..." وهذا التقدير أكثر شيوعًا لدى المفسرين. غير أن الأقرب إلى الفهم هنا هو علاقة السببية مع تقديم المسبب وتأخير السبب وهى رتبة تناسب لام التعليل" أى أنزلنا لتأكلوا من طيبات ما رزقناكم.

* ﴿ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا ﴾ (البقرة: ٧٠).

أى لأن البقر تشابه علينا.

* ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ۖ وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾

(البقرة: ١٢٥) أى لتتخذوا من مقام إبراهيم مصلى، ومن لم يقتنع بقيام هذه العلاقة بين طرفيها فليعد بذاكرته إلى تأويل النهى بالأمر فى قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ وقد سبق ذلك منذ قليل. فليست العلاقة هنا وهناك مبنية على حذف الرابطة.

٢ ـ علاقة التفسير:

إذا كان التمييز النحوى كما يقول ابن مالك: "اسم بمعنى مِنْ مبين نكرة" فإن علاقة التفسير المقصودة هنا تشير إلى جملة فى النص تكشف عن المقصود بجملة سابقة أو عنصر سابق لا يشترط له أن يكون نكرة. وفيما يلى عدد من الشواهد على هذه العلاقة.

* ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (البقرة: ٦).

لقد تساوى فى نص الآية الإنذار وعدمه فاحتاج المتلقى إلى فهم كنه هذا التساوى ومرجعه:

أ ـ أهو عدم المبالاة ؟

ب ـ أم هو الإصرار على موقف ما على رغم النتائج المحتملة؟

ج ـ أم عناد لا ينفع معه الإنذار؟

فلما جاءت جملة "لا يؤمنون" فسرت التسوية التى فى الجملة السابقة بأنها مجرد عناد.

* ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ﴾ (البقرة: ٣٧ ـ ٣٨).

* فقوله تعالى: ﴿ ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ﴾ هو الكلمات التى تلقاها آدم من ربه.

* ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ (البقرة: ٩٦).

* فتفسير حرصهم على الحياة أن أحدهم يود لو يعمَّر ألف سنة فهم أكثر حرصًا من الذين أشركوا.

* ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ (البقرة: ١٨٦). ففسر سبحانه مدى القرب بإمكان إجابة الدعوى (أى: قريب بحيث أجيب دعوة الداع إذا دعان).

* ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ (الإخلاص: ١ ـ ٤). فالذى بعد لفظ "الصمد" من هذه السورة تفسير له.

٣ ـ علاقة التفصيل:

إنما يأتى التفصيل مقترنا بإجمال فيكون بمنزلة التعريف من التنكير إذ يجد المرء فى كل منهما دلالة، ولكن دلالة التفصيل كدلالة التعريف أكثر تحديدًا من قرينتها. وفيما يلى بعض الشواهد:

* ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ ﴾ (البقرة: ٢٨٥) فالإجمال فى هذه الآية جاء فى موضعين: الأول: المؤمنون.

والثانى ما أنزل إلى الرسول، فكان تفصيل الأول بقوله جل شأنه "كل آمن" وكان تفصيل الموضع الثانى بقوله تعالى: ﴿ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾ فكان التفصيل أوغل فى الفهم من الإجمال فى الموضعين.

* ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ

عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟ ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ ۘ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ﴾ (المائدة: ١ ـ ٣) فجاء الإجمال أولاً بقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ وهذا القول يساوى فى أساليبنا الحاضرة عبارة: (إلا ما يلى) فكانت المحرمات هى:

الصيد مع الإحرام ـ الشعائر ـ انتهاك الشهر الحرام ـ التعرض للهدى والقلائد وحجَّاج البيت الحرام ـ والعدوان بسبب البغض والشنآن ـ وأكل الميتة ـ والدم ـ ولحم الخنزير ـ والقربان المقدم للأصنام ـ والمنخنقة والموقوذة والمتردية من أعلى والتى ماتت نطيحة وما افترسه السبع إلا عند تذكية هذه الخمس الأخيرة قبل الموت ـ ومباشرة الميسر.

وهكذا كان تفصيل عبارة: "ما يتلى عليكم" شاملاً ثمانية عشر أمرًا محرمًا، فلما كان هذا العدد كثيرًا جاءت الآية التالية إرهاصًا بما سيخطر بأذهان المخاطبين بهذا التحريم فكان التعبير عن هذا الإرهاص بقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ﴾ أى سيقول لك المخاطبون ماذا تركت لنا بعد هذا التحريم؟

* ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ (الكهف: ٨٤ ـ ٨٦) فكان الإجمال أولاً بقوله: ﴿سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ ثم فصل تلك التلاوة وذلك بقصة استغرقت خمس عشرة آية من سورة الكهف.

٤ ـ علاقة الحوار:

* ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ ۖ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴾ (البقرة: ٦٧ ـ ٦٨).

* ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾ (البقرة: ١٨٩).

* ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ﴾ (البقرة: ٢١٩).

* ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى ﴾ (البقرة: ٢٢٢).

٥ ـ علاقة الإضراب:

الإضراب إبطال كلام سابق يغلب أن يكون بالجمل الخبرية. ولكنه قد يكون بغيرها كما فى قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ (آل عمران: ١٦٩).

ومن شواهد علاقة الإضراب ما يلى:

* ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ (البقرة: ١١ ـ ١٢) أى بل هم مفسدون.

* ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة: ١٣) أى بل هم السفهاء، وقد جاء الإضراب هنا عن مضمون جملة إنشائية هى: "أنؤمن كما أمن السفهاء"؟

* ﴿ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ (البقرة: ٨٠ ـ ٨١) أى بل من كسب..... إلخ.

* ﴿ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (البقرة: ١١١ ـ ١١٢) أى بل من أسلم فله أجره عند ربه.

٦ ـ علاقة الإلزام:

يجرى التعبير عن هذه العلاقة فى الأغلب الأعم بعبارة: "تلك حدود الله" كما فى الشواهد التالية:

* ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ﴾ ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴾ (البقرة: ٢٢٩).

* ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ﴾ ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ﴾ (البقرة: ٢٣٠).

* ﴿ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ ﴾ ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ﴾ (النساء: ١٢ ـ ١٣).

* ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ ﴾ ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ﴾ (المجادلة: ٤).

* ﴿ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ﴾ (الطلاق: ١).

ولكن الإلزام قد يأتى بواسطة عبارات أخرى كما فى قوله تعالى:

* ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ ﴾ ﴿ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ (النساء: ٢٣ ـ ٢٤) فقد جاء التعبير عن علاقة الإلزام بعبارة: "كتاب الله عليكم".

٧ ـ علاقة الالتزام:

يأتى تعبير النص القرآنى عن الالتزام باستعمال لفظين هما "بلاغ" و"وعد" وقد اجتمعا فى قوله تعالى:

* ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (إبراهيم: ٤٧ ـ ٥٢) وجاء اللفظان معًا فى قوله تعالى:

* ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴾ (الأنبياء: ١٠٤ ـ ١٠٦).

* وانفرد لفظ البلاغ بالذكر فى قوله تعالى:

* ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ (الأحقاف: ٣٤ ـ ٣٥).

وانفرد لفظ الوعد بالذكر فى معظم الأحوال مع اختلاف ما ينسب إلى الوعد من صفات وذلك على النحو التالى:

أ ـ الوعد حق:

* ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا

ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴾ (النساء: ١٢٢).

* ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ﴾ (التوبة: ١١١).

* ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ﴾ (يونس: ٤).

* ﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا ﴾ (النحل: ٣٨).

* ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ (الكهف: ٢١).

* ﴿ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴾ (الكهف: ٩٨).

* ﴿ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ (القصص: ١٣).

* ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ (الروم: ٦٠).

* ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ (لقمان: ٣٣).

* ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ (فاطر: ٥).

* ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾ (غافر: ٥٥).

* ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ (غافر: ٧٧).

* ﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ (الأحقاف: ١٧).

ب ـ الوعد وعد الصدق:

* ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴾ (الأحقاف: ١٦).

ج ـ الوعد مسؤول:

* ﴿ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴾ (الفرقان: ١٦).

د ـ الوعد مأتي:

* ﴿ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴾ (مريم: ٦١).

هـ ـ الوعد وعد الله:

* ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ (الأنبياء: ١٠٤).

و ـ الوعد لا يخلف:

* ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ (إبراهيم: ٤٧).

* ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ﴾ (الحج: ٤٧).

* ﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الروم: ٦).

* ﴿ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ (الزمر: ٢٠).

ز ـ الوعد غير مكذوب:

* ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ (هود: ٦٥).

وهكذا نرى أن الله سبحانه وتعالى إذا ألزم عباده بما يفرضه عليهم من تكاليف التزم لهم بعقاب المذنب ومكافأة المحسنين.

٨ ـ علاقة الملابسة:

الملابسة اتفاق أمرين أو شركتهما فى المكان أو الزمان أو كليهما وهى العلاقة النحوية التى تقوم بين الفعل والحال فى نحو: "جاء زيد راكبًا" إذ يتفق المجئ والركوب فى المكان والزمان وإذا كان النحو بما يرصده للحال من الاشتقاق والإعراب والرتبة يجعل للحال علاقة ملحوظة فإن النص قد يجعل الملابسة بين عناصر السياق ملفوظة غير ملحوظة كما سنرى فيما يلى:

* ﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ﴾ (البقرة: ٦٠) فهناك علاقة ملابسة بين انفجار العيون والعلم بالمشارب ولو دخلت الواو قبل قد لكان لدينا جملة حالية بعلاقة ملفوظة.

* ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴾ (المائدة: ١٥) مجئ الكتاب ملابس لمجئ الرسول.

* ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ ﴾ (يوسف: ٦٩) فالقول ملابس للإيواء وربما صلح تفسيرًا له فتكون العلاقة مع هذا الفهم علاقة تفسيرية.

٩ـ علاقة الشرط:

هذه العلاقة حين تقوم بين عنصرين فى السياق النصى تجعل العنصر الثانى بمنزلة جواب الشرط للعنصر الأول وإن خلا العنصر الثانى من العلامات اللفظية الدالة على هذه العلاقة كما فى قوله تعالى:

* ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (البقرة: ١١٤).

أى: من منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه لم يدخل هذه المساجد من بعد إلا خائفًا..... إلخ.

* ﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ﴾ (الأنعام: ٤٦). أى إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم فلن يعيده إليكم، غيره وهكذا وقع الاستفهام موقع الجواب.

* ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ﴾ (التوبة: ٥٢) أى إن كنتم لا تتربصون بنا إلا خيرًا فنحن نتربص بكم العذاب.

* ﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ (طه: ١٢٥ ـ ١٢٦) أى إن كان ذلك كذلك فقد استحققته بما فعلت.

* ﴿ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (الأنبياء: ٥٣ ـ ٥٤) أى إن كانوا عبدوها فقد ضلوا كما ضللتم.

١٠ ـ علاقة الإنكار:

إذا كان الإضراب رفضًا لقول سابق فإن الإنكار قد يكون رفضًا لقول أو لعمل أو حدث. فمن إنكار القول ما نراه فى قوله تعالى:

* ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ﴾ (البقرة: ٢٧٥) أى كيف يصح أن يقولوا: إنما البيع مثل الربا ويخالفوا حدود الله؟

* ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ﴾ (المائدة: ٦٤) فقوله تعالى: ﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ﴾ جملتان دعائيتان لفظًا إنكاريتان معنى. أى كيف جاز لهم أن يقولوا هذا القول؟

* ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ ﴾ (البقرة: ٨٤ ـ ٨٥). فقوله ثم أنتم هؤلاء إلخ إنكار لإخلافهم وعدم التزامهم بما واثقوا الله عليه بدليل قوله: ثم أقررتم. ثم جاء تأكيد هذا المعنى بعد ذلك بقوله: "أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض".

* ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (يونس: ٢٢ ـ ٢٣) فقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ﴾ يحمل معنى الإنكار والتهديد فى وقت معًا لما فى موقفهم من التراجع عن العهد الذى قطعوه أمام الله سبحانه.

١١ـ علاقة الموقف:

الموقف قالب النصوص، ولا تتم دلالة النص إلا برعاية الموقف. والمواقف أنواع لا يمكن إحصاؤها وإن أمكن وصف كل منها على حدة. ولقد تكلم النقاد العرب عن أنواع من المواقف سموها أغراض الشعر فخرجوا بمواقف الشعراء من طابع الوقائع إلى طابع الأفكار المجردة. أى أنهم وضعوا كل وقائع المدح ضمن فكرة مجردة واحدة هى غرض المدح وكذلك فعلوا بالهجاء والرثاء والغزل إلخ. هذا هو تنظير النقد. أما عند تناول النص من أى نوع فقد كانوا فى الغالب يذكرون الملابسات التى أحاطت بإنتاج النص، وهذه الملابسات هى عناصر الموقف. والذى يتأمل بعض المواقف التى يوردها النص القرآنى سوف يلمح لها سمات خاصة يكشف عنها سياق النص. من هذه السمات ما نلاحظه من أن النص إذا كان له طابع الانفعال كانت الجمل قصيرة منفصلة بعضها عن بعض فليس بين الجملة وأختها رابطة لفظية من أى نوع. وهكذا تصبح العلاقة بين جمل النص ملحوظة لا ملفوظة. من ذلك قوله تعالى:

* ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ (المائدة: ١٠٥). فالفصل بين الجمل هنا جاء نتيجة لغضب الله على الذين دعوا إلى الإسلام فأعرضوا وأصروا على التمسك بدين آبائهم وذلك ما ترويه الآية التى تسبق الشاهد المذكور، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ﴾ (المائدة: ١٠٤).

* ﴿ وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ

تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ ﴾ (المائدة: ١١٦ ـ ١١٧). فالفصل هنا أوضح دليل على خوف عيسى من غضب الله.

* ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾ (القصص: ٦٢ ـ ٦٣). وفى الفصل دليل على فزع الذين حق عليهم القول. وفى غضب الله على المشركين ساق إليهم عددًا من الأسئلة الإنكارية التى تندد بدعاواهم وكل سؤال من هذه الأسئلة يأتى فى جملة قصيرة يليها أحيانًا جواب أقصر كما يلى:

* ﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (الطور: ٢٩ ـ ٤٣).

ثم تأمل فزع الملائكة عند سماع سؤال وجهه سبحانه إليهم:

* ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ (سبأ: ٤٠ ـ ٤١).

١٢ ـ علاقة التناص:

من العبارات المشهورة لدى مفسرى النص القرآنى الكريم قولهم: "القرآن يفسر بعضه بعضًا" وقد رأينا صدق هذه العبارة حين عرضنا منذ قليل ما سميناه العلاقة التفسيرية بين جملة وأخرى فى سياق النص القرآنى. غير أن الدرس الحديث للجانب الاستعمالى للغة، لم يقنع بالنظر فى علاقة الجملة بالجملة، وإنما تجاوزها إلى علاقة النص بالنص، فرأينا المفسرين يضعون العبارة السابقة موضع التنفيذ مع ظهور كتب تفسر القرآن بالقرآن، ومنها كتاب "أضواء البيان فى إيضاح القرآن بالقرآن" لمحمد الأمين الشنقيطى وهو يقع فى تسعة أجزاء. غير أننى لم أجد فى أى من تفاسير القرآن ما أطمئن إليه فى فهم آيات من سورة يس (١٣ ـ ٢٧) نصها كما يلى:

* ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝١٣ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ۝١٤ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ۝١٥ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ۝١٦ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ۝١٧ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١٨ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ۝١٩ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٢٠ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ۝٢١ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٢٢ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ۝٢٣ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢٤ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ۝٢٥ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾ (يس: ١٣ ـ ٢٧).

فهناك: مرسل ورسل ثلاثة وقرية أرسل إليها الرسل الثلاثة ثم هناك إبلاغ

للرسالة وتكذيب وتطير بالرسل وتـهديد بالرجم والعذاب وأخيرًا يأتى الدور الـخاص الذى قام بأدائه الرسول الثالث الذى عزز الله به جهد الرسولـين الأولـيَن:

فماذا قال الـمفسرون وكادوا يـجمعون على ما قالـوا؟! الإجابة عـلى ذلك ما يلى:

أ ـ القرطبى ١٥/ ٤: هذه القرية هى أنطاكية فى قول جميع المفسرين ما عدا الماوردى والمرسلون أرسلهم عيسى بأمر الرب وهم صادق وصدوق وشلوم وهذا الأخير هو الثالث.

ب ـ البحر المحيط لأبى حيان ٧/ ٣٢٦: القرية أنطاكية فلا خلاف حول القصة وهم ثلاثة جمعهم فى المجئ وإن اختلفوا فى زمن المجيئ وأسماؤهم صادق وصدوق وشمعون.

ج ـ النسفى ٤/ ٤: القرية أنطاكية والرسل أرسلهم عيسى إلى أهلها والاثنان الأولان هما صادق وصدوق والثالث شمعون.

د ـ الشنقيطى: لم يتعرض للقصة بتاتًا مع أن نصوصًا أخرى فى القرآن تعين على تفسيرها وهو يقول إن كتابه يوضح القرآن بالقرآن.

نحن نؤكد ثقتنا فى أن القرآن يفسر بعضه بعضًا وأن ما كشف عنه البحث اللغوى الـحديث من مفهوم التناص يؤيد صدق تفسير القرآن بالقرآن وأن من حقنا بل من واجبنا أن نطيل التأمل فى النص القرآنى للعثور على ما يعزز هذه الثقة فى أن تفسير القرآن بالقرآن يعين على الكشف عن نصوص قرآنية يمكن أن تلقى ضوءًا كاشفًا على المقصود بالآيات المذكورة من سورة يس.

دعنا أولاً ننظر إلى موقف الـمفسرين فى تناولـهم للمفاهيم التى أشار إليها النص وليكن الـمرسل أول هذه الـمفاهيم. يقول الله تعالى: "إذ أرسلنا إليهم

اثنين" فيسند الإرسال إلى ذاته سبحانه ولكن المفسرين يسندون الإرسال إلى عيسى عليه السلام وإن لم يرد له ذكر فى سياق هذا النص. وكأن بعضهم كالقرطبى مثلاً أحس بهذه المفارقة فأضاف إلى إسناد الإرسال إلى عيسى أنه كان بأمر الرب. أما المرسلون فأسماؤهم عربية بالنسبة لاثنين منهم وعبرانية بالنسبة للثالث. ولا أدرى ما إذا كان الاثنان عربيين فى رأى المفسرين أو أن اليهود كانوا يطلقون على أبنائهم أسماء عربية. فإذا نظرنا إلى القرية التى كانت غاية الإرسال وجدناها "أنطاكية" ولم يذكر المفسرون سندًا تاريخيًا يؤيد اختيارهم لهذه القرية. وكان من المهم أن يقوم شاهد تاريخى على إبلاغ الرسالة إلى أهل هذه القرية وإلى تكذيبهم للرسل وتطيرهم بهم وتهديدهم بالرجم تارة والعذاب تارة أخرى وكان على المفسرين أخيرًا أن يوضحوا لنا كيف كان جهد الرسول الثالث مؤيدًا للرسولين الأول والثانى. ذلك هو موقف الضعف فيما يقول به المفسرون.

ترد قصة موسى عليه السلام فى عدد من سور القرآن الكريم ومن هذه السور: الأعراف ـ طه ـ المؤمنون ـ الشعراء ـ القصص ـ غافر ـ الدخان وسور أخرى. وليس القرآن كتاب قصص فإذا ورد شىء من القصص فيه فإنما يأتى للعبرة أو للدلالة على صدق الرسول الأمى الذى لم يقرأ ذلك فى كتاب ولم يتلقه عن معلم. حتى قصة يوسف التى جاءت مكتملة العناصر القصصية إنما جاءت لتكون دليلاً على صدق الرسول. يقول الله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ (يوسف: ١٠٢). أى أنك يا محمد تخبر بصدق ودقة عن أمر من المكر والمكيدة لم تره بنفسك وإنما جاءك عن طريق الوحى فينبغى لقومك أن يفهموا ذلك ويصدقوا رسالتك. يقول تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ (النساء: ٨٢) ولكن القرآن يؤيد بعضه بعضًا فلا اختلاف فيه. والدليل على ذلك أن مبدأ التناص بين آياته يشهد على التأييد لا على التفنيد. والدليل على ذلك ما بين آيات سورة (يس:

١٣ ـ ٢٧) وبين ما ورد عن قصة موسى فى السور الأخرى التى ذكرناها منذ قليل. وفيما يلى تفسير لهذه الآيات فى ضوء ما بينها وبين السور الأخرى من علاقة التناص:

* "واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية".

هى مصر بدليل ما يأتى بعد ذلك.

* "إذ جاءها المرسلون".

هم ثلاثة: موسى وهارون والرجل المؤمن من آل فرعون.

* "إذ أرسلنا إليهم اثنين".

قال تعالى: ﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَـٰتِى ﴾ (طه: ٤٢).

* "فعززنا بثالث".

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ ﴾ (غافر: ٢٨).

* ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ (يس: ٢٠).

﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴾ (القصص: ٢٠).

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴾ (غافر: ٣٠).

﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ﴾ (غافر: ٣٤).

* "إنا إليكم مرسلون".

قال تعالى: ﴿ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ (الشعراء: ١٦).

* "ما أنتم إلا بشر مثلنا".

قال تعالى: ﴿ فَقَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا ﴾ (المؤمنون: ٤٧).

* "إن أنتم إلا تكذبون".

قال تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡلَكِينَ ﴾ (المؤمنون: ٤٨).

* "قالوا إنا تطيرنا بكم".

قال تعالى: ﴿ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ﴾ (الأعراف: ١٣١).

* "لئن لم تنتهوا لنرجمنّكم".

قال تعالى: ﴿ وَإِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمۡ أَن تَرۡجُمُونِ ﴾ (الدخان: ٢٠).

* "وليمسنّكم منا عذاب أليم".

قال تعالى: ﴿ لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ ﴾ (الشعراء: ٢٩).

تلك هى علاقة التناص بين قصة "أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون" وبين الإشارات القرآنية الدالة على أن المقصود بآيات (يس: ١٣ ـ ٢٧) هو موسى وهارون والرجل المؤمن من آل فرعون.

أدلة من القرآن الكريم

١ ـ صوت الطاء العربية.

إذا اطلعت على ما يكتبه المحدثون فى وصف صوت الطاء وجدتهم يرونه مهموساً، ومن ثم يربطونه بصوت التاء إذ يرون كليهما مهموساً ولا يفرق بين هذين الصوتين إلا تفخيم الطاء وترقيق التاء (اللغة العربية ـ معناها ومبناها ٥٦). أما إذا قرأت آراء الأقدمين من علماء التراث فسوف ترى الطاء فى إطار نظرى آخر. يقول ابن جنى شارحا رأى الأقدمين وأولهم سيبويه: "أعلم أن الطاء حرف مجهور مستعل يكون أصلا وبدلا ولا يكون زائدا. فإذا كان أصلا وقع فاء وعينا ولاما، فالفاء نحو طبّل وطحن، والعين نحو فطر وحطب، واللام نحو قرط وفرط" (سر صناعة الإعراب ١ ـ ٢٢٣).

وكل من المحدثين والقدماء معنى بما سمع، ويشهد الكثير من كتب التراث باقتناع الأقدمين بما لاحظوا إذ يقرر هؤلاء أنك لو رققت الطاء لصارت الطاء دالا (أى مرققة مجهورة) ولو فخمت الدال لتحولت إلى طاء. وفى القرآن الكريم ما يشهد بصدق هذه الدعوى، وذلك هو الفرق بين تفخيم الطاء وترقيقها بحسب المعنى المراد فى قوله تعالى: "والأرض بعد ذلك دحاها" على معنى الإخبار وترقيق الدال فى "دحاها" وقوله سبحانه: "والأرض وما طحاها" على معنى التأكيد بالقسم بتفخيم "الطاء" فى كلمة "طحاها". فهنا تبين من المقارنة أن الطاء والدال يأتيان خِلْفه (أى بالتناوب) حسب المعنى المراد، وأن الفرق بينهما يتضح من ناحية الترقيق والتفخيم.

إذا تأملنا دلالة هذه المقابلة بين ترقيق الدال وتفخيم الطاء فهمنا منها أن الطاء العربية من حيث الأداء النطقى تشبه الضاد المستعملة فى اللهجة المصرية فى الوقت الحاضر، وكان علينا فى تلك الحالة أن نبحث عن تفسير آخر لما نعرفه الآن من صوت لآخر غيره نعرفه الآن فى لهجتنا الحديثة باسم الطاء وهو أشبه ما يكون بالتاء المفخمة لا بالضاد المذكورة منذ قليل. هذا الصوت الذى يشبه التاء المفخمة يشبه ما أشار إليه ابن مالك يدل به على صورة تاء الافتعال ترد بعد أحد الأصوات المطبقة وذلك فى قوله:

طا تا افتعال رد إثر مطبق فى أدّان وازدد وادّكر دالا بقى

وسوف تجد فيه ما يلى:

١ ـ يشير بقوله "دالا بقى" إلى التفسير السابق للعلاقة بين الطاء والدال.

٢ ـ ويشير بقوله: "طاتا افتعال رد إثر مطبق"، إلى أن صوت التاء فى صيغة الافتعال يتحول من الترقيق إلى التفخيم ليصير طاء مطبقة.

٣ ـ نصل من كل ما سبق إلى أن الطاء فى النطق العربى القديم كانت تنطق دالا مفخمة، إلا أن يسبقها حرف إطباق (وهو الصاد أو الضاد أو الطاء؛ وأما مع سبق الظاء فقد يتحقق لها ذلك نحو "اظطلم" وقد تقلب الطاء إلى الصوت من جنس ما قبلها وتدغم فى الظاء التى سبقتها، فيقال "اظّلم" بتشديد الإدغام.

٤ ـ أما فى النطق الحديث (فى اللهجات العامية) فالطاء تأتى على صورة تاء مفخمة دائماً، ولا سيما عند تعريب الألفاظ الأجنبية نحو إيطاليا وطوبوغرافيا واسطرلاب الخ.

ويشبه ذلك ما نقرؤه فى سورة البقرة من اختلاف الترقيق والتفخيم بين السين والصاد فى موقع عين الكلمة من مادة (ب س ط) بسبب كون السين مفردة ساكنة وكون الكلمة مصدراً لا يتسم ببذل الجهد فى ﴿ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً ﴾ (٢٤٧) وكونها فعلا علاجيا فى ﴿ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ ﴾ (٢٤٥) بضم الصاد.

وانظر كذلك إلى حذف التاء فى قوله تعالى: ﴿ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ ﴾ وذكرها فى قوله جل شأنه: ﴿ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴾ (الكهف ٩٧). وذلك للإشارة لفرق الجهد بين مجرد الصعود على السد وبين خرقه.

وقد تحسن الإشارة فى هذا المقام إلى أخت الطاء وهى الظاء حين تجاور التاء إذ ترد التاء مكررة كما فى الحديث القدسى الذى رواه أبو ذر عن النبى فيما يرويه صلى الله عليه وسلم عن ربه إذ يقول: يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً فلا تظَّالموا..."

(صحيح مسلم ج ١٠ ص ٨) فيمكن بمعايير اللغة العربية أن ينطق على النحو التالى:

- بحذف إحدى التاءين كما فى الرواية،
- بإدغام التاء الثانية فى الظاء طلبا للتخفيف،

أما عن استصحاب التاءين قبل الظاء فتحول دونه قاعدة كراهية التوالى لأن مخرج الظاء يكاد يتفق مع مخرج التاء، وفى ذلك ثقل فى النطق.

٢ ـ قبلة (اسم هيئة) - متقابلة (وجها لوجه).

يقول الله سبحانه وتعالى (فى سورة يونس ٨٣): ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ﴾ معنى هذا أن عبارة "قوم موسى" لا تنطبق على جميع من كان بمصر من بنى إسرائيل، وإن كان موسى قد جاء لإخراجهم جميعاً. فالعدد المقصود منهم كان محدودا ومتفرقا من حيث المسكن. فلما أراد الله سبحانه لموسى أن يخرج المؤمنين من بنى إسرائيل من مصر قضت حكمته تعالى أن يأمر موسى بجمعهم فى موقع واحد يبدو أنه كان على الشاطئ الشرقى للنيل، فلا يحول حائل كماء النيل مثلا بينهم وبين الأرض الموعودة. وفى ذلك يقول سبحانه (يونس ٨٧): ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ أى اجعلوا

بيوتكم متقابلة بحيث يسهل جمعكم عند إرادة الهرب. ولعل ذلك كان أول صورة من صور (حارة اليهود). وقد ارشد سبحانه موسى بقوله "وأقيموا الصلاة" إلى مباشرة الدعاء أن يحميهم جل شأنه من بأس فرعون، لأن نزول الشريعة اليهودية وما اشتمل عليه من نزول الألواح لم يكن واقعاً عندئذ.

٣ ـ الانتساب فى عرف اليهود.

يحدث أحياناً أن يأتى رجل مهاجر إلى إسرائيل على أمل أن يصبح مواطنا من أهلها، فإذا سئل من أبوه ومن أمه. فإذا قال إن أباه كان يهودياً ولم تكن أمه يهودية، وإنما كانت تنتمى إلى قوم آخرين من غير اليهود رفض طلبه الانتماء إلى المجتمع اليهودى ولم يقبل أن يسجل بوصفه من بنى إسرائيل. أما إذا كان العكس فانتسب إلى أم يهودية جاءت به من أب غير يهودى فسوف يستقبل على الرحب والسعة. ولقد يبدو ذلك غريباً على الفهم الإسلامى الذى يعتد بما قاله القرآن الكريم فى شأن الانتساب إلى الأبوين من قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ﴾ (الأنعام ٩٨). ولقد ذهب المفسرون مذاهب شتى فى فهم المستقر والمستودع، ولكنى أرى الاستقرار فى اللغة يشير إلى أجل أطول من أجل الإيداع. وأن الله سبحانه بدأ الخلق من نفس واحدة هى نفس آدم عليه السلام ثم جعله فى عقبه، ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ (الأعراف ١٧٢). فانتقل أمر الذرية من ظهر آدم إلى ظهور ذريته واستقر الأمر على التوارث إلى يوم الدين. أما بالنسبة للمستودع فهو رحم الأم الذى لا يبقى الحمل فيه أكثر من تسعة أشهر، ثم يولد الجنين. فالمستقر ظهر الأب بالإرث من آدم إلى ما شاء الله والمستودع رحم الأم. ولقد درجت الثقافات جميعاً على نسبة الابن إلى أبيه ولم تشذ عن ذلك إلا قلة نادرة تنسبه إلى أمه كما ذكرنا منذ قليل بالنسبة لليهود.

من هنا نجد هارون يقول لموسى حين شد عليه فى غضبه: ﴿ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴾ (طه ٩٤). فلو أن هارون كان ينتمى إلى ثقافة أخرى فلربما قال لموسى: يا أخى أو يا بن

أبى أو يا شقيقى.. الخ ولكن هارون نسب موسى إلى أمه التى تجمع بينهما بحسب الثقافة اليهودية.

٤ ـ من مدين إلى الطور فى الشتاء.

من الأمور المألوفة أن يطلب الناس الهواء الرطب فى الصيف وأن يطلبوا الدفء فى الشتاء. وفى قصة موسى والشيخ الكبير رضى موسى أن يكون أجيراً فى خدمة هذا الشيخ وأن يظل فى موقع الأجير ثمانى سنوات أو عشرا ثم يكون حرا بعد ذلك. وقد انقضى هذا الأجل فقرر موسى أن يتحرر فسار بأهله متجها إلى الطور. ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ (النمل ٧). والمعروف أن الاصطلاء معناه طلب الدفء فى الشتاء. فالمعنى الذى يفهم بكلمة "تصطلون" أن رحلة موسى من مدين إلى الطور كانت فى فصل الشتاء.

٥ ـ العزيز رب يوسف.

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ﴾ (يوسف ٢٤)، وقال جل شأنه: ﴿ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ﴾ (يوسف ٢٥). والمقصود بسيدها هو زوجها (العزيز). دخل العزيز إلى بيته فصادف موقفاً يستعصى على الفهم، فبدأ بممارسة السبر والتقسيم كما يلى:

"إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم". ثم رأى الملك رؤياه ذات البقرات السبع، وفسرها يوسف لزميله فى السجن قبل الإفراج عنه فأخبر هذا الساقى سيده الملك عن هذا التفسير وعمن فسره. "وقال الملك ائتونى به فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك (أى الملك) فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهم إن ربى بكيدهن عظيم". مشيرا بذلك إلى قول العزيز لامرأته: "إن كيدكن عظيم". فالعزيز هو المقصود بلفظ الرب فى هذه الآية. وكذلك سمى الملك ربًّا.

٦ ـ تطويع اللفظ:

من أشهر ما فى بنية النظام اللغوى ما يعرف باسم "أقسام الكلم". واللغة العربية لغة متصرفة، تجعل لكل قسم من أقسام الكلم تقلباته الصرفية الخاصة. وهذه الخاصية تحول بين الاسم وبين الدخول فى جدول تصريف الفعل إلا فى ظروف أسلوبية خاصة. والمعروف أن كلمة "السبت" تدل على أحد أيام الأسبوع. وليس من شأنه أن يصاغ منه فعل. ولكن الأسلوب القرآنى صاغ منه فعلا مضارعاً فى قوله تعالى: ﴿ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ﴾ (الأعراف ١٦٣). والذى أعان على ذلك أن صيغة (فعل) بفتح فسكون مما تشترك فيه المصادر والأسماء الصريحة، فيقال مثلاً: ضرب كما يقال ذقن (كلاهما بفتح فسكون) ومن ثم جاء صوغ الفعل على مثال "يضربون". وليس فى أسماء باقى الأيام ما يسمح بذلك.

استعمال "هؤلاء" لإرادة الانتقاص

يدل لفظ هؤلاء فى القرآن الكريم على العزوف عن ذكر المشار إليهم لعدم الرضا عنهم.

وذلك كما يلى:

١ ـ ﴿ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ (البقرة ٣١).

٢ ـ ﴿ ثُمَّ أَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تَقۡتُلُونَ أَنفُسَكُمۡ ﴾ (البقرة ٨٥)

٣ ـ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٌ (آل عمران ٦٦).

٤ ـ ﴿ هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ ﴾ (آل عمران ١١٩).

٥ ـ ﴿ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلاً ﴾ (النساء ٥١).

٦ ـ ﴿ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ (النساء ٧٨).

٧ ـ ﴿ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِى ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾ (النساء ١٠٩).

٨ ـ ﴿ مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ (النساء ١٤٣).

٩ ـ ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ﴾ (المائدة ٥٣).

١٠ ـ ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ﴾ (الأنعام ٥٣).

١١ ـ ﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴾ (الأنعام ٨٩).

١٢ ـ ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ (يونس ١٨).

١٣ ـ ﴿ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ (هود ١٨).

١٤ ـ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ (هود ٧٨).

١٥ ـ ﴿ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ﴾ (هود ١٠٩).

١٦ ـ ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾ (الحجر ٦٦).

١٧ ـ ﴿ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴾ (الحجر ٦٨).

١٨ ـ ﴿ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾ (الحجر ٧١).

١٩ ـ ﴿ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ (النحل ٨٩).

٢٠ ـ ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ﴾ (الكهف ١٥).

٢١ ـ ﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ﴾ (الأنبياء ٤٤).

٢٢ ـ ﴿ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴾ (الأنبياء ٦٥).

٢٣ ـ ﴿ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ (الأنبياء ٩٩).

٢٤ ـ ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ (الفرقان ١٧).

٢٥ ـ ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ۝٥٤ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴾ (الشعراء ٥٤ ـ ٥٥).

٢٦ ـ ﴿ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴾ (ص ١٥).

٢٧ ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ (الزمر ٥١).

٢٨ ـ ﴿ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ (الزخرف ٨٨).

٢٩ ـ ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ۝٣٤ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴾ (الدخان ٣٤ ـ ٣٥).

٣٠ ـ ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ﴾ (محمد ٣٨).

٣١ ـ ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴾ (الإنسان ٢٧).

٣٢ ـ ﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ۝٣٢ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴾ (المطففين ٣٢ ـ ٣٣).

الإشارة فى القرآن الكريم
إلى ما سبق وما يلى من الكلام

لأسلوب القرآن الكريم طرق متعددة عند الإشارة إلى ما سيأتى من الكلام وما مضى من ألفاظ يسهل تأويلها بعبارتى ما يلى وما سبق. وسنسوق بعض الشواهد على هذه الظاهرة بقوله تعالى:

١ ـ ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝٣٧ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (البقرة ٣٧ ـ ٣٨) فالكلمات هى قلنا اهبطوا... الخ.

٢ ـ ﴿ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ (البقرة ١٢٤) أى ابتلاه بما يلى كان من مشيئة. فإضافة اسم الفاعل تجعله يدل على ما مضى.(أى سأجعلك)

٣ ـ ﴿ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْـَٔايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ۝٥٨ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (آل عمران ٥٨ ـ ٥٩). أى نتلو عليك ما يلى من آيات الذكر الحكيم.

٤ ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ .. الخ﴾ (المائدة ١ ـ ٣). وقد بلغ عدد ما حرمه الله فى هذا النص ثمانية عشر محرَّما حتى بدا أنهم استكثروا ذلك فسألوا ماذا

بقى لهم بعد كل هذا التحريم؟! فجاءهم الجواب: ﴿ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ﴾ (المائدة ٤).

٥ ـ ﴿ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ ..الخ﴾ (الحج ٣٠).

أى إلا ما يلى من عبادة الأوثان وقول الزور.

٦ ـ ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ ...الخ﴾ (النحل ٦٨). هنا يلزم تقدير عبارة (ما يلى) لأنها تفهم من السياق، و (أن) التى فى "أن اتخذى" تؤول مع ما بعدها بمصدر مفسر للقول الذى يطلبه الفعل (أوحى). ومثلها الشاهد التالى:

٧ ـ ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ...الخ﴾ (النحل ١٢٣). أى أوحينا إليك ما يلى.

والفعل (أوحى) هنا أيضا يتضمن معنى القول دون حروفه فيتطلب مقولا للقول على غرار ما سبق. وسيكون هذا الفعل طالبا لمقول القول فى كل مرة يجرى استعماله على هذا النحو.

٨ ـ ﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ... الخ﴾.

﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ﴾ (الأحزاب ٢). أى اتبع ما يلى.

٩ ـ ﴿ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴾ (طه ١٣ ـ ١٤).

أى فاستمع لما يلى:

١٠ ـ ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ ﴾ (طه ٣٨ ـ ٣٩). أن وما بعدها فى تأويل مقول القول بعد (أوحينا). أى أوحينا ما يلى.

١١ ـ ﴿ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٣٧﴾ (طه ٧٧). أن وما بعدها فى تأويل مقول القول. أى أوحينا ما يلى.

١٣ ـ ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ ..الخ﴾.

﴿ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾ (الأعراف ١٦٠) كسابقه.

١٤ ـ ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ﴾ (القصص ٧). كسابقه.

١٥ ـ ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (الزمر ٦٥).

أى أوحينا ما يلى.

هذا شأن الإشارة إلى ما يلى من الكلام. أما الإشارة إلى ما سبق القول فى شأنه فللقرآن فيه طريقة أخرى تقوم على توظيف أسماء الإشارة، إما مع ذكر المشار إليه أو بدونه، ويغلب فى هذا النوع من الأسلوب أن يكون لسوق الدلالة على صدق رسالة النبى صلى الله عليه وسلم. ومن ذلك قوله تعالى:

١ ـ ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ (البقرة ٢٥٢). وقد جاءت هذه الآية بعد إيراد قصة طالوت وجالوت وما فعله داود عليه السلام.

٢ ـ ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ (يوسف ١٠٢).

٣ ـ ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾ (هود ١٠٠).

٤ ـ ﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ﴾ (طه ٩٩).

٥ ـ ﴿ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ ﴾ (محمد ٤).

ومن غير الغالب أن يأتى التذكير بما مضى دون استعمال الإشارة، وذلك كما يلى:

١ ـ ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ ﴾ (هود ١٢٠).

٢ ـ ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ (القصص ٤٤).

٣ ـ ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ (القصص ٤٦).

وهكذا يشهد القرآن الكريم بأن عدم مشاهدة النبى صلى الله عليه وسلم فيما وقع من هذه الأحداث المشار إليها ثم يكتف بنفى المشاهدة المباشرة وإنما ينفى عنه إمكان مباشرة القراءة بقوله تعالى:

٤ ـ ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ (العنكبوت ٤٨).

تعرفهم بسيماهم

يمكن الوصول إلى المعنى بواسطة إحدى جارحتين: السمع أو البصر، وقد تجتمعان فيوصل إلى المعنى بهما معاً. فأما السمع فهو وسيلة استقبال اللغة المنطوقة، وأما البصر فوسيلة إدراك اللغة المرئية، وأما هما معا فوسيلة الاستعمال اللغوى المعتاد. ولقد حظيت اللغة المنطوقة على مر العصور بعناية الدرس والتعليم والتعلم، وبدءاً بالأصوات المفردة إلى الصيغ المفردة إلى الألفاظ المفردة إلى التراكيب اللفظية ثم إلى النصوص التامة، مع العناية فى كل خطوة بالنظر فى المعنى وظيفياَ كان أم معجمياً أم دلالياً. ولم يشغل الدارسون أنفسهم باللغة المرئية إلا عند اشتغالهم بدراسة النصوص وما يتطلبه الوصول إلى فهم معانيها من النظر فى القرائن التداولية التى تخضع للإدراك البصرى. ومن هذه القرائن التداولية ما جاء فى القرآن الكريم من ذكر "السيما" (أى العلامة) فى عدة مواضع على النحو التالى:

١ ـ ﴿ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَـٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ (البقرة ٢٧٣).

٢ ـ ﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَـٰهُمْ ﴾ (الأعراف ٤٦).

٣ ـ ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ ﴾ (الأعراف ٤٨).

٤ ـ ﴿ وَلَوۡ نَشَآءُ لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ فَلَعَرَفۡتَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ ﴾ (محمد ٣٠).

٥ ـ ﴿ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ﴾ (الفتح ٢٩).

٦ ـ يقول الله تعالى عن يوم الحساب: ﴿ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُسۡـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٞ وَلَا جَآنّٞ ﴾ فيميل القارئ إلى معرفة السبب فى الامتناع عن سؤال المذنبين فى يوم الحساب عن ذنوبهم فتأتى الإجابة صريحة ومباشرة بقوله تعالى: ﴿ يُعۡرَفُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ بِسِيمَىٰهُمۡ فَيُؤۡخَذُ بِٱلنَّوَٰصِي وَٱلۡأَقۡدَامِ ﴾ (الرحمن ٣٩ ـ ٤١).

أى أن "السيما" (وهى العلامة) وما تفيده من دلالة تترك فرصة للأسئلة فأغنت لغة البصر عن لغة السمع.

وللبلاغيين وعلماء أصول الفقه فى تراثنا العربى وقفات قريبة الشبه بما تقدم من الشواهد القرآنية. ذلك بأن مفهوم اللفظ على إطلاقه يختلف عن مدلول اللفظ المنطوق بذاته لأن اللفظ على إطلاقه يصلح للدلالة على واحد من عدد من المعانى كما يظهر فى العرض المعجمى. أما اللفظ الذى يرد فى بيئة السياق فإن من شأنه أن يدل على معنى بعينه اتضح من خلال القرائن. ومن القرائن التى تعد من قبيل "السيما" فى عرف البلاغيين قرينة المقام بدلالاتها التداولية التى تصير القرينة بها علامة على شئ معين. ولكن البلاغيين لم يقفوا عند دلالة المقام وإنما جاوزوها إلى دلالة اللفظ المراد فخرجوا بالفكرة عن مفهوم السيما إلى مفاهيم أخرى كالمجاز ولازم المعنى وغير ذلك.

وكذلك كان علماء أصول الفقه فقد نظروا إلى هذا الأمر من خلال ما يقصد باللفظ لا من خلال المقام، أى أنهم عالجوا القضية علاجاً ذاتياً لا موضوعياً.

وفيما يلى عرض تخطيطى لرأيهم فى هذه القضية:

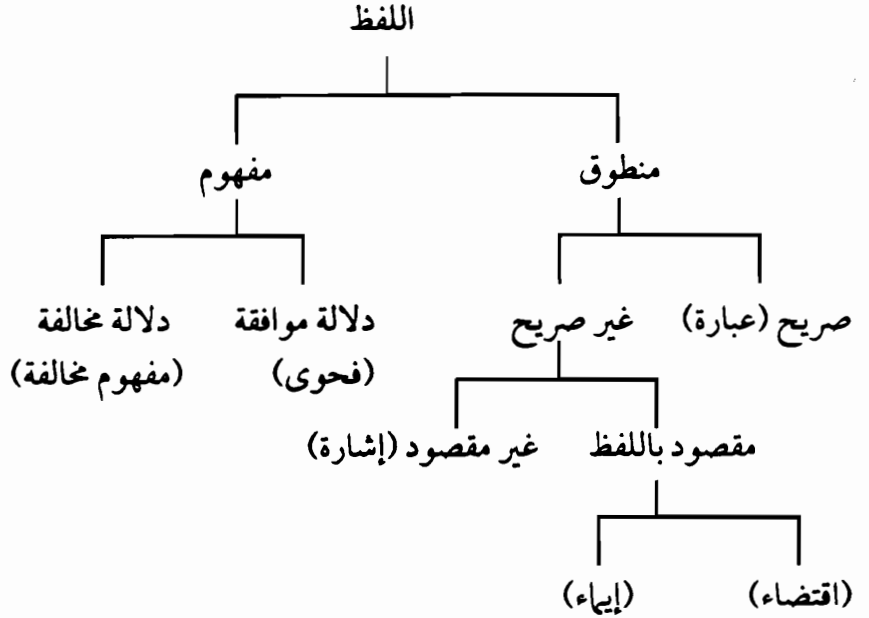

لقد رأينا فيما تقدم من الشواهد القرآنية أن السيما فى كل الحالات علامة مرئية يدركها البصر. فهى فى الشاهد الأول أنهم لا يسألون الناس إلحاف وفى الثانى أن أصحاب الأعراف "يعرفون كلا بسيماهم" "لا بما يقولون، والأمر كذلك بالنسبة للشاهد الثالث والرابع، وأما فى الشاهد الخامس فالعلامات ترى على الوجوه، وفى السادس نفى صريح لسؤال المجرمين وإثبات لكون المجرمين يعرفون بسيماهم. بذلك يمكن أن نقول إن السيما (كما يعرضها القرآن الكريم) هى علامة مرئية.

* * *

تنبهت الدراسات اللغوية الحديثة لموضوع السيما فى القرن التاسع عشر فى معرض جهود البنيويين لدراسة النظم اللغوية. ومن الغريب أن نجد شيها بين أصول الاشتقاق فى اللفظ القرآنى (أى السيما) وبين الاسم الذى أطلقه الغربيون على هذا العلم semiotics أو .semeology وفى عرفهم أن السيميولوجيا علم العلامات بصفة عامة، ولهذا يمكن أن ننظر إلى اللغة فى عمومها بوصفها نظاماً فرعياً من أنظمة السيميولوجيا يتعلق بصفة خاصة بطبيعة العلامات اللغوية.

نشأ مصطلح السيميوتيكس على يدى الفيلسوف الأمريكى الذرائعى تشارلز ساندرز بيرس (١٨٣٩ ـ ١٩١٤)، ويعود معظم ذلك إليه، ثم جاءت إضافات إلى ذلك على يدى فرديناند دى سوسير الذى أطلق على هذا العلم مصطلح السيميولوجيا.

والعلاقة بين العلامة والمدلول فى رأى سوسير علاقة ثنائية بين دال ومدلول،

أما عند غيره من المحدثين فالعلاقة ثلاثية لأن العلامة قد تدل على شئ ما بالنسبة إلى شخص ما فيكون الشخص المذكور طرفا ثالثا فى العلاقة لأنه هو المفسر interpreter (بكسر السين) لدلالة العلامة، والعلامة هى التى تعين المفسر على أداء هذا الدور إذ يمكنه بواسطتها أن يدرك ارتباطا أو معرفة إضافية تسمى interpretant بين العلامة (أى السيما) ودلالتها. وإليك المثال التالى:

عبد الله رجل وحيد يسكن بيتا لا شريك له فيه. خرج من بيته فى الصباح ليباشر عمله الذى يشغله إلى الساعة الخامسة مساء، وفى طريقه إلى الخارج لم ينس أن يقفل الباب الخارجى كما يفعل دائما. ثم وضع المفتاح فى جيبه ومضى فى حال سبيله. ثم عاد عند انتهاء عمله إلى بيته فوجد الباب مفتوحاً، فرأى أن حالة الباب علامة تدل على أن شخصاً لا يعرف من هو قام بفتح الباب لغرض عنده غير مشروع، ويظهر أن هذا الشخص لص. وتفسير ذلك كما يلى:

* العلامة الباب الذى انفتح بعد إغلاقه
* التفسير شخص غير معروف فتح الباب
* التأويل يبدو أن هذا الشخص لص

فالباب المفتوح هو العلامة، وقد فهم عبد الله من منظر الباب المفتوح أن شخصا غيره قام بفتح الباب. ثم إن هذا الباب المفتوح أوحى إلى عبد الله بفكرة إضافية هى أن هذا الشخص لص.

* * *

والباحثون فى السيميولوجيا يرون أن العلامة ثلاثة أنواع:

١ ـ الأول الأيقونة icon وهى تشير إلى المقصود على نحو ما تقضى به صفاتها الذاتية

التى يبدو منها التشابه بين العلامة والمقصود بها. مثال ذلك ما يلاحظه المرء من تشابه بين صورة الكاريكاتير وما يراد بها عند عدم التعليق عليها. ويلاحظ هنا الفارق الملحوظ بين العلامة ومدلولها من حيث دقة التفاصيل والأبعاد. ويختلف الأمر بالنسبة للصورة الفرتوغرافية التامة الشبه بموضوعها.

٢ ـ المؤشر index تشير العلامة هنا إلى موضوعها بواسطة خضوعها لتأثير هذا الموضوع. فهناك علاقة تبادل الاعتماد بين العلامة والموضوع على نحو ما سبق ذكره من أن (صاحب البيت) أدرك أن شخصا فتح الباب، (فالباب لا يفتح بذاته بعد الإقفال). ومثل ذلك أيضا دلالة الرسم الهندسى ذى الأبعاد المعينة على المبنى الذى يخضع لهذه الأبعاد، الخ.

٣ ـ الرمز symbol علامة تدل على ما تشير إليه بواسطة العرف العام وليس من الضرورى أن تحمل شبها بالمقصود، ومن هنا يكتسب الرمز طابع العموم بحكم العرف والاتفاق على هذه الدلالة. فإذا كنا نقود سيارة فى طريق لم نسلكه من قبل ثم رأينا ضوءا أحمر عن بعد فى نهاية الطريق عرفنا أن الوقوف عند هذا الضوء ضرورى حتى يتغير هذا الضوء دون تفكير فى سبب عملى (أو وجه شبه) لهذا الوقوف كوجود سيارات أخرى لها الحق فى عبور الطريق فى أثناء مرورنا بالإشارة. فالحكم فى هذه الحالة للعرف دون غيره.

فإذا كانت الرموز علامات على الأنواع المجردة فليس للأنواع وجود خارجى أو واقعى وإنما تدل العلامة على النوع الذى لا يرى إلا من خلالها.

ومن هنا يفهم المرء أن النوع المقصود يشتمل على الصفات التى سيقت من أجلها العلامة، وإن صح أن يكون للنوع صفات عارضة له من حيث هو نوع. فنحن نعلم مثلا أن ما يكون مسجلا على الأعلام من خطوط أو نجوم أو نحو ذلك لا يعد من قبيل الأنواع وإنما هو علامات على النوع. ويمكن لهذه الصفات أن تكون موجودة بالمصادفة لا بحكم الضرورة ليتمكن المرء بها من نسبة العَلَم المذكور إلى نوع الأعلام ذات النجوم. ونحوها.

المعجم أهو نظام أم رصيد من المفردات

يوصف مفهوم ما بأنه نظام إذا قامت علاقة تكافل بين مكوناته بحيث يتوقف أداء كل منها لوظيفته على طبيعة وظيفة الآخر. فى هذه الحالة ينسب للبنية العامة للمفهوم الخاضع للدراسة بأنها نظام أكبر، وأن لهذه البنية العامة أقساما فرعية يعد كل منها نظاما فرعيا. ومن الممكن أن نضرب لذلك مثلا أنظمة الحكم فى الدول المختلفة؛ إذ تتألف الدولة من مجلس للوزراء يمثل النظام الأكبر للدولة، ثم ينقسم هذا النظام إلى نظم فرعية هى الوزارات المختلفة الوظائف، ثم تنقسم كل وزارة إلى عدد من الإدارات ذات الوظائف المختلفة أيضاً، وهلم جرا. وتعتمد كل وحدة من وحدات هذه الأنظمة فى أدائها لوظيفتها على تخصص غيرها من الوحدات. من ذلك مثلا أن تنفيذ الأحكام القضائية الصادرة عن المحاكم التابعة لوزارة العدل يقع فى اختصاص وزارة الداخلية، وأن وزارة الزراعة تعتمد فى أداء مهمتها على وزارات أخرى منها وزارة الرى. وهكذا يبدو الأمر فى شأن اللغة؛ إذ كشف اللغويون فيها عن هيئة النظام، وجعلوا لها نظما فرعية كنظام الأصوات ونظام الصرف ونظام النحو، وكشفوا تحت كل واحد من هذه الأنظمة الفرعية عن نظم تتفرع منها. ولكنهم عندما تأملوا طبيعة المعجم لم يلحظوا فيه ما يدعو إلى وصفه بأنه "نظام"، وإنما عدوه حشدا من الكلمات المفردة التى تبدو فى صورة رصيد يجرى الانتفاع به فى الاتصال بمعونة النظم الثلاثة المذكورة: الأصوات والصرف والنحو.

وربما كان هذا الرأى الذى رآه اللغويون فى شأن المعجم مبنيا على نظرتهم إلى طبيعة العناصر التى يتكون منها المعجم، وهى الكلمات المفردة ذات المعانى المفردة أيضا وهى تتغير بحسب المطالب الأسلوبية الفردية. واللغويون يعلمون أن المعنى الدلالى الذى يسعى إليه الاتصال معنى سياقى غير إفرادى. أضف إلى ذلك أن المعانى المفردة يصيبها الخلط أحيانا عن طريق الترادف أو الاشتراك اللفظى أو التضاد أو بعض الظواهر التى تحول دون الثبات الذى هو جزء من طبيعة النظام. ورأوا كذلك أن محتويات المعجم قد ترفض التصنيف المحكم الذى ينبنى عليه النظام. وكانت وجهة نظرهم هذه سببا فى حكمهم أن المعجم لا يصلح أن يكون نظاما على نحو ما صلحت النظم اللغوية الثلاثة: الأصوات والصرف والنحو.

هناك نوعان من المعانى المفردة: أحدهما وظيفى والآخر معجمى. فأما المعنى الوظيفى فإنه دلالة العنصر اللغوى على معنى عام مثل معانى الضمائر والإشارات والموصولات، أو على وظيفة سياقية كعلاقة الربط بين عناصر السياق، وهذه هى وظيفة الأدوات وحروف المعانى. فوظيفة حرف العطف هى ربط المعطوف بالمعطوف عليه، ووظيفة حرف الجر تتمثل فى ربط المجرور بالمتعلق. ووظيفة أداة الشرط هى ربط الشرط بالجزاء، ووظيفة أداة القسم ربط الجواب بجملة القسم، وهلم جرا. ومظنة مكان دراسة المعنى الوظيفى هى كتب النحو ويندر أن ينص عليها المعجم. وقد عمل بعض النحاة على التأليف فى حقل المعانى الوظيفية كما نرى فى كتب مغنى اللبيب لابن هشام، والجنى الدانى للمرادى، ورصف المبانى للمالقى.

أما النوع الثانى من المعانى المفردة فهو المعنى المعجمى الذى تدل عليه الكلمات المفردة ذات الأصول الاشتقاقية والصيغ الصرفية فى الغالب، ومن شأن هذه الكلمات المفردة المذكورة أن تدل على الأشياء والأحداث كما يبدو من التخطيط التالى:

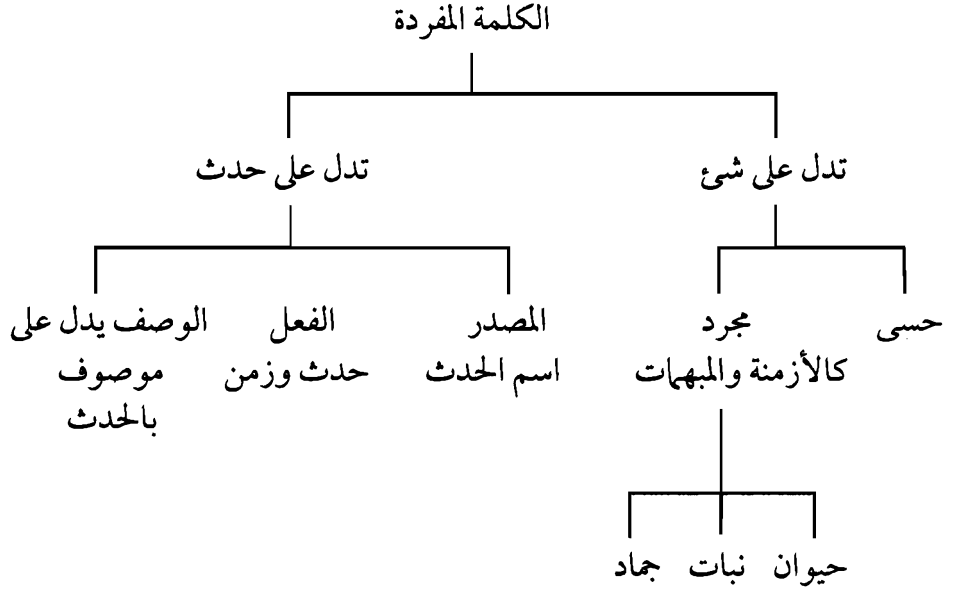

هذان النوعان (الوظيفى والمفرد) يتضافران للكشف عن المعنى الذى تدل عليه الكلمة المفردة من جهة، وتقوم عليهما وظيفة المعجم من جهة أخرى، على الرغم مما سبق من قولنا إن مظنة الكلام عن المعنى الوظيفى هى كتب النحو. فإذا كان الأمر كذلك فبنا أن نعود إلى ما اشتمل عليه عنوان هذا البحث من أن المعجم (الذى رآه اللغويون رصيدا من المفردات) هو فى الحقيقة نظام ذو شبكات وعلاقات وثيقة يقوم المعنى على أساس الاعتراف بها.

وفيما يلى بيان للعلاقات التى تترابط بها محتويات المعجم وهى المبرر لتغيير النظرة إلى طبيعة المعجم والمساعدة على تحويل الكيان المعجمى فى افهامنا من كونه رصيدا من المفردات إلى كونه نظاما من أنظمة اللغة:

١ ـ الترابط بواسطة أصول الاشتقاق.

٢ ـ التمايز بواسطة الصيغة الصرفية للكلمات.

٣ ـ بيان معنى الكلمة بواسطة هذين المحورين.

٤ ـ النظر إلى أصل وضع الكلمة لبيان الأصلى وغير الأصلى من المعانى.

٥ ـ أثر المسموع فى بيان الأصلى من غيره.

٦ ـ الحقول المعجمية وأثرها فى تكوين السياق.

٧ ـ المناسبة المعجمية بين ألفاظ من حقل وألفاظ من حقل آخر.

٨ ـ فكرة النقل وأثرها فى مرونة النظام المعجمى.

وسنحاول فيما يلى أن نشرح المقصود بكل من هذه المحاور، وعلاقة ذلك بالاعتراف بأن المعجم نظام:

١ ـ إذا أردنا أن نبحث عن معنى كلمة فى المعجم فأول ما نصادفه هو رسم الكلمة، ثم يأتى بعدها أصل اشتقاقها فى صورة حروف ثلاثة متقطعة. فإذا كانت الكلمة المطلوبة هى "جاه" مثلا وجدنا بعد رسمها حروفا ثلاثة هى (و ج ه)، وعرفنا من ذلك أن هذه الحروف تلخص علاقة بين طائفة من المفردات مما يتصل بمعنى "الوجاهة"، وأن قوله تعالى: "وكان عند الله وجيها" معناه أنه كان عند الله ذا جاه. وسنعرف أيضا من هذه الأصول أن هناك كلمات أخرى تشارك لفظ "جاه" فى أصل اشتقاقها ولكنها تختلف عنها فى المعنى أحياناً، مثل الوجه والجهة والوجهة والتوجيه الخ. وعرفنا أن أصل الاشتقاق ينبئ عن علاقة بين عدد من الألفاظ، وهذه العلاقات تسود فى نظام المعجم لتصبح واحدا من مكونات هذا النظام.

٢ ـ فإذا عرفنا هذا النوع من العلاقات الرابطة بين مكونات النظام فإن من المفيد أن ننظر فى علاقات التمايز والفروق وهى علاقات ضرورية لتكوين النظام أيضاً. ومن الواضح أن التعبير عن هذا التمايز بين المفردات يكشف عن اختلاف الصيغ الصرفية التى تقع كل منها فى نطاق معنى وظيفى بعينه. فإذا رأينا الفرق بين "قاتل" و "قتّال" و "قتيل" الخ (وهى من أصل اشتقاقى واحد) عرفنا أن الفرق يكمن فى اختلاف الصيغ. فإحدى الصيغ تدل على محدث للقتل لم يتكرر منه القتل، أو دون اهتمام بعدد مرات القتل؛ وأن الصيغة الثانية تدل على تكرار القتل من هذا الموصوف بالصيغة، وأما الصيغة الثالثة فتصف شخصا

وقع عليه القتل. تلك هى الفروق التى تتحقق من خلال اختلاف صيغ المفردات.

٣ ـ والفرق المذكور بين المعنيين يعد وظيفة للصيغة، ولهذا سمى: "معنى وظيفيا"؛ لأنه لا يشير إلى تباين فى مفاهيم خارجية من قبيل الأشياء والأحداث. وإنما يشير إلى وصف بإجراء الحدث الذى جاء مرة فى صورة اسم الفاعل، ومرة فى صورة المبالغة، وثالثة فى صورة اسم المفعول وهنا تحقق اختلاف المعنى الوظيفى بحسب اختلاف الصيغة. وقد درج النحاة على أن يصفوا المعنى الوظيفى بأنه "معنى عام حقه أن يؤدى بالحرف". ونسبوا إلى هذا المعنى أنه سبب من أسباب البناء (المضاد للإعراب) فى حالة الأدوات وحروف المعانى والضمائر والموصولات والظروف الأصلية (غير المنقولة). أما فى شأن المعجم فإن الصيغة ليس لها وجود مستقل يستدعى البناء فى مثل الصيغ الثلاث المذكورة منذ قليل، ومن هنا لم يكن معناها العام من أسباب البناء فتبنى المفردات الواردة على مثال هذه الصيغ. وأما أهمية الصيغة فى إطار النظام المعجمى فلكونها تعين (بما لها من نواحى الاتفاق والاختلاف على رؤية علاقات وتصنيفات فى إطار النظام المعجمى).

٤ ـ كانت المادة الأصلية للدراسة اللغوية العربية هى النصوص المروية عن فصحاء العرب (ويسمونها: المسموع عن كلام العرب) وحين تأمل اللغويون هذه المادة المسموعة وجدوا ظاهرتين: إحداهما تعدد اللفظ للمعنى الواحد كما فى أسماء الأسد والسيف الخ (وسموها الترادف)، والأخرى تعدد المعنى للفظ الواحد كالذى نجده من تعدد معانى "ضرب" على النحو التالى: ضرب زيد عمرا (= صفعه) ـ ضرب الله مثلا (= أورده) ـ ضرب فى الأرض (= سعى) ضرب له موعدا (= حدده) ـ ضرب عليه ضريبة (= فرضها) ـ ضرب ٥ فى ٦ (= حسبها) ـ ضرب العملة (= صاغها) الخ. فكان عليهم أن يوازنوا بين هذه الاستعمالات، وأن يعينوا الأصلى منها والأقل أصالة. فاتجهوا إلى تجريد الأصل، ونسبوا هذا الأصل إلى الوضع، أو نسبوا المعنى إلى الوضع، وجعلوا ما عدا المعنى الأصلى أحد معنيين:

أ ـ معنى تنقصه الشهرة والشيوع فى الاستعمال، ولكنه مما ينسب إلى اللفظ كما رأينا فى بعض معانى الفعل "ضرب" منذ قليل.

ب ـ ومعنى آخر جاء عن طريق النقل من المعنى الأصلى إلى دلالة أخرى لا يبررها العرف العام، ولكن تقوم قرينة معينة على إرادتها هى دون المعنى الأصلى. والمقصود بالنقل أن يتحول اللفظ فى الاستعمال من القسم الذى ينتمى إليه من أقسام الكلم (بحسب نظام اللغة) إلى قسم آخر فيعامل معاملة هذا القسم الآخر فيما يلى:

* ـ "إذ" ظرف لما مضى من الزمان بحسب الأصل، ولكنها قد تنقل إلى أحد المعانى التالية:

المصدرية، نحو "ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا".

التعليل، نحو "وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم" أى لأنهم.

الاستفتاح، نحو "وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من طين"

أى لقد قال.

• ـ "إلا" من حروف الاستثناء ولكنها قد تنقل إلى ما يلى:

الاستدراك، نحو "ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى"

أى لكن تذكرة.

وكذلك "وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى" أى لكن.

* "المصدر" وهو اسم الحدث قد ينقل إلى استعمال الفعل.

* ـ "ما" موصولة ولكنها تنقل إلى النفى والشرط والاستفهام والتعجب، وهلم جرا. ولكن أوفر صور النقل حظا من الشهرة هى صورة المجاز الذى يعرف بأنه:

"نقل اللفظ من معناه الأصلى إلى معنى آخر لعلاقة بين المعنيين مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلى".

يتضح من ذلك أن ظاهرة النقل لم تلفت نظر النحاة بقدر ما لفت نظر البلاغيين؛ إذ إن النحاة لم يلحظوها إلا فى بابين من أبواب النحو هما باب اسم العلم (ومنه منقول كفضل وأسد) وباب التمييز المنقول عن الفاعل أو عن المفعول (والفاعل المعنى انصبن بأفعلا).

٥ ـ ولعل أوضح ما يبرر دعوى كون المعجم نظاما فكرة الحقول المعجمية. كلنا يعلم أن الجملة العربية تتكون من مسند إليه ومسند، وقد تضاف إليهما مكملات ذات شروط صياغية معيّنة. فقد تكون الجملة من فعل وفاعل، وقد تكون من مبتدأ وخبر. ثم إن الفعل قد يكون متعديا وقد يكون لازما، فيصل إلى المفعول بحرف جر يخضع للاستبدال بحسب العلاقة بين الحدث الذى فى الفعل وبين مدخول هذا الحرف. وهذه الطبيعة فى تكوين الجملة العربية اقتضت أن يكون فعل ما صالحا أن يسند إلى فاعل ذى شروط خاصة، وأن خبرا فى الجملة الاسمية لا يسند إلا إلى مبتدأ ذى شروط معجمية معينة. وإن الحال تتطلب صاحبا لها يمكن وصفه بها (لأن الحال وصف لصاحبها فى المعنى). وهكذا تقوم بين المعانى النحوية علاقة المناسبة المعجمية التى تجعلها صالحة للمصاحبة فى السياق، أو علاقة مفارقة معجمية تنفى أن يكون أحد اللفظين مصاحبا للآخر. فيمكن أن يقال مثلا: "أحس فلان بالحرج أن يرفع صوته بالغناء"، ولا يقبل أن يقال: أحس البساط بالفرحة تطير فى نسيجه. ذلك أن الفعل "أحس" يتطلب فاعلا ذا قدرة على الإحساس والبساط لا حس له وهو غريب عن فكرة الحرج والفرح. ومن هنا توصف الجملة التى قيلت عنه بالفساد، لأن المفارقة المعجمية حكمت بفسادها.

وللمناسبة المعجمية درجات أرفعها منزلة أن يصاحبها مشاركة فى الأصل الاشتقاقى بين طرفيها فيتحقق بذلك عدد من الأواصر بين طرفى المناسبة (الاشتقاق والمشاركة فى المصدر والمشاركة فى أصل المعنى). انظر مثلا إلى قوله تعالى: "سأل سائل بعذاب واقع للكافرين". أو إلى قوله جل شأنه: "قال قائل منهم

لا تقتلوا يوسف" وستجد المناسبة واضحة فى المحاور الثلاثة التى ذكرناها منذ قليل. فهذه أعلى درجات المناسبة بين عناصر الجملة العربية؛ لأن السؤال لا يكون إلا من سائل والقول لا يكون إلا من قائل. وهكذا تقترب المناسبة من الحتمية.

والمناسبة بدرجاتها المختلفة شرط من شروط التضام النحوى؛ فالتضام يتكون من الأمور التالية:

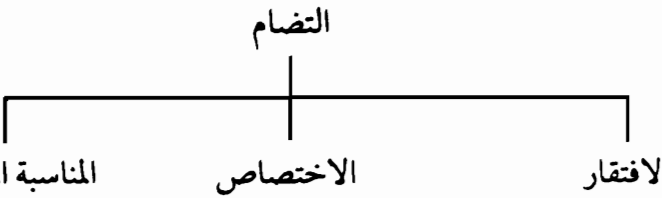

ومعنى الافتقار أن بعض كلمات اللغة لا تفيد إلا إذا ضمت إليها كلمات أخرى بعينها، أو عناصر لغوية أكبر من الكلمة المفردة. فحرف الجر مفتقر إلى مجرور، والموصول مفتقر إلى جملة الصلة، و "يا" النداء مفتقرة إلى منادى، وأداة الشرط مفتقرة إلى شرط وجواب، الخ. الاختصاص عنصر آخر من عناصر التضام يتعين بحسبه أن يقع العنصر اللغوى فى موقع بعينه بحيث لا يرد بعده إلا عنصر معين كاختصاص "لم" بالدخول على المضارع، أو قسم من أقسام الكلم كاختصاص حروف الجر بالأسماء وحروف الجزم بالأفعال، وهلم جرا. ومن الواضح أن بين الاختصاص والمناسبة المعجمية وجه من الشبه؛ لأن كلا منهما مشروط بأن يصحب ما يتفق معه فى سمات المعنى.

هكذا نكون قد عرفنا عناصر التضام الثلاثة، وعرفنا أن النظام المعجمى مسئول عن بعض مظاهر التضام النحوى؛ فمثله فى خدمة النحو كمثل نظام الأصوات ونظام الصرف. انظر مثلا إلى البيت التالى الذى نام المتنبى عن شوارده وسهر له الخلق واختصموا حول سبكه:

فأصبحت بعد خط بهجتها كأن قفـــر رسومهـــا قلما

أى فأصبحت بعد بهجتها قفرا كأن قلما خط رسومها (تأمل فساد التضام). ولعل كل ما سبق من كلام عن الحقول المعجمية وصلتها بالمناسبة المعجمية ينصب على المعنى الأصلى الذى ينسبه النحويون إلى أصل الوضع، وبذلك يكون هذا المعنى من تجريدات المفاهيم النحوية. أما المعنى المعتمد على النقل فهو إجراء اسلوبى فردى يقوم به المتكلم.

كان من المنطقى مع القول بتجريد المعنى الأصلى أن لا يتعدد هذا المعنى (لأنه جاء بأصل الوضع)، ولكن رواية اللغة لم يكن مصدرها كلام قبيلة واحدة، بل تعددت قبائل الفصاحة فى عرف النحاة حتى بلغت ست قبائل أو نحوها. فأية كلمة مفردة اختلف معناها من قبيلة لأخرى رأى اللغويون أن هذا العدد من المعانى ينسب (على رغم تعدده) إلى أصل الوضع؛ ومن حقه أن يراعى جميعه فى توزيع الحقول المعجمية وفى مبدأ المناسبة المفرد ثم فى ترتيب شرح مواد المعجم أيضا. فالمعنى المفرد معجميا كان أم وظيفيا من شأنه أن يقبل التعدد والاحتمال، ثم لا يذهب بهذا الاحتمال إلا وضع الكلمة المفردة فى سياق ذى قرينة تدل على خصوص المعنى.

من المعروف أن افتقاد المناسبة المعجمية يفسد المعنى كما مر. ولكن هناك ظاهرة أسلوبية تحول (مع عدم المناسبة) دون فساد المعنى، وتلك هى ظاهرة "النقل" التى سبقت الإشارة إليها، والتنبيه إلى أن البلاغيين كانوا أكثر احتفاء بها من النحاة. لقد وضع البلاغيون للنقل قاعدة مطردة يتحول الكلام بحسبها من الحقيقة إلى المجاز. ولقد عرف البلاغيون المجاز كما مر، وسموا النقل مجازا أى جوازا من نقطة إلى أخرى (وهذا هو المقصود بالنقل أيضاً).

نقف عند هذا الحد وقفة تأمل فى طبيعة النظام فى عمومه، ثم نحاول بعد ذلك أن نستخرج من هذا التأمل صدق الدعوى التى ادعيناها أن المعجم نظام، وليس مجرد رصيد من الألفاظ المفردة. فمن شأن كل نظام أن يقوم على أساس نوعين من أنواع العلاقات الكبرى هما: علاقات اتفاق (بين عناصر النظام) وعلاقات

اختلاف (أى فروق) بين هذه العناصر. فأما علاقات الاتفاق فإنها تعين على التبويب (أى وضع العناصر المتشابهة فى مجموعات)، وأما العلاقات الفارقة فإنها تعين على تمايز هذه المجموعات كل منها عن الأخرى. وباستعمال الاتفاقات والفروق يمكن أن يتحقق النظام، ويمكن عندئذ تجريد الأقسام والاصطلاح لها. وهكذا يمكن تلخيص فكرة النظام بأنه بناء من العلاقات والتجريدات المعبرة عن هذه العلاقات.

فإذا نظرنا إلى المعجم فى ضوء هذه الحقائق ادركنا ما له من طابع النظام وأن هذا النظام يبدو على النحو التالى:

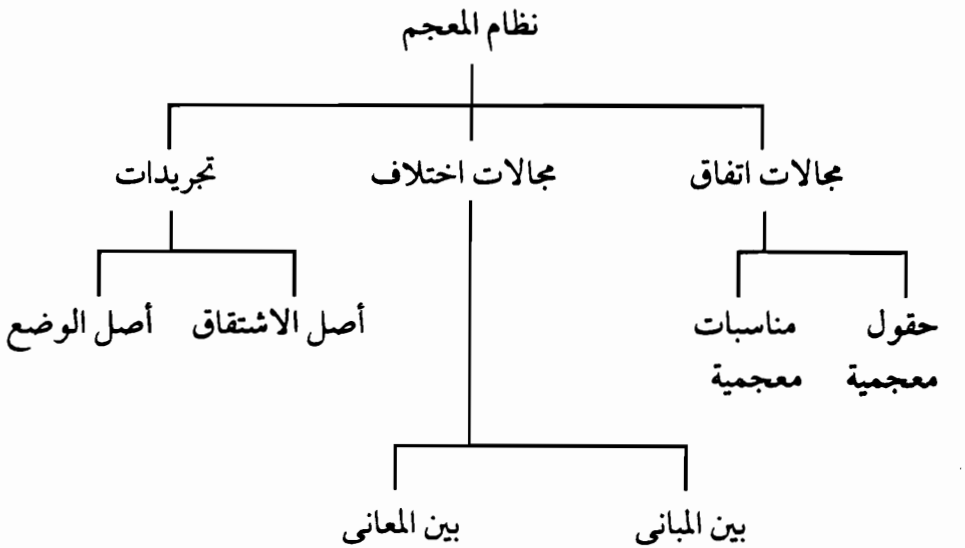

هذه العناصر التى يتكون منها نظام المعجم يتفاعل بعضها مع بعض، كما أن نظام المعجم ذاته يتكافل مع النظم اللغوية الأخرى (الأصوات والصرف والنحو) فى سبيل إنتاج النص اللغوى. والمعروف أن الوصول إلى المناسبة المعجمية فى الاستعمال يتطلب وجود الحقول المعجمية، وهذه الحقول تقوم على العلاقات بنوعيها بين المفردات. وبهذا يتضح أن المعجم نظام وليس رصيدا من المفردات.

الرجال قوامون على النساء.

يتفاوت الفهم لدى الرجال والنساء عند سماع قوله تعالى: ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾ (النساء ٣٤). ويقع اختلاف الفهم بالنسبة لأمور ثلاثة:

١ ـ بالنسبة لمفهوم الأفضلية التى هى سبب القوامة،

٢ ـ وبالنسبة للبعضية المتمثلة فى عبارة: "بعضهم على بعض"،

٣ ـ ولمفهوم الإنفاق من لدن الرجال.

وفيما يلى بيان لوجه الصواب فى فهم هذه الأمور:

• يخطئ بعض الرجال إذ يفهم أن المقصود بالأفضلية حكم قيمى مجرد لا يرتبط بأسس اجتماعية أو تكوينية تتصل بالقدرات الطبيعية لكل من الجنسين، أو دينية تتصل بالتكاليف الشرعية. فأما الرجل فيتمثل سوء فهمه فى كونه يطلق لنفسه العنان فى التسلط على امراته ويرى فى ذلك رخصة من عند الله منحه إياها لمجرد كونه رجلا، ويبالغ فى ذلك على طريقة (سى السيد). وأما المرأة التى لا يروقها ذلك فإنها عندما تضيق بهذا التسلط من لدن الرجل تلتمس لنفسها مخرجا بتأويل الآية الكريمة على غير وجهها الصحيح، فتخطئ كما أخطأ الرجل من قبلها وذلك بتأويل النص بحيث تسخره لصالحها. فالفريقان فيما نرى بحاجة إلى معرفة الأسس التى بنى عليها تفضيل الرجال بجعلهم قوامين على النساء، وهى أسس لا ينبغى لها أن تكون مدعاة لفخر الرجل ولا لسخط المرأة وفى ذلك بيان لهذه الأسس:

• خلق الله الرجل وأمده بقوة عضلية ليس للمرأة مثلها، وذلك ليكون قادرا على السعى فى طلب الرزق وعلى أن يعول أسرة متعددة الأفراد وعلى حماية من يعول إذا تعرض عياله لظروف غير مواتيه. أما المرأة فإن وظائفها تختلف عن وظائف الرجل ولكنها لا تقل أهمية عنها وإن لم تكن صالحة لجعل المرأة قوامة على الأسرة.

• لما كان من وظيفة الرجل أن يكون عائلاً لأسرته ولم تكن المرأة كذلك اعطى الله تعالى للرجل من الميراث مثل حظ الأنثيين فكان ذلك مصداقاً لقوله تعالى: "بما فضل الله بعضهم على بعض".

• ومن صور التفضيل أيضاً أن ينسب المولود إلى الأب دون الأم محافظة على الأنساب، وفى ذلك يقول الله سبحانه: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ (الأحزاب ٥).

• ومما خص الله به الرجل دون المرأة أن يكون الرجل صالحا للإنجاب طول عمره بخلاف المرأة التى تتوقف عن أداء هذه الوظيفة عند سن اليأس.

• مما لا يتعارض مع حفظ الأنساب أن يأذن الشارع بزواج الرجل من امرأة واحدة أو أن يتجاوز ذلك إلى أربع نساء، أما المرأة فإذا عددت الأزواج فرقت الأنساب ووقع النظام الاجتماعى فى فوضى، ولذلك حرم الشارع تعدد الأزواج للمرأة الواحدة.

• يوجد العنصر الحيوى (الحيوان المنوى) فى ماء الرجل وتبقى المرأة مجرد مستقر للجنين حتى يأذن الله تعالى بإخراجه طفلا.

• من طبيعة الحياة العامة أن يكون ثمة مجتمع للرجال وآخر للنساء، وان تختلف معايير السلوك فى أحد المجتمعين عنها فى الآخر. والمجتمع الرجالى منفتح والمجتمع النسائى مغلق. ومن هنا يصبح للكلمة وزن لدى الرجال أكثر مما لها عند النساء. ولذا أصبح الرجل : أكثر حرصا على انتقاء كلمته من المرأة. ولهذا السبب جاء قوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا

رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ البقرة (٢٨٢). وللضلال صور لا تحصى!

ثانيا: مفهوم البعضية:

لخص الله سبحانه وتعالى الأسباب السابقة لإسناد القوامة إلى الرجل بقوله جل شأنه: "بما فضل الله بعضهم على بعض". والمعنى (والله أعلم): بسبب الأمور التى سبق ذكرها. ولكن من النساء من تخطئ فى فهم هذه العبارة تحت دافع الاستنكار لتسلط الرجل. وقد سمعت سيدة فاضلة فى برنامج تلفزيونى تقول إن المقصود بالبعضية أن الله فضل بعض الرجال على بعض النساء. ولو أخذنا بهذا الفهم لاحتمل المعنى أن يكون المقصود من الآية هو كون بعض النساء أفضل من بعض الرجال. وهذا ليس من مقاصد الآية الكريمة بالطبع.

ثالثا: مفهوم الإنفاق:

قال تعالى فى بيان سبب الأفضلية: "وبما أنفقوا من أموالهم". وإذا أردنا أن نبين الأحوال التى يتم فيها الإنفاق المناسب للرجل دون المرأة وجدناه يبدو فى صورتين: الأولى هى المهر الذى يدفعه الرجل عند الزواج، والثانية هى النفقة التى تجب عليه بعد الدخول. وليست المرأة مسئولة عن شئ من هذا القبيل.

بهذا نجد أن الأفضلية ليست بسبب الذكورة ولكنها بسبب وظائف للرجال يختصون بها دون النساء، ولهذا جاء قوله تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾. ولا داعى عندما تضيق المرأة بأخطاء الرجل أن يدفعها ضيقها إلى التهجم على مدلول الآية الكريمة. وقد يكون لنا أن نذكر فى هذا المقام بالحديث الشريف الذى يجعل الرجل راعيا فى أهله ومسئولا عن رعيته، ويجعل المرأة راعية فى بيتها ومسئولة عن رعيتها. وواضح أن رعاية الأهل أثقل حملا من رعاية البيت وهذا وجه آخر للأفضلية.

أيام الله فى القرآن الكريم

ورد فى تعقيبى على ما قاله بابا الفاتيكان فى تهجمه على الإسلام شاهد قرآنى على الأمر بالتسامح فى التعامل مع غير المسلمين إذا بدت منهم إساءة للإسلام أو للنبى الكريم (عليه الصلاة والسلام) أو لأحد المسلمين، وذلك قوله تعالى فى سورة الجاثية: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (١٤). وقد حرصت قبل أن أضع هذا بين شواهد التعقيب أن أَتَثَبَّتَ من المعنى المقصود بلفظى "يرجون" و "أيام الله". وكان فى متناول يدى عندئذ من التفاسير المشهورة خمسة تدعو للاطمئنان هى: البحر المحيط لأبى حيان وتفسير القرآن العظيم لابن كثير وتفسير النسفى وتفسير القرطبى ثم الكشاف للزمخشرى. بدا لى أن أفضل الطرق أن ألتمس سبب النزول للكشف عن سياق الموقف للوصول إلى معنى سياق اللفظ فوجدت سبب النزول بصورة عامة يرتبط بعمر بن الخطاب وما كان من غضبه إما على عبد الله بن أبى إذ نطق بعبارة مهينة للمهاجرين أو على يهودى سمع قوله تعالى: من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا" فقال: احتاج رب محمد. وفى كلتا الحالتين امتشق عمر سيفه وحاول إيقاع العقاب باليهودى.

قال المفسرون المذكورون إن معنى "لا يرجون أيام الله" لا يرجون ثوابه، أو لا يخافون بأس الله ونقمته، وقال بعضهم: "لا يخافون البعث". فإذا تأملنا هذه الأقوال وجدنا حاجة إلى فهم عبارتين: "لا يرجون" و "أيام الله". فأما الرجاء

فأشهر معانيه توقع حدوث الشئ فإذا انصرف ذلك إلى "أيام الله" (وسوف نبين المقصود بها بعد قليل) تبادر إلى الفهم أنهم لا يؤمنون بها ولا بما ورد فى القرآن الكريم من الإشارة إليها. وهذا شأن الذين لا يؤمنون بالغيب ولا بتعاليم الإسلام. ويقال إن المقصود بهذا (كما سبق القول) أن يقول الرسول ذلك لعمر بن الخطاب فيما يتصل بما قاله عبد الله بن أبى من إهانة للمهاجرين، أو ما قاله اليهودى عند سماعه قول الله تعالى: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ (البقرة ٢٤٥): إذ قال "احتاج رب محمد". فالقائل على الروايتين غير مؤمن بالله ولا باليوم الآخر. أى أنه لا يتوقع مجئ هذا اليوم ولا يؤمن به.

أما "أيام الله" فسوف نفصل القول فيها كما يلى: ينسب القرآن اليوم إلى الله إذ تعلق هذا اليوم بمشيئة الله وقضائه سواء تعلق هذا القضاء بأمور الدنيا أو بأمور الآخرة. وفيما يلى نورد مختارات من آيات القرآن الكريم يشتمل كل منها على ذكر يوم من أيام الله:

- ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ (فاتحة الكتاب ٤).
- ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ البقرة (٨).
- ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ البقرة (٨٥).
- ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ﴾ البقرة (٢٥٤).
- ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ ﴾(آل عمران ٩).
- ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا ﴾(آل عمران ٣٠).
- ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾(آل عمران ١٠٦).
- ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ﴾(المائدة ١٠٩).
- ﴿ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾(المائدة ١١٩).

- ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ ﴾(الأنعام ٢٢).
- ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ ﴾ (الأنعام ٧٣).
- ﴿ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ (الأعراف ١٤).
- ﴿ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ﴾ (الأنفال ٤١).
- ﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ ﴾ (التوبة ٣).
- ﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ﴾ (التوبة ٣٥).
- ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾(التوبة ٣٦).
- ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ (هود ١٠٣).
- ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّٰمِ ٱللَّهِ ﴾(إبراهيم ٥).
- ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾ (إبراهيم ٤١).
- ﴿ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ ﴾(إبراهيم ٤٤).
- ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾(إبراهيم ٤٨).
- ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴾ (الحجر ٣٧ ـ ٣٨).
- ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ (النحل ٨٤).
- ﴿ يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ ﴾ (النحل ١١١).

- ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (الإسراء ٥٢).

- ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ (الكهف ٤٧).

- ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ ﴾ (الكهف ٥٢).

- ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾ (مريم ٣٨).

- ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ ﴾(مريم ٣٩).

- ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴾ (طه ١٠٢).

- ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ﴾(الأنبياء ١٠٤).

- ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ (الحج ٤٧).

- ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (النور ٢٤).

- ﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ﴾ (النور ٦٤).

- ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾(الفرقان ٢٢).

- ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ ﴾(الفرقان ٢٥ ـ ٢٦).

- ﴿ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ (الشعراء ٨٧ ـ ٨٩).

- ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ (القصص ٦٢ و ٧٤).
- ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ (القصص ٦٥).
- ﴿ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾(العنكبوت ٥٥).
- ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ (الروم ١٢).
- ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ (الروم ٤٣).
- ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ﴾ (الروم ٥٦).
- ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَـٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾ (الأحزاب ٤٤).
- ﴿ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَـٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴾ (غافر ١٥).
- ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ ﴾(غافر ١٨).
- ﴿ وَيَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴾ (غافر ٣٢).
- ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴾ (غافر ٥١).
- ﴿ لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ﴾(الشورى ٧).
- ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾ (الدخان ١٠).
- ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾ (الدخان ١٦).
- ﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَـٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا ﴾ (الدخان ٤٠ ـ ٤١).

- ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ (الجاثية ٢٧).
- ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا ﴾ (الأحقاف ٢٠).
- ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴾ (ق ٢٠).
- ﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴾ (ق ٣٤).
- ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ (ق ٣٠).
- ﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴾ (ق ٤٢).
- ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾ (ق ٤٤).
- ﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ۝ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ (الطور ٩ ـ ١١).
- ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ (الطور ١٣ ـ ١٤).
- ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ (الطور ٤٦).
- ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴾ (القمر ٦).
- ﴿ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴾ (المعارج ٨).
- ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴾ (المزمل ١٤).
- ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ (النبأ ٣٨).
- ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴾ (النبأ ٣٩).
- ﴿ يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ (النبأ ٤٠).
- ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴾ (النازعات ٦ ـ ٧).

- ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ (عبس ٣٤).

هذه نماذج من أيام الله اختير معظمها من عدد من مرات ذكره فى نص القرآن الكريم اختصارًا للموضوع المعروض. وقد كان اختيار العنوان فى ضوء ما ورد فى الأية الخامسة من سورة إبراهيم.